موت العالم

عبد الرحيم كمال

موت العالم

المعروفة شعبيًّا
بـ«مذكرات محمود غزالة»

رواية

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٤
© عبد الرحيم كمال ٢٠٢٤
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

كمال، عبد الرحيم.
موت العالم المعروفة شعبيًّا بـ«مذكرات محمود غزالة»: رواية / عبد الرحيم كمال - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٢٦٤ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778727340
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٤٠ / ٢٠٢٤

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١
تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

السجين

ما أجمل رواية في العالم؟

رواية حظي بها سجين في زنزانته فكانت رفيقة سجنه، وجدها ملقاة على أرض الزنزانة بلا غلاف ولا يعرف مَن كتبها، فقط صفحات متتالية، فصارت تسليته طوال وحدته، رواية ليست لها صفحة غلاف ولا تحمل اسم دار للنشر ولا اسم كاتب ولا رقم إيداع.

هذه الرواية بالنسبة إليه هي العالم بأكمله، كانت تضيء ظلمة محبسه بل تشعله بالأنوار، وتقيم فيه الأفراح والمآتم.

وكما لم يعرف مَن كتبها فهو لم يعرف أيضًا مَن تركها له داخل محبسه، ربما كان السجين السابق، وربما كان السجين الأسبق.

كانت أشعة الشمس تصل إلى يديه وإلى صفحات الرواية الصفراء فتنبعث الحياة داخل روحه، ويطالع فيها كل ما تشتهي نفسه. كانت تلك الرواية جنته وناره، كانت أمله ومصيره، وكانت في لحظة ما دنياه وآخرته.

بدأت بسطور متحركة تحكي مباشرةً ما حدث، حتى التبس عليه الأمر، فلم يعد يدري إن كان ما حدث في تلك الرواية حدث له هو

أم حدث للبطل المكتوب. تمنى كثيرًا لو أنه يمتلك ورقة وقلمًا ليكتب عن مشاعره تجاه ما يقرأ كل ليلة من أحداث يهتز لها كيانه. أعاد قراءة الرواية مرات عدة، وصار يحفظ أجزاءً كبيرة منها. لا يدري متى تحديدًا بدأ القراءة، كان ذلك بعد دخوله السجن بالتأكيد، لكنه لا يتذكر متى دخل.

يتذكر فقط أنه بدأ هنا القراءة، وكانت سطور الرواية الأولى، التي لم تكن السطور الأولى بالتأكيد، فالرواية بلا غلاف وبلا صفحات أولى، وتبدأ مباشرة من الصفحة الثالثة بجملة:

«حُكِم على البطل بالسجن المؤبد، ولكنه لم يكن حزينًا».

يتوقف كل مرة عند ذلك السطر ويردده عدة مرات بإيمان عميق، وتتراءى في مخيلته خلف عينيه المغمضتين صورٌ لحياته قبل دخوله السجن، ثم يفتح عينيه ويعاود القراءة بشغف لم يفقده قَطُّ، على الرغم من أنها المرة الثانية والسبعين التي يُعيد فيها قراءة الرواية التي هي بلا بداية ولا نهاية؛ فقدت صفحاتها الأخيرة أيضًا، وكان ذلك جيدًا ليتخيل النهاية في كل مرة كيفما يشاء. كان يتظاهر في كل مرة أنه نسي أحداث الرواية حتى لا يفقد الحنين إلى إعادة القراءة. وظن الحارس الجديد نسبيًّا الذي تسلَّم العمل منذ سنتين فقط، أن السجين هو كاتب الرواية نفسه، لما رآه من شدة تعلقه بها، فساعده على توفير الإضاءة المعقولة ليلًا، وإصلاح نظارته أكثر من مرة ليتيح له متابعة القراءة، وكانت النُّدرة تجعل لكل شيء قيمة أكبر، فالنور الشحيح يجعل العينين تحدقان أكثر، والصمت والوحدة يجعلان الكلمات تسكن

في الرأس إلى الأبد، ويعاد ترتيبها أكثر من مرة، فلا تخرج في النهاية إلا هامسةً بالحكمة، حكمة يتخذ منها الحارس مع الوقت منهاجًا لحياته؛ كان الحارس ينظر إلى السجين وهو يقرأ بقداسة كبيرة، كأنما ينظر إلى نبي يتلو عليه آيات مقدسة.

ربما يظن أحدنا أن تلك الرواية كانت رواية قيِّمة مليئة بالحكمة وزاخرة باللغة الراقية، وفنون السرد الخلابة، وتملك رؤية للعالم وقضاياه الكبرى، وأن مَن كتبها هو أحد الأدباء ذوي الذائقة العالية من أولئك المنسوبين إلى الطبقة العليا من الكُتَّاب، لكن ذلك كله ليس صحيحًا، كانت مجرد رواية عادية في طبعة من الطبعات الشعبية الرخيصة، رواية لا ترقى إلى ذلك الصنف الأدبي الممتاز، لكن كل هذا لم يكن يعني سجيننا في شيء، فقد وجد ضالته.

الفصل الأول

تكاليف الحياة

١
الحدث العجيب

حُكم على محمود غزالة بالسجن المؤبد، لكنه لم يخرج من سجنه بعد نهاية الحكم، ولم يمت أيضًا! ليست تلك هي العجيبة الوحيدة في سيرة محمود غزالة، فهناك عجائب عدة، سنكتشفها كلما اقتربنا من ذلك الرجل. قيل إنه أتمَّ داخل السجن كتابه، وإن الحارس رشدي حمل الكتاب إلى بيته، كان مخطوطًا مقدسًا بالنسبة إلى الحارس الذي احتفظ به – كأنه سر عمره – في مكان آمن، وكان يطالعه منفردًا كل فترة، حتى إنه مات وكتاب محمود غزالة في حِجره. ثم قرأ ذلك المخطوط ابن أخت الحارس (نجيب الأسواني)، وقرر أن ينشره. نُشر الكتاب بوصفه قصة مسلية عن رجل فقد عقله وظن أن الناس أموات يتظاهرون بالحياة. حقق الكتاب مبيعات تفوق خيال الناشر، وتعددت الطبعات ونفدت في زمن فقدت فيه النسخ الورقية قيمتها وفقد الناس شغفهم بالقراءة، ولكن الكتاب الذي كتبه غزالة في محبسه لقي رواجًا ربما أكثر بكثير مما حدث لغزالة بالفعل.

كانت تلك الرواية العادية – تعبير رواية هنا تعبير مجازي، فهي

مجموعة أحداث وشخصيات كتبها غزالة من دون رابط قوي أو بناء روائي معتاد – من وجهة نظر الناشر، باب السعد له، ولكن كل ذلك لم يكن الأكثر عجبًا، فالحياة تحمل في هذه الأيام كثيرًا من المفاجآت للبشر العاديين وقصصهم، وربما صارت قصة الرجل العادي أهم كثيرًا من صاحبها. لقد قرأ أحدهم (أحمد خليل كردوس) تلك الرواية، وتعامل معها بوصفها نظرية حقيقية يستطيع أن يقيس حياته كلها وفق ما طرحته. وقرر أن يكمل الجزء الثاني من تلك الرواية التي غيرت مجرى حياته، وبالفعل كتب رواية «أرواح مستعملة»، مستلهمًا عنوان روايته من عنوان لأحد فصول رواية غزالة كامتداد لها، وكانت رواية «أرواح مستعملة» هي التي ألهمت كثيرًا من الشباب تبنِّي أفكار غزالة التي طورها كردوس. وظهرت جماعة «الإحياء» التي بدأت كجماعة مسالمة هادئة مطمئنة، تتعامل بتحفظ شديد مع المجتمع، تحفُّظ لا يخلو من تعالٍ لم يتمتعوا – وفق ظنونهم – به في حياة حقيقية لا يملكها أغلبية المجتمع، تحت شعار «هذا العالم قد مات منذ فترة ولن نبذل أي جهد لمحاولة إحياء أحد. إننا في بيوتنا نحتفظ بأفكارنا المرفوضة لأنفسنا». ولكن مع الوقت ظهر منهم مَن هو أكثر عنفًا وأشد حدة.

العجيب أن نهاية محمود غزالة الحقيقية ظلت غائبة عن الجميع، وربما أيضًا بدايته، ولكنها اجتهادات ظهرت في فقرات صغيرة داخل روايته وفي ملفات محاكمته.

٢
محمود غزالة

كان كل شيء كأنه طبيعي تمامًا، الناس تتكلم وتتحرك وتشرب وتفعل ما اعتادت فعله، ولكن أمرًا ما، أمرًا غير ملحوظ بسهولة، شاء القدر أن يدركه ويكتشفه محمود نافع غزالة في صبيحة ذلك اليوم الشتوي. كان صباحًا أوروبيًّا ممتازًا في شوارع القاهرة، الطرق الزراعية تكسوها الشبورة من كل جانب، ومحمود غزالة يقود ببطء شديد معتمدًا على ضوء المصابيح الخلفية للسيارة التي تتقدمه، الجميع يقود سياراته ببطء وتحفز وترقب، لا شيء خارج السيارة إلا اللون الأبيض. أرسلت مدرسة طفليه رسالة متأخرة جدًّا قرب الفجر تقريبًا، تخبرهم أن اليوم ستُعطَّل الدراسة فيه لقسوة الظروف المناخية. كانت زوجته مريم مريضة ولم تذهب إلى عملها، وحده أصر على أن يذهب إلى العمل؛ المكوث طوال اليوم في البيت أمر لا يطيقه أبدًا. السيارات تسير ببطء خانق ولا شيء يتحرك تقريبًا. بدأ الضيق يتسرب إلى محمود غزالة أكثر مع مرور الوقت، الوقت الذي لا يمر تقريبًا. واكتملت الحالة باصطدام جعله يرتج داخل سيارته

ويصطدم رأسه بعجلة القيادة، فما كان منه تلقائيًّا إلا أن ضغط على دواسة الفرامل ليصطدم هو أيضًا بمن أمامه، ما أسفر عن اصطدام سبع سيارات في لحظة واحدة، مما جعل قائدي السيارات السبع يفقدون اتزانهم ويهبطون وسط الظلمة البيضاء، ويبدأون في السبِّ المتواصل؛ أصوات غاضبة تسبُّ في الضباب، بلا ملامح أو حتى أشباح لأولئك الذين يسبون. وزاد على السبِّ صوت الخبط و«الرزع» لكلٍّ منهم على مقدمة سيارته بكل قوته، ليتحول المشهد إلى شيء عبثي همجي لأصوات تزعق وأيدٍ تدق وأشخاص غاضبين غير مرئيين. زاد الصوت ضاغطًا على محمود غزالة، ولم يتوقف حتى صعد فوق سيارته وسط الضباب الأبيض وأخذ يصرخ:

– إنتو أموات! إنتو مش عايشين! إنتو بتتحركوا وتاكلوا وتشربوا وتغضبوا وتزعقوا زي أي حيوان لكن مفيش روح جواكم! إنتو أموات! أموات...

ظل يصرخ بلا توقف حتى هدأت كل الأصوات وانقشع الضباب، وتحركت السيارات بشكل طبيعي تحت شمس الصباح فيما ظل محمود غزالة فوق سيارته، يلهث من أثر الانفعال والسيارات تتحرك حوله من غير أن يعيره أحد التفاتًا.

أخرج محمود غزالة هاتفه المحمول، وكتب في «النوتس» بهدوء:

«لقد مات الإنسان، وبما أن الإنسان هو معنى هذا العالم، فإن العالم نفسه قد مات».

نظر إلى قرص الشمس في تبتُّل روحاني، وانتشر الدفء في جسده وواصل الكتابة:

«... لا تغضب ولا تُفاجَأ؛ لا ذنب لهم في شيء، فهم فقط ليسوا أحياء ولكن لا يشعرون.
لقد قامت القيامة وأُخذت أرواح الناس من دون أن يعلموا، أجل، الآن وجدت تفسيرًا لكل شيء من حولي: لماذا يحملق إليَّ جاري دقائق طويلة بلا معنى، ولماذا صرنا نشاهد في التلفزيون أحدهم يقطع رأس رجل آخر ويسير بالرأس مسافات طويلة والناس تتابع القاتل والمقتول في صمت...».

في البداية أتى الموضوع لمحمود في صورة أحلام متتابعة يرى فيها الناس أجسادًا تهذي بلا روح، لم يحكِ كوابيسه لأحد؛ لن تكترث مريم بالأمر، ولن يشاركه زميله الأقرب في العمل الأمر بحماس. واجتاح محمود شعور طاغٍ بالكآبة والوحدة، وظل السؤال يتردد داخله كثيرًا بلا توقف: «ما الجميل في أن تكون حيًّا بين أموات؟ وما أدراك أصلًا أنك حي ولست مثلهم؟».

أغمض عينيه وصمت، وخاف حتى أن يتحدث في سره، غطى الخوف على الكآبة واتجه إلى بلكونة منزله المطلة على الشارع الرئيسي المزدحم، ووقف يراقب في توتر، الناس تسرع كالمعتاد، والسيارات بعضها خلف بعض، وإشارة المرور أرقامها «الديجيتال» تواصل العد، والأطفال في البلكونة التي تليه يلعبون، والسؤال يصرخ في رأسه: «هل أنت الحي الوحيد في هذا العالم، أم أن آخرين يشاركونك تلك المأساة؟!».

٣
القاتل

صُدم أهل القتيل صدمة مروعة، لم يُغضِب سمير أسعد أحدًا من قبل، كان زوجًا نموذجيًّا وأبًا لطيفًا ومديرًا عادي الطباع إلى حدٍّ مدهش، لم تتخيل زوجته السيدة سلوى في يوم من الأيام أن يأتي صوت أحدهم في هاتفها المحمول ليخبرها: «المهندس سمير أسعد مرمي في الشارع مقتول يا مدام»!

أغلقت سلوى الغرفة على أطفالها، ونزلت سبعة أدوار حافية، وجرت في الشارع لتجد سمير كما هو، هادئًا نائمًا على أسفلت الشارع بكامل ملابسه، لم يزد عليه شيء سوى كثير من الدماء المتسربة من مواضع الطعنات الست.

– جوزي مين اللي قتل واحد في الشارع واتقبض عليه؟! إنت مجنون؟!

كان هذا رد السيدة مريم على الخبر الذي وصل إليها، ثم راحت تتصل بشكل هستيري برقم زوجها، وفي كل مرة يأتي الصوت المبرمج يخبرها بأن الهاتف ربما يكون مغلقًا. أفلتت منها ابتسامة

عصبية قصيرة وهي تنظر في بلاهة إلى اللاشيء وتهمس: «محمود غزالة يقتل؟!».

رفع الضابط بصره، وواجه الجالس أمامه بسؤال مباشر:

– قتلت سمير أسعد ليه؟

رد محمود غزالة ببساطة وثقة واقتناع تام:

– أنا ما قتلتش حد، هو ميت من الأول.

نظر إليه الضابط نظرة مَن اعتاد تلك الترهات والردود العجيبة، وابتسم بلا ضحك وقال:

– ميت إزاي؟ الراجل كان ماشي في الشارع على رجليه وحضرتك طعنته عدة طعنات متتالية لحد ما مات، إزاي كان ميت؟

رد المتهم بثقة أكبر وصدق تام:

– كان ميت من الأول يا فندم، زي كل الناس اللي ماشية في الشارع، هما ميتين كلهم، في الشارع في البيت في المدرسة في المستشفى في القسم، كله أموات، وحضرتك برضو ميت زيهم.

ساد الصمت طويلًا في غرفة التحقيق...

صحيح أن الضابط الشاب ضحك، لكن الأمر ظل عالقًا بذهنه، حتى إنه تابع سير هذه القضية مدة طويلة وحتى صدور حكم القاضي.

دخل محمود غزالة إلى النيابة شاردًا مضطربًا وبدأ التحقيق، لم يكن يشغل باله إلا أمر واحد: هل يخبر وكيل النيابة بقصص السجناء الموتى؟ وهل يطلب الحماية؟ ولكن ماذا لو كان وكيل النيابة مثلهم؟ وهذا هو الغالب، بل هي الحقيقة. عليه أن يتأكد أولًا من الرجل قبل أن يستنجده. تتالت أسئلة وكيل النيابة الواضحة للمتهم محمود غزالة

عن أسباب ارتكابه لجريمة القتل، وأنكر غزالة كل شيء، وقال إنه لم يقتل أحدًا، كل ما في الأمر أنه تناقش مع الرجل بهدوء ثم طلب منه الرجل في نهاية النقاش أن يريحه، وحينما سأله محمود عن كيفية تلك الراحة صرخ فيه الرجل:

– أنا زهقت! أرجوك ريحني! افصل عني الحياة الميتة دي أرجوك! أنا ما أقدرش أعمل كده بنفسي، أرجوك، لو لسه عندك إنسانية!

وأكمل غزالة موضحًا بكل هدوء أن ذلك لم يكن طلبَ ورجاءَ جاره الأول، بل ربما كان العشرين، وفي كل مرة كان يرجوه بشدة، لكنه هذه المرة رجاه رجاءً متكررًا، حتى إنه قبَّل يده ورأسه كي يريحه، ففعل غزالة ما فعل.

وقَّع وكيل النيابة على ورقة تفيد بإحالة محمود غزالة إلى الطبيب المختص للكشف على قواه العقلية. وقبل أن يغادر غزالة غرفة التحقيق نظر إلى وكيل النيابة نظرة طويلة محايدة مربكة، ثم ابتسم وقال في صدق تام مخيف:

– حضرتك مش فاكر اليوم اللي مُت فيه؟

طرفت عينا وكيل النيابة وابتسم في عصبية، ودق بالقلم على المكتب عدة دقات قبل أن يشير إلى العسكري باصطحاب المتهم إلى خارج الغرفة.

اعتاد الطبيب كثيرًا مقابلة ذلك النوع من القتلة الذين يدَّعون كذبًا كل أنواع الخلل العقلي، لكن الأمر هنا كان مختلفًا إلى حدٍّ ما، فقد أخرج المتهم للطبيب خمسة وسبعين ألف كلمة؛ هي الملاحظات التي كتبها وأصر على تسليمها إلى جهة التحقيق، ملاحظات على

المجتمع الذي يعيش فيه، وكانت ملاحظات مدهشة في دقتها، جعلت الدكتور عزت فؤاد بسيوني يحتفظ بها إلى الآن، وكانت سببًا في تغيير الكثير.

٤
حي بين الأموات

اعتاد الدكتور عزت – سواء في المستشفى أو في عيادته النفسية الخاصة – أنواعًا متعددة من المرضى النفسيين والعقليين، منهم من يدعي المرض للهرب من العقوبة المشددة، ومنهم من يعاني بالفعل أمراضًا عضالًا. التقى عصام فوزي الذي كان يدعي أنه المهدي المنتظر، وكان يصرخ بصوت عالٍ ليصمت الجميع، حتى لا يشوش أحدهم على الوحي الذي يُوحى إليه. وعصام هذا كان مدير بنك دولي كبير وعلى درجة عالية من رجاحة العقل، كان يملك عقلًا مبرمجًا يستطيع أن يتعامل مع خمسين عميلًا على التتالي بلا كلل أو ملل، ويقيم علاقات ودودة مع كل العملاء بلا تفرقة بين مُودِع يودع مليارًا وآخر يودع بضعة جنيهات، ويستطيع توجيه أكثر من أربعين موظفًا في الفرع بكفاءة تامة. ترك البنك ذات ظهيرة وخرج ليشعل سيجارة بعد مجهود مُضنٍ في إقناع عميل بعدم ضرورة فك ودائعه الآن والعميل مُصِر، وفي النهاية نجح بطريقته المعهودة في إقناع العميل المتصلب ببقاء الودائع، وبعد تلك المعركة الصغيرة خرج

ووقف أمام مدخل البنك يدخن في هدوء وينفث دخانه في صمت، ولكن ما إن أنهى سيجارته وهرسها تحت حذائه اللامع حتى اتخذ طريقه بعيدًا عن البنك، ولم يدخله ثانية، فقط ينظر إلى السماء ويردد جُملًا منغمة. كان شخصية لطيفة لم ينسها الدكتور عزت، وكذلك لم ينسَ السيد علاء ساري أحمد فودة، الذي كان يحمل اسمه الخماسي مكتوبًا على صدره، وكان على يقين تام بأنه قُتل قتلة شنيعة، وأنه رد الله إليه روحه من أجل أن يساعدهم في الوصول إلى القاتل. وعلى طرافة تلك الشخصيات تظل شخصية محمود غزالة هي الشخصية الأعجب والأغرب في تاريخ الدكتور عزت المهني.

قيل إن محمود غزالة تعرض لحادث أليم في صباه، وإن أحدهم مر بعجلتَي دراجته فوق رأسه، وقيل إن فقده الوعي لم يتجاوز الأسبوعين، وقيل إن الحادثة كانت في مراهقته حينما وقع في إحدى البلاعات المفتوحة في شارع جانبي يؤدي إلى مدرسته الثانوية، وقيل إن الحادثة كانت بسبب امرأة مجنونة كانت تسير وداخل حقيبتها مقلاة كبيرة للبيض تضرب بها فجأة كل من تتخيل أنه يتحرش بها. ولِحظ محمود غزالة العاثر كان يسير بجوارها وقت نشبت مخالب الفكرة في رأسها، فأخرجت مقلاة البيض وانهالت بها على رأسه عدة مرات حتى فقد وعيه. وغالب الظن أنها حكايات ملفقة، لفقها له فيما بعد أولئك الذي استاءوا من نعته لهم بـ«الأموات الأحياء» أو بـ«الأحياء الموتى»، والحقيقة أن رأس الرجل لم يتعرض لأي أذى ظاهري، لكن الأذى الأكبر كان من ازدحام ذلك الرأس بالأفكار العديدة التي جعلته يصرخ أحيانًا من الألم والصداع. فمحمود غزالة شخص وديع

في النهاية ليس لديه حلم مجنون – مثلًا – بالزعامة، وليس مريضًا نفسيًّا يدعي أنه الإله أو النبي أو المهدي المنتظر.

هو مجرد شخص عادي وُلد طفلًا طبيعيًّا وعاش حياة بسيطة، لم يكن مميزًا، كان طالبًا متوسطًا. وحتى هواياته كانت المعتاد من الهوايات، بدأت بكرة القدم في الطفولة والصبا، ثم محاولات بسيطة لكتابة الشعر الرومانسي وقت المراهقة، مع اهتمام بالموسيقى والأغاني وشغف بأصوات محددة، ثم عزلة بسيطة وتديُّن طفيف استغرق عدة أسابيع مصحوبًا بقراءات دينية وصحبة مجموعة من المتدينين سرعان ما تركهم، واهتم قليلًا بالسياسة التي تركها سريعًا أيضًا وجذبه العلم والتقدم التكنولوجي؛ وظل يقرأ في كتب الفيزياء والأحياء والخيال العلمي، ثم ترك كل شيء وصار موظفًا تقليديًّا وزوجًا حريصًا كل الحرص على استقرار تلك المنظومة الزوجية، وأبًا يجد متعته يوم الإجازة في الجلوس مع طفليه لاستذكار دروسهما، مستعيدًا معهما لحظات سحرية تجعله في أحسن حالاته على الإطلاق، وهي اللحظات التي يتألق فيها محمود غزالة وهو يتحدث عن روعة العلم وجمال الفيزياء وعبقرية الكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا، لتنبهه زوجته بأن الطفلين ما زالا في مراحل التعليم الابتدائي وكلامه أكبر من المناهج التي يدرسانها، فيضع الكتب المدرسية جانبًا كأنه لم يسمعها ويبدأ في تبسيط تلك العلوم التي لم يدرساها بعد. وكان الطفلان في غاية السعادة وهو يقف كممثل مسرحي ويأخذ في تلخيص جلِّ معرفته وشغفه في تلك اللحظات. كان حينما تأتي نشرة الأخبار يغلق التلفزيون في عصبية يحاول أن

يخفيها متمتمًا: «كذبة». وحينما يجد أحد ضيوف البرامج يتحدث عن التخطيط والمستقبل يمسك الريموت وينتقل إلى قناة أخرى ويظل يتنقل من قناة إلى قناة حتى يجد قناة تعرض فيلمًا تسجيليًّا عن عالم الحيوان أو أخرى تتحدث عن علوم الفضاء، فيغلق الصوت ويظل يتابع في صمت. لم يكن موقفه من التلفزيون وقنواته يروق للزوجة والطفلين بالتأكيد، فهم يريدون الفرجة على الأفلام والمسلسلات والإعلانات، ويبدو عليهم الضيق وتعلو وجوههم الفرحة حينما يترك الريموت وينسحب بعيدًا.

حدثه صديقه في العمل عن «جهاز استقبال بث صغير» جديد يستطيع أن يشاهد به القنوات العلمية كما يحلو له، ثلاث ساعات بأكملها والرجل المختص يثرثر وهو يركب له جهاز الاستقبال الجديد في غرفة النوم مصحوبًا بشاشة جديدة على الحائط، ليتمكن أخيرًا من الفرجة بالساعات على تلك القنوات العلمية.

ذات ليلة وهو يراقب فيلمًا عن النمل اعتراه الذهول من تلك المملكة الدقيقة، وراح يراقب الفيلم التسجيلي بإعجاب تام، وعندها دخلت زوجته فجأة وأمسكت بالريموت وتجاهلت وجوده ودهشته، وانتقلت إلى قناة أخرى تعرض مسلسلًا مُعادًا، وفي هدوء وهي تتربع على السرير وفي يدها طبق كبير مليء بالمقرمشات قالت من دون أن تلتفت إليه:

– اكتشفت إن التلفزيون هنا بيعرض برضو نفس القنوات اللي باحبها، وهنا أريح الصراحة.

واصلت الفرجة والقرمشة بهدوء، وشعر هو أنه غير موجود،

وخرج من غرفة النوم إلى الصالة، شرب زجاجة ماء كاملة واتجه إلى البلكونة ليجلس فيها عدة ساعات، وحينما بدأ يشعر بالبرد عاد إلى فراشه وأغمض عينيه وغطى جسده جيدًا حتى يتجاهل صوت التلفزيون الذي استولت عليه زوجته.

صارت البلكونة هي الحل الوسط، هي داخل البيت وخارجه في نفس الوقت معلقة بين الشارع والبيت، البلكونة هي الملاذ الآمن من الجميع، الشارع متجدد على الدوام وفي الداخل اعتادوا غيابه، فقط عند العشاء – وهي الوجبة التي تجمعهم جميعًا – يأتي صوت الزوجة من الداخل: «العشا يا محمود!». فيخرج ويعود بعده ليحتسي الشاي في ملاذه إلى أن يشعر بالبرد والرغبة في النوم، فيعود في صمت إلى فراشه. اعتاد ذلك مع الوقت، حتى جاءت تلك الليلة التي أربكت حساباته وجعلته يسأل للمرة الأولى: «أنا عايش مع مين؟».

شعر بالبرودة، ونظر طويلًا إلى ملابس طفليه وزوجته المعلقة على المنشر الداخلي في البلكونة، الملابس على المنشر تعطي إحساسًا عجيبًا بالدهشة، الرجال عادةً لا يهتمون بتفاصيل ملابس أطفالهم وألوانها وكذلك أيضًا ملابس زوجاتهم، الرجال أحيانًا يكونون كائنات مصابة بعمى الألوان، وكانت فرصته الكبيرة في البلكونة أن يتأمل طويلًا تلك الملابس محاولًا تذكر متى أول مرة رأى فيها تلك الملابس على زوجته وعلى الطفلين، محاولًا ربط تلك الملابس المعلقة بأحداث حدثت وهم يرتدونها وهو بصحبتهم. صار الحوار بين عقله وعينيه وملابس أسرته المعلقة على المنشر بديلًا للحوار غير الموجود بينه وبينهم في الحقيقة. هز رأسه وابتسم حينما أتاه صوت

صراخ ابنته الصغرى في الصالة، خرج مهرولًا، وفي الصالة كان المشهد العجيب، الابن الأكبر – ذو الاثني عشر عامًا – يضرب أخته الأصغر منه بسَنة ضربات بلا قلب، ضربات مؤلمة حقًّا، والطفلة – على الرغم من الألم والصراخ الطفولي – كانت ترد ضرباته أيضًا بقسوة أكبر، إلى درجة أنها أمسكت بزهرية ضخمة وألقتها على رأسه في حسم تام، لولا أن الطفل تلافاها لربما كانت سببًا في قتله. اعتراه الصمت وتجمد في مكانه بلا أي رد فعل، لتخرج زوجته من غرفتها وتصفع الطفلين صفعات قوية متتالية لتتصاعد المعركة بين الثلاثة كأنها معركة بين قتلة محترفين. حاول أن يتدخل كأب أخيرًا وبدأ يحول بينهم، لكنه فوجئ بالثلاثة يتبادلون الضرب بعنف شديد، وطالته الضربات بلا شفقة ولا رحمة ولا احترام، لتعود بعدها كل الأطراف إلى مكانها المعتاد بعد أن هددت الأم بسحب هاتفَي الطفلين، هنا فقط توقف كل شيء وعاد الهدوء بعد معركة دامية، وعادت الأم إلى النوم والطفلان كلٌّ إلى سريره. وظل محمود غزالة في البلكونة ساهرًا حتى الصباح وهو في حيرة شديدة، حيرة مصحوبة بالضعف، وهو يهمس من حين إلى آخر لملابسهم المعلقة: «مين دول؟!». فيما الملابس يهزها الهواء أمامه بلا إجابة شافية.

وتلك كانت البداية، بداية جعلته يراقب تلك الأسرة – التي من المفترض أنها تحت قيادته – مراقبة دقيقة ليتأكد مع الوقت ذلك الهاجس الذي كان يراوده وهو شارد وحيد في البلكونة، بأنه يسكن مع أسرة تتحرك بلا حياة وتعيش بلا روح، وأنه زوج وأب في أسرة من الموتى الأحياء. لم يكن الأمر مجرد تجاهل لوجوده بالتأكيد،

لكنهم كانوا يحققون أغراضهم بلا إنسانية، ليحصل كل واحد منهم على ما يريد بحسم تام بلا ندم أو حزن أو فرحة أو احترام، ليس بشكل حيواني كما يبدو في تلك الليلة العجيبة ولكن بشكل آلي، إنهم ما زالوا يبتسمون ويضحكون ويُظهرون الحزن أيضًا، لكنها مجرد ردود أفعال آلية أتوماتيكية لوجوه إنسانية ولكن لا تحمل تلك الأفعال وردودها أدنى روح إنسانية حقيقية، هي مجرد انفعالات لها علاقة بتناغم الجلد البشري مع الجمجمة، جلد وجمجمة لم يعد بينهما روح حية. وهنا أضاف إلى وجوده المنعزل في البلكونة بجوار الملابس المنشورة فعلًا جديدًا، وهو بداية تدوين ملاحظاته الشخصية عن هذا العالم الذي يعيش فيه؛ صار يصطحب معه نوتة صغيرة وقلمًا وبدأ يكتب في وحدته:

«لقد لاحظتُ أنني أعيش وحيدًا في ذلك العالم، يبدو أن أسرتي الصغيرة تعاني شيئًا ما، شيئًا يتعلق بفقدان الحياة. لاحظتُ أشياء مريبة سأدوِّنها بشكل يومي، الأمر لا يقتصر بالتأكيد عليهم، لكنني سأدون أيضًا ملاحظاتي اليومية عن كل شيء، عن الأشخاص بشكل عام، سأبدأ بالأقربين بالتأكيد ثم أنتقل إلى الجيران والأصدقاء وزملاء العمل. أكتب وأنا أتمنى من كل قلبي أن تكون ظنوني مجرد أوهام، أكتب وأنا أتمنى من كل قلبي أن تخالف النتيجة في النهاية ما تشي به المقدمات، كل تلك المقدمات، لا أتمنى أبدًا أن أصل إلى ذلك الأمر المرعب حقًّا، فقد كنت أظن قديمًا أن

الرعب كل الرعب أن تُدفن حيًّا بين الأموات، لأكتشف الآن وأنا في بلكونتي وحيدًا بعد منتصف الليل أن الرعب الحقيقي أن تعيش حيًّا بين الأموات».

٥
سمير أسعد

أخذ الدكتور عزت يقرأ مذكرات الأستاذ غزالة بصوت هادئ وهو يراقب رد فعل غزالة على كل جملة، وكان الرجل يهز رأسه مؤمِّنًا على كل جملة بإيمان شديد، والدكتور عزت يقرأ بنبرة لا تخلو من الاستمتاع:

«الشياطين في كل مكان وكل حال، شياطين المطبخ وشياطين المباريات وشياطين الشاطئ وشياطين إشارات المرور، الشياطين ليسوا فقط أولئك الذين يوسوسون لك بسيئ الأعمال، لكنهم كل طاقة سلبية تدفعك للضيق والغضب والحنق وفقدك لأعصابك والتصرف بلا عقل. أعرفهم جيدًا، وهذا الصنف السخيف من المخلوقات ليس جِنًّا فقط كما يعتقد بعض الناس لكنهم في كل شيء، هناك طاولة شيطانة وكرسي شيطان وسجادة شيطانة، وعلى الموقد حلة معينة تدفعك دفعًا إلى الغضب، وحجر صغير في

الشارع يجعلك تتعثر، وقطة تقفز فجأة في لحظة يكون جسدك فيها غافلًا، وهناك طفل صغير قادر في لحظة على أن يدفعك إلى الجنون، أجل، طفل، ليس كل الأطفال ملائكة تبتسم، بل هناك الطفل الذي يستطيع في عدة دقائق فقط أن يحولك إلى قاتل. الشياطين حالات مشاكسة وغير معتادة ومفاجئة تتلبس كل شيء وتحول المكان إلى شعلة من لهب وتحول الزمن إلى قنبلة موقوتة».

صمت الدكتور عزت، ونظر طويلًا إلى محمود غزالة ثم أكمل القراءة:

«سنوات طويلة وأنا أراقب الشياطين والملائكة والبشر في محيط عملي وبيتي، حتى لاحظت أن تغيرًا ما يعتري كل من يحيطون بي؛ إنهم بالتدريج يميلون إلى الثبات والتنميط والجمود، صاروا «روتينيين» جدًّا بشكل لافت، تستطيع أن تتنبأ بيوم كامل للشخصيات التي تحيط بك من اليقظة إلى النوم. لقد اختفت المفاجآت، وهذا أول ما لفت نظري كمحمود غزالة، صحيح أن التصنيف لم يتغير وظلت الناس الأقرب إلى الشياطين والناس الأقرب إلى الملائكة والناس الأقرب إلى الإنسانية على تصنيفها، ولكنهم جميعًا يكررون ردود أفعالهم المعتادة وفق تصنيفهم. صرت أعرف أن زميلي اللئيم في العمل سيقول الآن تلك الجملة المكررة التي

قالها أمس وأول أمس بنفس الإيقاع ونفس الطريقة ونفس الحروف، وسيدخل الزميل الآخر المجامل ويرد عليه بنفس التلقائية والطيبة، كأننا نعيد عرض الأمس أو كأننا نكرر «البروفة» آلاف المرات».

ساد الصمت الطويل، وفتح غزالة عينيه بابتسامة مشرقة، ابتسامة دفعت الدكتور عزت إلى الوقوف والجلوس أمامه مباشرة، وتوجيه سؤال ينهي حيرة بدأت تستولي على الدكتور عزت:

– قتلته ليه يا غزالة؟

رد غزالة مبتسمًا:

– وإنت ما قتلتوش ليه يا دكتور؟

ضحك الدكتور رغمًا عنه، وسأل:

– قتلت مين؟

رد غزالة في ثبات وتفكر:

– كل واحد طلب منك إنك تنقذه، كل بني آدم استنجد بيك.

انتبه الدكتور أكثر لذلك المتهم المختلف، وقال:

– هو إحنا المفروض نقتل اللي بيستنجدوا بينا؟

هز غزالة رأسه موافقًا:

– لو كانوا بيستنجدوا بينا علشان ننقذهم من العيشة اللي عايشينها، من الحياة الميتة!

دوَّن الطبيب التعبير الذي صاغه محمود غزالة في نوتة أمامه: «الحياة الميتة».

همس الدكتور:

- كمِّل.

أغمض غزالة عينيه:

- كان راجل طيب جدًّا، وما كانش قادر يستحمل زيك أو زي ناس كتير غيرك إنه يبقى بيتحرك وخلاص. الظاهر فيه ناس بتقدر تتكيف مع فكرة إنها تبقى عايشة وميتة، وناس لما روحها بتهجرها بيجيلها اكتئاب مميت زي اللي حبيبته هجرته وأكتر.

سادَ صمتٌ.

سأل الطبيب في توجس:

- بتعاني من صداع مزمن يا أستاذ غزالة أو أي أعراض تانية؟

ابتسم غزالة وقال:

- المفروض إني أنا اللي أدَّعي إني مجنون وأحاول أثبت ده بكل الطرق علشان أنفد بجريمتي، لكن صدقني لا أنا مجنون ولا هي جريمة.

سأل الطبيب بجدية:

- إنت مش مجنون، ماشي. لكن القتل مش جريمة إزاي؟

رد غزالة بصدق:

- لما تنط في البحر علشان تنقذ إنسان من الغرق مستحيل تكون مجرم، وأنا أنقذته من اللي أخطر من الغرق، من الحياة الميتة، وراح للحياة الكاملة، إزاي تعاقب إنسان أنقذ إنسان وتقول إنه مجرم؟

خيَّم صمت طويل ثم سأل الطبيب غزالة سؤالًا مباشرًا:

- إنت مؤمن بالله يا غزالة؟

رد غزالة في بساطة:

– أكتر ما أنا مؤمن بوجود حضرتك قصادي دلوقتِ.

الطبيب:

– «أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا»!

فرد غزالة:

– «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا»!

ثم اقترب غزالة من الطبيب وهمس له مبتسمًا:

– هو إنت مصدق حضرتك إنك عايش؟ ما خدتش بالك خالص؟ الموضوع واضح جدًّا.

رد الطبيب:

– واضح إزاي؟

قال غزالة:

– ما هو لو حضرتك عايش وحي وفيك روح هتفهمني، وعينيك هتلمع وهياخدك الشغف وهتفرح إنك قابلت حد تاني حي زيك، ولو إنت ميت هتتوتر وتقلق وترتبك وتبقى مش فاهمني وعايز تنهي القعدة بأسرع وقت، أو تبقى زي المرحوم حزين، حزين جدًّا جدًّا جدًّا ونِفسك تنهي حياتك الميتة.

أمال الطبيب رأسه إلى الخلف وحلَّ به صداع مفاجئ كان يهاجمه في لحظات الضغط الشديد، وأغمض عينيه طويلًا، ثم اعتدل وقال لغزالة:

– ولو اتحكم عليك بالإعدام يا غزالة؟

ابتسم غزالة وقال:

- ما هو أنا مش هالاقي حد حنين يساعدني زي ما ساعدت الراجل، فمفيش قدامي غير إني أستنى رحمة ربنا اللي ممكن تيجي في صورة حبل المشنقة!

طالت النظرة بين الطبيب وغزالة وأنهى الطبيب المقابلة:

- ماشي يا أستاذ غزالة، اتفضل.

ابتسم غزالة واقفًا، وقال:

- إوعى تقبل إنك تعيش ميت أو إنك تعيش حي وسط أموات يا دكتور!

وخرج غزالة فيما ظلت الجملة الأخيرة تدور حول الطبيب وتزيد من ألم الصداع إلى درجة لا تطاق. وكتب بيد مرتعشة تحت تأثير الصداع في تقريره الرسمي:

«تبين لي وَفق خبرتي المهنية الطويلة وبناءً على ما استقر عليه يقيني، أن المتهم محمود نافع غزالة سليم القوى العقلية وإن كان من الوارد أن تكون لديه بعض الدلالات النفسية التي لا ترقى إلى جعله مريضًا نفسيًّا. لكنه يعاني ما يعانيه أغلبنا».

ثم ختم التقرير بتوقيعه، وراح يمسك رأسه الذي يفترسه الصداع. وعلى الرغم من أن غزالة غادر مكتبه إلى محبسه، فإن حضوره لا يزال قويًّا، حضورًا دفع الدكتور عزت إلى فتح مذكرات الرجل مرة أخرى على الرغم من شدة الصداع، وراح يقرأ بصوت مسموع:

«في البداية لم أكن ألتفت إلى شيء على الإطلاق، كنت مثل الجميع أعمل وأنام، وبين ذلك الفعل وذاك أجلس مع زوجتي وأولادنا نتبادل الكلام العادي المعتاد. في وجبة الغداء حينما أتى زوجتي الخبر على هاتفها المحمول بأن الحاج رضا والدها مات، تلقت الخبر باقتضاب وهدوء وصمت إلى درجة أنني خشيتُ عليها أن يكون ذلك كتمانًا قهريًّا لمشاعرها سرعان ما يودي بحياتها أو يتسبب لها في جلطة تؤدي إلى الشلل؛ فلقد كان والدها رجلًا شديد الطيبة والوداعة. لقد صُدمتُ جدًّا بموته؛ كان بمنزلة أب حقيقي لي قبل أن يكون أبًا لها. تابعتها في شفقة وهي ترتدي الأسود، وصحِبتُها إلى بيت أبيها. لم تصفع أذنَي عند صعود السلالم الصرخاتُ المعتادة، ولم ترَ عيناي عند الباب المفتوح لاطمات الخدود والنائحات، كان كل شيء هادئًا ومستقرًّا. غُسِّل الرجل وكُفِّن في حضوري وحضور بناته الثلاث وابنيه الاثنين، وصلينا عليه في المسجد القريب، وتمت مراسم الدفن في مقابر عائلتها (مقابر طريق الفيوم)، وليلًا تلقوا العزاء، وفي آخر الليل عادت معي زوجتي في صمت، غيَّرت ملابس الحداد وارتدت ملابس البيت واتجهت إلى التلفزيون وفتحته، وظلت شاردة أمامه حتى غلبها النوم. في الصباح غادرت المنزل إلى عملها، وعادت على

الغداء، وواصلت حياتها بين العمل والنوم كأن شيئًا لم يكن؛ قلتُ إن الحزن أشكال وألوان وطبائع، وليست مطالبة بأن تقدم لي صورة الحزن التي أتوقعها. وتكرر الأمر في موت والدتها السيدة سامية، وتكرر الأمر في الموت المفاجئ لأختها الصغرى نهى التي ماتت في الثلاثين من عمرها وتركت طفلتين صغيرتين جدًّا. كانت زوجتي على حالها من الحزن غير المرئي ومشاهدة التلفزيون والنوم أمامه ليلة الموت، ثم تكمل حياتها كالمعتاد. كان الشيء الوحيد الذي يثير حفيظتي أنها ستفعل نفس الشيء يوم وفاتي، لا أدري لماذا كان يغضبني ذلك الأمر بشدة، ولكن الذي قلل دهشتي هو موقف ولدَينا من الموت، كان نسخة طبق الأصل من موقف أمهما (زوجتي)، كأن الجينات فعلت فعلتها! لم يقتصر الأمر على الموت بالطبع ولكنه امتد إلى الأفراح وأعياد الميلاد ومظاهر الحياة كافة. زوجتي وأولادي لا يعانون أيضًا الجوع أو العطش أو الخوف على الطعام. الشهوة بالطبع والرغبة لم تكونا كالبدايات، وقلت إنه التقدم في العمر وإرهاق العمل اليومي وضغط الأولاد، لكن الأمر تعدى كونه روتينًا باردًا، وصار أقرب إلى الفعل الكريه؛ صرت أشعر بأنني أتعدى على إنسان لا يريدني، صرت أحتقر نفسي كثيرًا بعد كل مرة؛ أدخل شخصًا لا يريدني ولا يشعر بي! الغريب أنها لم تكن

ترفض، لكنها لم تكن تقبل أيضًا! فقط تتركني أدخل في صمت وأخرج في صمت، كأني أجري في بلكونة جاري عاريًا ولا أخرج! وأنا أعاني قدرًا رهيبًا من الإحراج الذي لا يوصف، كانت أمورًا لا أستطيع أن أبوح بها لأحد، خصوصًا أنني تقريبًا بلا صديق منذ أكثر من عشرة أعوام، فاضطررت إلى التدوين علِّي أجد بعضًا من الخلاص».

كانت تلك الكلمات جزءًا من مذكرات محمود غزالة التي طالعها الدكتور عزت كاملة حينما سأل غزالة:

– ليه بتكتب كل الملاحظات دي يا أستاذ محمود؟ إيه اللي قلقك أوي ودفعك للكتابة؟

فرد غزالة بثقة:

– كل حاجة مكتوبة عندك بدقة!

أغمض محمود غزالة عينيه، وراح يراقب في داخله سمير أسعد وهو يقترب منه في ظلمة الوعي.

قال سمير أسعد مبتسمًا:

– كله خير إن شاء الله.

وهز سمير رأسه وواصل طريقه.

تعجب محمود غزالة من إجابة سمير أسعد جاره الهادئ الطيب، واعتبرها هربًا أقرب إلى السخرية. لقد كان هو الشخص الوحيد الذي قرر محمود أن يبوح له بما توصل إليه؛ كان يثق بهدوئه ورجاحة عقله، واختاره محمود بعد تردد شديد، حينما لاحظ وكتب ما لاحظه في تدويناته، وقال:

«أما جاري سمير أسعد فهو رجل دمث هادئ الطباع، وقد قررت أن أصارحه بكل أوهامي، علَّني أجد فيه معينًا على التعامل مع هذا العالم الذي مات منذ فترة».

اتصل به على استحياء وأعاد تقديم نفسه للرجل:

– أنا محمود غزالة، ساكن في الدور السادس، الموظف في شركة...

لم يدعه سمير أسعد يكمل جملته ورد في أدب جم:

– فاكر حضرتك طبعًا، أهلًا بيك، تحت أمرك.

هوَّن رد سمير المهذب عليه الأمر، وطلب منه غزالة أن يقابله على انفراد في المقهى المطل على الميدان، ورحَّب الرجل. كان اللقاء الأول بينهما في الحادية عشرة صباحًا في ذلك المقهى. وبعد عبارات المجاملات اللازمة لبداية كل حديث، بدأ غزالة في سرد وقراءة ملاحظاته المدهشة على سمير أسعد الذي استمع بكل إنصات من دون أن يقاطعه ولو لمرة واحدة. سكت أخيرًا غزالة منتظرًا الرد، ولكن سمير صمت أيضًا ولم يعقب، ثم رشف رشفة طويلة من كوب العصير أمامه ووقف مبتسمًا، وصافح غزالة وهو يردد في اقتضاب شديد: «كله خير إن شاء الله»، واختفى في زحام الشارع.

«أي رد فعل هذا؟!»، ظل محمود غزالة يردد تلك الجملة وهو يلوم نفسه بها: «افتكرتك إنسان عادي زيي يا سمير، لكن للأسف...».

لم يقم محمود غزالة من مكانه وظل يراقب حتى العصر، يراقب ويدوِّن على شاشة هاتفه المحمول في صمت، وكان آخر ما كتبه:

«خمس ساعات في المقهى لم يظهر فيها إنسان واحد حي!».

كان سمير أسعد كلما التقى محمود غزالة يتبادلان النظرات والتحية، لكن غزالة كان يسمع سمير أسعد وهو يرجوه ويسأله الخلاص:

– انجدني يا أستاذ محمود! أنا مش قادر أستحمل أكتر من كده!

كان غزالة يكتفي كل مرة بالتربيت على كتف سمير أسعد وهو ينظر إليه بحنان، ويقول:

– اطَّمن واصبر يا أستاذ سمير.

في المرة قبل الأخيرة رآه محمود غزالة وهو يجلس على البسطة بين الدورين الثالث والرابع. كان محمود غزالة قد توقف عن الصعود في المصعد منذ شهور؛ كان يشعر بالاختناق الشديد، ليس لضيق حيز المصعد فحسب، بل لاختناقه من الناس أيضًا، حيث يسمعهم يصرخون في أذنيه، كل واحد حسب حالته، فهذا يشكو له الملل، وهذا يصرخ من الألم النفسي، وهذا لا يتحمل مرضه المزمن. الجميع يفقد صبره يومًا بعد يوم، والجميع يعبر عن يأسه وقنوطه وفقدان صبره بمجرد رؤيتهم لمحمود غزالة. كان يتساءل: «لماذا أنا وحدي الذي يصرخون في وجهي؟». مع الوقت أدرك أنه يستمع إلى لسان صدقهم، إلى صمتهم المتألم بالشكوى، إلى حواراتهم وأصواتهم الداخلية الصارخة بالنجدة، الأصوات كانت واضحة وجلية ومزعجة إلى درجة أنه يضع أحيانًا يديه على أذنيه لمنعها. لذلك قرر ألا يصعد في المصعد، وألا يجمعه مكان واحد ضيق مع

عدد من البشر. كان الصعود على السُّلم أكثر راحة وهدوءًا، فجميع سكان العمارة يخلدون إلى وسائل الراحة قدر الإمكان؛ يركبون السيارات ويصعدون في المصعد، وصار الجميع في بلادة وترهل وشكوى دائمة بسبب اليأس والتكنولوجيا المريحة. التكنولوجيا تدفع البشر إلى مزيد من الاكتئاب والكآبة. لا يذكر محمود غزالة أنه صادف – مثلًا – شابًّا أو شابة واحدة رياضية في عمارته، الجميع لا يمارس الرياضة، والجميع مترهل حتى لو لم يبدُ بدينًا، فقط حالة استسلام للمتاح من الحياة وصرخات باطنية مستمرة بفعل القنوط. لكنه صادف في ذلك اليوم على السُّلم الأستاذ سمير أسعد يجلس على البسطة بين الدورين الثالث والرابع، يمسك في يده ملفًّا من ملفات معامل التحاليل، يبدو أنه كان مطمئنًّا لعدم صعود آخر غيره على السلم، فكان مستسلمًا في أريحية وحزن لحالة عظمى من الألم النفسي. سمير أسعد في حالة لم يرَ لها محمود غزالة مثيلًا من قبل، كان مغمض العينين، وعلى وشك تقطيع ملف التحاليل والأشعة الذي في يده. حينما انتبه لصعود غزالة فتح عينيه، وتوقف عن فعل التقطيع، وحاول جاهدًا أن يبتسم لكنه فشل فشلًا ذريعًا فظل وجهه على حالته من الألم، مما دفع غزالة إلى الجلوس بجواره وسؤاله في حب صادق:

– مالك يا أستاذ سمير؟ إنت كويس؟

نظر سمير إلى عينَي غزالة وقال بصوت مبحوح:

– أنا باموت!

ارتبك غزالة وقال:

– هو إنت لسه هتموت؟!

العجيب أن الأستاذ سمير أسعد فهم تلميح الأستاذ غزالة، وقال:

– فاهم قصدك كويس، وسمعت اللي إنت قلته قبل كده ومصدق، وعارف اللي إنت عارفه يا غزالة! أنا عانيت الأمرَّين وسطهم، ولما خلاص ما بقاش قدامي غير إني أهج وأجرب حياتي في مكان تاني بناس تانية، حسيت بدوخة، دوخة بسيطة ممكن تعدي، وأصر زميلي إني أعمل تحاليل وأشعة، وعرفت بعد ما كنت باهرب من كل الأموات اللي حواليَّ إني خلاص هاموت خلال وقت بسيط، وإنه انتشر في كل حتة في الجسم، شُفت المفاجأة؟ تهرب من الموت فيجيلك الخبر! اطَّمن إنت هتموت قريب. وليه قريب؟ ليه ما يبقاش دلوقتِ؟!

جرب محمود غزالة كل الجمل المعتادة في هذه الأحوال بداية من «وحِّد الله»، ثم انتهى إلى الصمت والنظرات المتعاطفة. ليقطع سمير أسعد الصمت ويقول:

– مش هاستحمل تاني يا أستاذ محمود، فاهم؟ مش هاستحمل تاني! ما تبقاش حياتي كلها مش شبه الناس وفي الآخر كمان أموت! لا يا أستاذ غزالة مش هاستحمل! فاهم؟ مش هاستحمل!

سحب محمود غزالة ملف التحاليل والأشعة من يد سمير أسعد وبدأ في تقطيعه وتمزيقه أمامه، كأنه بذلك يمحو القصة بأكملها، ثم أخرج الولاعة من جيب سمير وأشعل النار في الأشعة التي صدرت عنها رائحة غريبة، وألقى بها تحت قدميه ودهسها وهو يردد:

– خلاص كده، مفيش تحاليل ولا أشعة ولا مرض، ارتاح خالص.

ثم سحب علبة السجائر من جيب سمير وأخرج منها سيجارتين أشعل إحداهما لسمير والثانية لنفسه. كان قد توقف عن التدخين منذ سنوات، لكنه أراد أن يشارك جاره وصديقه هذه اللحظة. أنهيا معًا تدخين سيجارتيهما، ومد غزالة يده لسمير حتى يصعدا معًا السلم، ليُفاجأ غزالة بسمير يقبِّل يده بكل همة ويرجوه:

– خليها تيجي منك يا أستاذ غزالة! أرجوك!

ارتبك محمود غزالة جدًّا، وطرد من رأسه ما فهمه، وحاول أن يوقف سمير ليصعدا معًا، ولكن سمير كررها والدموع تسيل على خده:

– أرجوك! خليها تيجي منك! أحلِّفك بكل غالي عندك تعمل كده!

في اللقاء الأخير بينهما كان محمود غزالة جاهزًا، كان كمن قطع على نفسه عهدًا مقدسًا، اتصل عدة مرات بالأستاذ سمير أسعد ولكن الرجل لم يرد، وبعد إلحاح طويل رد سمير أسعد ليأتي إليه صوت محمود غزالة مكرِّرًا تقديم نفسه مثل كل مكالمة سابقة:

– أنا محمود غزالة ساكن في الدور السادس، الموظف في شركة...

لم يدعه سمير أسعد يكمل جملته ورد في أدب جم:

– فاكر حضرتك طبعًا، أهلًا بيك، أنا جاهز.

ليرد غزالة هامسًا:

– يا ريت تقابلني في المقهى اللي على ناصية الشارع.

وكان اللقاء بينهما في الحادية عشرة صباحًا، وبعد عبارات المجاملات همس غزالة:

– أنا جاهز. إنت جاهز؟

ابتسم سمير أسعد في صمت، والتقط محمود غزالة السكين التي كانت تلمع بجوار الطبق الأبيض الفارغ، وابتسم ابتسامة غريبة لسمير أسعد وقال:

– السكينة دي تقطع الجاتوه، والحياة مش طرية وحلوة زي الجاتوه، لكن أنا اشتريت دي مخصوص...

نظر إليه سمير باستغراب، فأخرج غزالة سكينًا كبيرة من تحت قميصه لمع نصلها في الشمس بشعاع خطف نظر سمير أسعد، وأكمل غزالة:

– دي... دورت عليها لحد ما لقيتها واشتريتها مخصوص، دي اللي تقدر تخلصك من كل آلامك يا حبيبي!

وانقض بها غزالة على سمير أسعد الذي لم يتحرك من مكانه، فقط اتسعت ابتسامته المشجعة – كما وصفها غزالة – واتسعت عيناه الممتلئتان بالشغف – كما ذكر غزالة أيضًا – وانفجرت نافورة الدم من صدره، ومعها قفز الزبائن الجالسون على المناضد المجاورة، والجارسونات، وبعض المارة، إلى منضدة غزالة وسمير، وغزالة في مكانه لا يتحرك ولا يهرب، فقط يبتسم في صمت ثم يهمس موضحًا لهم:

– هو كان طلب صعب لكن صدقته، هو حر وده اختياره، وأنا عمري ما أقدر أرفض حاجة زي كده؛ من حقه إنه يرتاح!

كانت الدماء تتسابق على الخروج كأنها تريد أن تريح سمير أسعد بالموت السريع، وغزالة صامت ساكن، مما زاد من رعب الناس. كانوا

لا يصدقون أن القاتل على هذه الدرجة من الثبات والهدوء كأنه فعل فعلًا خيرًا. صمته جعلهم يتوقعون ويتخيلون أفعالًا مجنونة ستصدر عنه، فأحاطوا به من بعيد من دون أن يجرؤ أحد على لمسه حتى أقبلت سيارة الشرطة مسرعة، وجرى الضابط ومساعدوه راجلين مسلحين نحو غزالة الذي ترك نفسه لهم بلا أدنى مقاومة، وصعد معهم البوكس وهو يردد مبتسمًا: «الحمد لله، قدرت أعمله اللي هو عاوزه، الحمد لله».

في التحقيقات أنكرت زوجة سمير أسعد قصة التحاليل والأشعة، وقالت إن زوجها كان في صحة جيدة، وأضافت أيضًا أنه لم يدخن في حياته سيجارة واحدة، فيما أصر غزالة على أن سمير كان يحمل التحاليل والأشعة، وأنهما حرقاها معًا، وأضاف أيضًا أن سمير كان يدخن خارج البيت فقط، فإذا اقترب من باب شقته خبأ علبة السجائر في عداد الكهرباء إلى اليوم التالي.

٦
أشخاص حول محمود غزالة

كان على النيابة أن تستدعي كل المذكورين في مذكرات محمود غزالة للشهادة كما طلب محامي المتهم وأصر في دفاعه الشفوي، ولم يكن الأمر سهلًا، فهناك شخصيات غيَّرت محل إقامتها، وشخصيات انتقلت إلى رحمة الله، وشخصيات كتبها محمود غزالة بأسماء مستعارة، وشخصيات لم يكن للرجل أي علاقة بها في الحقيقة لكنه سجل ملاحظاته عنها عبر المشاهدة العابرة من دون أن يكون هناك رابط حقيقي بينه وبينها. ولكن السيدة مي خزام كانت الأغرب على الإطلاق، لقد وصفها محمود غزالة بالسيدة الخطيرة التي تعلم كل شيء، ووصفها أيضًا بالجارة الغامضة المخيفة. كان – على حد وصفه – يلتقيها في المصعد، وكانت تسكن «الروف» الذي حولته إلى نصف حديقة وغرفة سرية تجتمع فيها ببعض الرجال الدوليين أصحاب الملامح الخاصة. كان يصادفها في المصعد فتبتسم له نصف ابتسامة، وتهز رأسها وتحييه قائلة:

– عامل إيه يا أستاذ غزالة؟

فيرد عليها بسرعة:

– الحمد لله.

فتبتسم نصف ابتسامة مرة أخرى وترد ردها العجيب الوقح:

– الحمد لله الحمد لله! كأنك بتخبِّي نفسك جوه «الحمد لله»!

عارف لو تتكلم على طول يبقى أحسن!

فيتركها وتكمل هي في المصعد إلى السطح.

ذكر غزالة أن فضوله قاده إلى أن يصعد إليها السطح لينظر ماذا تفعل، ففتحت له باب السطح وقادته مرحبة إلى الداخل، ليجد أربعة رجال بملابس كاملة، تشابهت ملامحهم وكادوا يكونون إخوةً توائم، كانوا يلعبون الكوتشينة، ولكن في صمت وترقب، فإذا خسر أحدهم دخل الغرفة المجاورة لتنفيذ حكم المهزوم في اللعبة الذي يتغير في كل مرة وفقًا لمزاج وهوى السيدة مي خزام، وقد حكمت على أحدهم – السيد زياد دندش – في تلك المرة بأن ينزل إلى الشارع بالبوكسر ويظل ساعة بأكملها قبل أن يعود إلى السطح ويرتدي ملابسه، والعجيب أن زياد وافق على ذلك!

يكمل غزالة ويقول إنه وقف مدهوشًا والسيدة خزام تعرض عليه أن يأخذ مكان «دندش» في اللعب، لكنه اعتذر بحجة انشغاله وأن عليه أن يعود إلى شقته. وعند باب السطح سألته بشكل مباشر:

– لماذا صعدت إلى السطح وأتيت إليَّ أيها السيد غزالة؟

رد عليها مرتبكًا جدًّا:

– الفضول، الفضول يا ست مي.

وأخذ يهبط متعثرًا على السلم بعد أن فشل في فتح باب المصعد،

وهو يهمس عند الهبوط: «ست عجيبة، وناس أعجب!». فيما أكمل وصفها في نوتته:

«كانت سيدة صاحبة سطوة، وساحرة، وتعمل لحساب جهة أجنبية قوية».

وبالتحقيق ثانية مع السيدة مي خزام كانت النتائج المذهلة؛ كانت مجرد موظفة في أحد المراكز الثقافية الأوروبية، وتسكن بالفعل على السطح، ولكنها أنكرت كل ما يخص زوارها وألعابهم وأحكامها عليهم. غادرت السيدة مي التحقيق إلى بيتها وهي تحاول أن تتذكر محمود غزالة بأي طريقة، ولم تنجح إلا في اقتناص ذكريات قصيرة لتحيات متبادلة في المصعد، وآخر تلك الذكريات حينما أومأت له عند دخولها المصعد بالتحية وهمست:

- إزي حضرتك؟

فرد غزالة ساخرًا بطريقة تعجبت لها:

- هاقول إيه؟ الحمد لله... ما هي «الحمد لله» دي اللي الواحد بيخبي نفسه وراها لما ما يقدرش يقول اللي جواه!

ثم صمت فجأة.

هذا كل ما تتذكره مي خزام عن الرجل، لكنها لم تنسَ أيضًا أن تخفي كل آثار الزوار وكل أوراق لعبة الكوتشينة إخفاءً تامًّا، قبل أن تجلس على كنبتها فوق السطح وتشرب سيجارتها على مهل وتفكر في الحركة التالية التي يجب أن تقوم بها.

قدمت الزوجة شهادتها وأقوالها في تحقيقات النيابة، وقالت إنه كان عاديًّا، ولم تلاحظ عليه أي تصرفات غير عادية، فقط كان

أحيانًا يطيل الصمت والنظر إليها وإلى ولديهما، وكان يكثر من الجلوس في البلكونة في السنتين الأخيرتين، يجلس بعد الغداء بالساعات وربما حتى موعد النوم، كان يفعل ذلك في الصيف والشتاء وفي كل وقت، فقط يجلس في البلكونة شاردًا يتابع حركة الشارع. وحينما سُئلت عن درجة عنفه في الفترات الأخيرة تلك، قالت:

– كان عادي، مفيش حاجة جديدة، نادرًا ما بيتخانق، وحتى لو اتخانق كان صوته ما بيعلاش.

الطفلان تقريبًا كررا كلام الأم. وعادت مريم إلى شقتها وتناولت وجبة العشاء وراحت تتفرج على فيلم قديم في التلفزيون، ثم نامت. وظلت تحافظ على روتينها اليومي إلى أن قررت ذات صباح أن تقدم طلب زيارة إلى إدارة السجون. وفي اليوم المحدد لتلك الزيارة كان محمود غزالة يحملق إلى وجه مريم طويلًا، وعلى رأسه الضمادات والشاش الملفوف، محاولًا أن يخفي ابتسامته، فينجح لحظة ويفشل لحظات، لم يكن يسألها عن شيء، ولكنها كانت تجيب بغير حاجة إلى سؤال:

– الولاد كويسين، أنا اديتهم أجازة من المدرسة كام يوم...

فيبادر غزالة موافقًا ومشجعًا:

– برافو عليكِ، علشان محدش من زمايلهم يضايقهم أو يسألهم أبوكم قتل ليه، أو يعايرهم أو يغلس عليهم، الأجازة فكرة كويسة.

فاغتاظت منه مريم وردت في ضيق:

– محدش بيعمل كده طبعًا، كل واحد في حاله، أنا اديتهم أجازة علشان الامتحانات قربت.

ساد الصمت بينهما.

حدقت هي طويلًا إلى أذنه، وقالت بنبرة هادئة جدًّا ومتزنة:

– غالبًا هتاخد حكم كبير، وغالبًا مش هاستحمل غيابك، المنطقي إننا ننفصل. طلقني، علشانك وعلشاني وعلشان الولاد!

ابتسم محمود غزالة ورد عليها بصدق وهدوء:

– ما أخدتيش بالك من دماغي والشاش؟

ردت بسرعة وتمكُّن:

– سلامتك. طلقني!

همس محمود بصوت منخفض جدًّا، لكنه اخترق أذنَي مريم اختراقًا:

– مفيش حي بيتجوز ميتة! إنتِ طالق، طالق بالتلاتة!

على الغداء شرحت مريم لطفليها معنى كلمة «طلاق»، وترتيبات الحياة الجديدة في ظل غياب غزالة.

عاد غزالة إلى زنزانته الانفرادية، فبعد حادثة ضربه ومحاولة قتله، أصدرت إدارة السجن قرارًا بوضعه في زنزانة انفرادية. كان يعلم بحدسه أن الأمر سيطول، واستطاع مع العِشرة والحكايات مع سجَّانه أن يحصل على ما يريد؛ ثلاثة أحلام غالية جدًّا بالنسبة إلى شخص وحيد في سجنه تحققت له بالتدريج، وهي الأوراق والقلم والراديو. كانت مستحيلات ثلاثًا، ولكن المستحيل صار ممكنًا، وحصل من السجان عليها.

وعلى أنغام إذاعة موسيقية موجتها غير منضبطة، كتب محمود غزالة في ليالٍ طويلة قصته كاملة، القصة التي ستُنشر ذات يوم وتنتشر وتستقر منها نسخة في إحدى الزنزانات لتكون ملاذًا وسلوى لكل سجين يدخل تلك الزنزانة يومًا ما.

٧
الزوجة

وعلى سريرها كانت مريم تمسك بيد مرتعشة نوتة محمود غزالة التي كتب فيها الجزء الأول من ملاحظاته قبل أن ينتقل إلى الكتابة في «النوتس» الخاصة بهاتفه المحمول مباشرة. قطع صوت هاتفها المحمول محاولتها المترددة في القراءة، كان زميلها في العمل خالد منصور؛ ذلك الصموت، ذو النظرات المتكلمة، لم ينقطع يومًا منذ حادثة غزالة عن السؤال عنها بإلحاح عجيب، وكانت ترد على سؤاله المرتبك: «عاملة إيه يا مريم دلوقتِ؟»، ردًّا مقتضبًا، وتنهي الحوار بشكره، لتجد رسائل متتابعة منه بعدها. هو أكثر جرأة في الرسائل، يكتب فيها أنه قلق عليها، وأنه بجانبها دائمًا، وأن لها معزَّة خاصة لديه. لم تكن ترد على الرسائل، لكنه لم يكن يبالي، ويواصل المكالمات المتحفظة وإرسال الرسائل الأكثر حميمية. ألقت هاتفها بعيدًا وعادت إلى نوتة محمود غزالة... لم تفهم شيئًا من أول صفحتين، كلام فلسفي عن الحياة والموت لا يقود إلى ما تبحث عنه، وفي الصفحة الثالثة وجدت أخيرًا اسمًا لشخص تعرفه.

«أحمد عبد الحميد، زميل العمل القديم، كان في مثل سني، وكنا نصل إلى مكتبينا في نفس التوقيت على الرغم من أنه من سكان شرق العاصمة وأنا من غربها. خفيف الظل، يلقي الجملة القصيرة ذات المعنيين فيضج المكتب بالضحك بعد أقل من ثانية، فيلقي بالجملة التالية، وهكذا. ومن صوت الضحك المتزايد يعلم الجميع أن أحمد عبد الحميد في المكتب. نحيف جدًّا، ويأكل بنهم شديد كميات تكفي لجعله فيلًا صغيرًا، ولكنه ظل على نحافته طوال عمره. مشجع عنيف وقديم للنادي الأهلي، ويفهم في فنون اللعبة وطرقها، وأفضل تشكيل ممكن، وتأثير الغيابات وعيوب ومميزات كل مدرب، يعلم بالتفصيل إصابات اللاعبين، وجدول عودتهم الزمني للفريق وفق درجة إصابة كل لاعب، فضلًا على جدول المباريات المحلية والقارية والدولية، ومن سيستمر من اللاعبين بعد نهاية الموسم ومن سيغادر ومن سيُشترى، فضلًا عن سعر كل لاعب. كان مدهشًا في تحليلاته من حيث الصياغة واللغة، وموضوعيًّا أحيانًا حينما يلعب النادي بطريقة سيئة، لكن ذلك لم يمنعه أيضًا من أن يمرض حين يفقد «الأهلي» بطولة كبرى، يمرض مرضًا حقيقيًّا وغير مفهوم يستمر عدة أيام. أحمد عبد الحميد كان يضج بالحياة، تزوج وطلق ثم تزوج واستقرت حياته. كان

الرجل الوحيد في حياتي الذي يشتري لزوجته ورودًا كل أسبوع تقريبًا. وفي صبيحة أحد أيام العمل دخل مكتبه صامتًا، لم يسلم على أحد ولم يُغضب ولم يخاصم أحدًا، فقط صامت، لا يتحدث إلا للضرورة، حاولت كثيرًا أن أتودد إليه وأعرف السبب لكنه لم يسمح لي بذلك. في اليوم التالي قدم استقالته المفاجئة على باب الشركة. احتضنته بقوة، فهمس في أذني قبل أن يركب التاكسي ويختفي: «خِلْصت يا صاحبي، الحكم صفَّر خلاص، وأنا ما عادليش وجود!»».

كانت تذكر أحمد عبد الحميد جيدًا؛ زارهم مرة واحدة هو وزوجته وابنته في عيد ميلاد طفلتها، كان ودودًا ومهذبًا وأنيقًا. قلبت الصفحات في فضول كأنها تبحث عن صفحتها.

جلس أحمد عبد الحميد للمرة الأولى في حياته على رصيف مسجد سيدنا الحسين، لم يكن في ذهنه شيء على الإطلاق، ترك العمل منذ شهور، وترك معه منزله أيضًا، لم تشغله زوجة ولا أهل ولا أولاد ولا أصدقاء، فقط جلس وظهره إلى المسجد ووجهه إلى الميدان. تمر الساعات فيضع أحدهم في حجره رغيف خبز وينصرف، لا ينظر إلى من وضع الرغيف، فقط يمد يده ويضع الرغيف في فمه ويأكل ببطء. يقضي حاجته في الحمام الذي خلف المسجد، ويشرب من إحدى حنفياته، ويعود إلى الميدان، فيجلس في المكان المتاح، وينام حيث يشاء له القدر. تطول لحيته، وتبلى الملابس على جسده، ولكن دائمًا هناك من يضع في حجره الأشياء، رغيفًا أو بطانية صغيرة

أو جاكت مستعملًا، لكنه يظل حريصًا على نظافته الشخصية، ولا يمد يده إلى أحد، فقط يستسلم لكل شيء، للمكان والزمان وعربات الشرطة وأيدي العساكر التي تسحبه من قفاه من حين إلى آخر لإيداعه بصحبة المتسولين وترحيله، ثم تركه ليعود إلى نفس المكان شاردًا يتلقى الهبات، ولا يصلي في المسجد، ولا يطلب شيئًا. صادفه مرة جار له وتعرف عليه وظل يكلمه كثيرًا جدًّا من دون أن يرد بكلمة واحدة: «بتعمل إيه يا أحمد هنا؟ أنا حلمي يا أحمد، حلمي جاركم، ولادك ومراتك أولى بيك، أمك فاكرة إنك مُت!».

لم يرد أحمد عبد الحميد بكلمة واحدة، فقط حملق إليه ثم تركه وانصرف، فأخذ الجار ينادي بلا جدوى وأحمد عبد الحميد لا يرد. في اليوم التالي أتت العائلة كلها، ولكنهم لم يجدوا أثرًا له، لقد انتقل بحدسه إلى مكان آخر، وافترش بطانيته بجوار باب النصر. كانت ليلة باردة، لم يضع فيها أحد شيئًا في حجره، فاجتمع عليه الجوع والبرد. مرت سيارة محملة بالبصل الأحمر الضخم، وسقطت بصلة كبيرة بجواره، فمد يده ومسحها وبدأ في القضم. سالت دموعه من أثر البصل، فواصل القضم والدموع. مرت سيارة بداخلها زوجته وأولاده، لم يلحظوا وجوده، وإن كان قد لمح بين الدموع خصلة شعر منة ابنته الوسطى. مسح الدموع عن عينيه، فكان كل شيء قد اختفى والشارع يضج بالحركة. عاد ومسح عينيه بكفه ثم نام على البطانية، ونظر إلى السماء وهمس: «منة أحمد عبد الحميد، يا رب خليها حية والنبي وما تخليهاش تموت زيي!».

كان التلفزيون في المقهى المقابل يذيع مباراة كرة قدم للأهلي

وفريق آخر، هتف المذيع: «هدف للنادي الأهلي»، فصفق الجالسون على المقهى، بينما وقف أحمد عبد الحميد فجأة وبدأ في الرقص رقصًا تعجب له المارة والجالسون، رقصًا عجيبًا؛ رفع يديه إلى السماء ثم دق بقدمه اليمنى ورفع اليسرى إلى أعلى ثم هبط بيديه على الأرض ودق بقدمه اليسرى ثم رفع اليمنى إلى أعلى، وظل على تلك الحال طويلًا ثم عاد إلى بطانيته ونام وهو يلهث ويقول: «زمان لما الأهلي كان بيجيب جون، الناس كانت تهلل أوي وتهيص، دلوقتِ بيصقفوا!».

مدَّد جسده على البطانية ليجد أحدهم يضع بجواره كوب شاي ساخنًا ولفافة ورقية بها ثلاثة أرغفة فينو محشوة بالكبدة والفلفل، التهمها أحمد عبد الحميد بسرعة وشرب الشاي، ونام في صمت وعيناه معلقتان بخطوات الناس وإطارات السيارات المسرعة، وباب النصر إلى يمينه يعبر منه الناس في صمت كأنهم يعبرون الزمن!

في تلك الليلة تحديدًا تذكر محمود غزالة أحمد عبد الحميد زميل العمل اللطيف الذي استقال فجأة وغادرهم، وهمس: «غالبًا أحمد عبد الحميد كان حي، كان عايش، ما كانش زي الباقيين».

اتسعت عينا غزالة من ذلك الاستنتاج المثير، وكتب بسرعة ذلك الخاطر العجيب:

> «يبدو أنني لست الحي الوحيد في هذا العالم، هناك قلة قليلة منهم، صباح الممرضة، وأحمد عبد الحميد، وبالتأكيد آخرون. هؤلاء القلة في خطر عظيم، ولعل الله أرشدني لأنقذهم من مصير مرعب».

لم يكن وقوع مذكرات محمود غزالة في يد زوجته مريم السبب الوحيد لطلبها الطلاق، لكنه كان السبب الأهم، دفعها الفضول في البداية إلى أن تقرأ؛ ربما توصلت إلى معلومة جديدة تفسر لها سلوكه العجيب في السنوات الأخيرة، وربما هناك امرأة أخرى مثلًا، لكنها وجدت نفسها أمام كلام غريب وتحليلات عجيبة مبنية على مشاهدات غزالة وتفسيراته لسلوك الناس، ثم إطلاق أحكامه بأن الناس ماتت وهي على قيد الحياة، وأن على رأس قائمة الموتى تلك هي نفسها مريم زوجته وأم طفليه. ولم يقتصر تحليله على ذلك فقط، بل شمل طفليهما أيضًا وجيرانه وزملاء العمل. صرخت في غرفة نومهما بصوت عالٍ وهي تقرأ: «كلنا أموات وإنت اللي حي يا محمود؟!».

حينما أدركت مريم أن صوتها عالٍ كتمته، وراحت تكمل القراءة في صمت. لم يكن حزنًا بالمعنى الإنساني، لكنه كان غضبًا، غضبًا يشبه غضب ذئبة اكتشفت أن الذئب الذي عاشرته طويلًا لم يكن ذئبًا حقيقيًّا، بل كان كائنًا آخر يرتدي وجه ذئب، كائنًا يكره الذئاب جدًّا، هو ذلك الغضب الممزوج بالإهانة والغضب الدافع إلى الانتقام.

أنهت قراءة النوتة وأحرقتها، أخذت إجازة يومًا كاملًا من أجل ذلك الفعل، كانت الشقة خالية تمامًا، الطفلان في المدرسة، والزوج في السجن، وهي بمفردها مع مذكراته تحرقها ورقة ورقة في انتقام لا يخلو من متعة. وحينما أنهت مهمتها ارتدت ملابسها وذهبت إلى الكوافير وغيرت لون شعرها وتسريحته. وفي هذا اليوم كان لون شعرها الجديد وابتسامتها المحسوبة كفيلين بأن يتحرك

خالد منصور نحوها بجرأة ويسأل عن أحوالها وأحوال الطفلين بعد سجن الزوج، فما كان منها إلا أن لمعت عيناها بالدموع وتشبثت بمكتبها قبل أن تنهار على كرسيها وهي لا تكاد تستطيع النطق، لتمنح خالد المتردد فرصة أن يتلفت ويتأكد من خلو المكتب إلا منهما، فتتحرك يده إلى كتفها مواسية وهو يردد جملته المتوترة: «حاسس بيكي يا مريم»، فيزداد بكاؤها، وترتعش كتفاها، ويلامس شعرها وخدها - بشكل غير مقصود - ظهر يد خالد، فيشعر بإثارة كبرى؛ لقد لمس خد مريم! أكثر نساء الأرض إثارة لشغفه وأمنياته، وفي نفس الوقت أكثرهن استحالة عليه، فهي طوال عمرها زوجة جادة ومتجهمة، لا تُظهِر للآخرين إلا الجانب الذكوري فقط، وها هي الآن تنهار تحت يده وتلمسها بخدها! إنه ليوم تاريخي في حياة خالد، يوم جعله يحادثها ليلًا على هاتفها المحمول ويطلب يدها في نهاية المكالمة، فيرن الصمت المربك، الصمت الذي تتعمده مريم بذكاء ودقة، الصمت الكفيل بإرباك خالد فيصبح على وشك الاعتذار، بل يبدأ في الاعتذار المتكرر بأنه كان وقحًا أو متعجلًا في عرضه لكنه شعر بأنها... وهنا تتدخل مريم، ويصل صوتها الأنثوي إلى أذن خالد:

- تعتذر عن إيه؟ عن إني متجوزة؟ أحب أطمنك، أنا طلبت الطلاق وغزالة طلقني، وده كان أحسن خبر، لأني اكتشفت إني أصلًا ما كنتش متجوزة! كانت خدعة!

عاد الصمت هذه المرة من قِبل خالد الذي لم يصدق أذنه، لعل الصمت يمنحه وقتًا للتصديق. وأكملت مريم:

- ولَّا بتعتذر عن إنك زميل وما قدَّرتش ظروفي وطلبت مني طلب ما يصحش يتطلب دلوقتِ خالص؟

لم يجد خالد إجابة مناسبة، فلجأ إلى كحة ممتزجة بالتنحنح مع كلمة مبهمة:

- أصل أنا...

ليأتيه صوت مريم:

- إنت بني آدم كويس ورقيق أوي يا خالد، وساعات مشاعرك بتسبقك، بس أنا متأكدة إنه غصب عنك. تصبح على خير.

أنهت المكالمة في لحظة مثالية، وصار خالد الآن يشعر بأنه يمتلك العالم.

في اللقاء الأول لهما في الكافيه كانت المساومة الواضحة بينهما في طريقة الزواج، هو مصمم على الزواج العرفي بحجة الأمان لكل الأطراف، وهي مصرة على الزواج الرسمي بحجة أنها لا تعترف بالزواج العرفي ولا ترى ضرورة لذلك. ووفقًا لطبيعة خالد فقد غلبته مريم وتم الزواج الرسمي بشروط ومواعيد محددة تناسب ظروف الطرفين. وكان خالد سعيدًا جدًّا بتلك الزيجة، لكنها سعادة لم تمنعه قَطُّ من الخوف، خصوصًا في العلاقة الحميمية؛ تكون مريم مشدودة جدًّا ومفتوحة العينين كأنها تشرف على أمر ما، وأحيانًا تُصدِر بعض التعليمات التي تجعل خالد يشعر بالحرج، وتفعل ذلك بحسم وحرفية وقوة غير عادية: «انزل لتحت شوية، امسك وسطي، بلاش بوس دلوقتِ، نبهت عليك تغسل سنانك بالفرشة، خليك أهدى من فضلك، حاوِل تكون أسرع، يا ريت تتعلم إننا نوصل سوا...».

وحينما ينتهي من مهمته يشعر بإحراج شديد ورغبة كبيرة في الهروب، الهروب منها ومن المكان ومن كل شيء، وكثيرًا ما كان يؤنب نفسه: «اتسرعت أوي أنا».

في إحدى الليالي، وفي أثناء ممارسة خالد لمهمة الحب، وفق الجدول الذي حددته له مريم، ارتفع صوتها بالتأنيب:

– أنا نبهت عليك ألف مرة ما تمدش إيدك عند ودني ولا تبوسني من بُقي! مش معقول كده! إنت حقيقي ما بتفهمش ولا بتركز في الملاحظات! أنا ما باحبش الأنانية ولا الغباء! قوم من فضلك!

كانت هي الليلة الأخيرة بينهما، ولم يأتِ خالد إليها بعدها، وفي العمل عاد إلى معاملتها المعاملة التي كان معتادًا عليها قبل الزواج، فقط ينظر في برود ويرد ردودًا مقتضبة جدًّا. ظن بقية الزملاء أن ذلك دأب الأزواج والزوجات المعتاد هذه الأيام، لكنه انتظر أول اجتماع عام في الشركة يضم أكبر عدد من الموظفين، وضغط على زر الميكروفون المثبت أمامه فأضاء باللون الأحمر، وطرق عليه بإصبعه ثلاث مرات – مما أثار حفيظة المدير – ثم علا صوته أمام الجميع:

– صباح الخير يا جماعة، أنا طلقت الأستاذة مريم وحبيت أبلغكم جميعًا، يا أستاذة مريم حضرتك طالق... طالق... طالق!

أغلق الميكروفون، واستمر الاجتماع لمدة ساعتين ومريم على حالها من الهدوء والنقاش المعتاد ولم يطرأ عليها أي تغيُّر. وبعد الاجتماع لم يتبادلا كلمة واحدة. وفي نهاية اليوم أخذت مريم حقيبتها، وفي أثناء خروجها من المكتب قالت لزميلتها رضوى:

- ابقي اسأليلي على الكلب اللي قلتلك عليه، وما تنسيش يا رضوى، لأني فعلًا محتاجة لكلب يسمع الكلام!

في عيادة الدكتور طارق هلاوي للأمراض النفسية جلست مريم على الكرسي المريح، وحكت الحكاية من أولها إلى آخرها، من لحظة تعرفها على محمود غزالة حتى سجنه في جريمة قتل، ثم مذكراته التي أحرقتها، وزواجها وطلاقها من خالد. استمع الدكتور طارق - بحكم المهنة - في صمت واهتمام، وراح يحدق طويلًا إلى مريم، ثم سألها في نهاية كلامها سؤالًا مباغتًا وغريبًا:

- هو أنا يا أستاذة مريم شبه الناس اللي اتكلم عنهم جوزك في مذكراته؟

ارتبكت مريم جدًّا من السؤال، ونظرت في غضب إلى الطبيب، وقالت بصوت شبه عالٍ:

- نعم؟! هو حضرتك مصدقه؟

وقف الطبيب وتحرك عدة خطوات ثم عاد إلى مكانه وسجل في نوتته الصغيرة عدة ملاحظات، ثم خلع نظارته ونظر مبتسمًا إلى السيدة مريم:

- صعب أصدق لو كنت فعلًا شبه الوصف اللي هو وصفه، لكن الحقيقة... ليه لأ؟

ردت في دهشة:

- ليه لأ إيه؟! ليه لأ ما أكنش أنا ميتة؟! يعني غزالة عايش وإحنا كلنا ميتين؟! معقولة التخاريف دي يا دكتور؟!

زادت ابتسامة الدكتور طارق وقال:

– العيان ما بيعرفش بسهولة إنه عيان.

ردت في حدة:

– آه صحيح ده العيان، ما بالك بالميت بقى؟ كذا حد بلغني والله إن حضرتك مجنون وأنا ما صدقتش، عن إذنك!

خرجت مسرعة غاضبة وأغلقت الباب، وظل الدكتور طارق هلاوي مبتسمًا على حاله، ونظر إلى نوتته التي سجل فيها ملاحظاته فلم يجد فيها إلا جملة واحدة كررها ثلاث مرات: «محمود غزالة حي»!

٨
الموتى لا يتحملون الحياة

حسن جلال طه، زميل محمود غزالة في السجن، كان لا يتوقف أبدًا عن الحكي، يحكي عن كل شيء وأي شيء، حكى لغزالة عن طفولته ومراهقته وشبابه ورحلاته وجريمته. كان متهمًا في جريمة قتل أيضًا، قتل زوجته وأطفاله الثلاثة ذات ليلة بعد أن انتهوا من عشائهم. قال:

– كل شيء كان هادئًا ورومانسيًّا جدًّا يا غزالة، حتى الشاي طعمه كان لذيذًا جدًّا هذه المرة وأنا أرشف منه وأشاهد مع زوجتي التلفزيون، كان فيلمًا مثيرًا مليئًا بالمطاردات، وكان طبق البرتقال أمامنا وإلى جواره السكين، وبدأت الهمسات في أذنَي تتردد، همسات بطيئة لحوحة ومستمرة: «التقِط هذه السكين واغرزها في بطن هناء»... تجاهلت وقاومت ورفضت ووضعت يدَي على أذنَي فترات طويلة، ولا فائدة. سحبت يدي السكين من الطبق بسرعة قاتل محترف، وأدخلتها في بطن هناء إلى آخرها، كانت عيناها تفيضان بالدهشة أكثر من

الألم، لم تصرخ، لم تبكِ، لم تستغث، فقط فتحت عينيها وماتت مدهوشة في حسرة!

ظل الصوت يلحُّ ولم يتوقف: «إنهم في غرفتهم، الحق بهم»... وقفت ونزعت السكين من بطن هناء فانكفأت على وجهها، وأسرعت نحو غرفة ولدَي الصغيرين كأني أجري وراء عدو قاتل، اقتحمت الغرفة، كانا نائمين في صمت وهدوء، انهلت عليهما بالتتالي، أخترق بطن الأول ثم أنزع السكين وأخترق بطن الثاني، همس الأول: «بابا!»، ثم غابت روحه، بينما همس الثاني: «آه»، ثم سكت.

وانطلق الصوت اللعين في أذنَي: «سماح، سماح»... أسرعت كالمجنون ودخلت غرفة ابنتي الكبرى سماح، كانت مستيقظة تتابع شيئًا على اللابتوب، تراجعَت في فزع من منظر أب يحمل سكينًا تقطر دمًا ويقترب منها، همست: «مالك يا بابا؟!»، هجمت عليها، قفزَت من فوق السرير وحاولَت الجري، أمسكتُ خصلة شعرها وجذبتها فمالت رقبتها نحوي جزعة صارخة، صرخت صرخة مروعة والسكين تمر عبر رقبتها وتنهي كل شيء! تركت جسدها ينهار بين باب الغرفة والسرير، نظرتُ بسرعة إلى عينيها، كانتا متسعتين تفيضان حنقًا وبغضًا وكراهية! تخطيتها إلى الصالة، جلست إلى جوار جثة هناء، كان كوب الشاي نصف ممتلئ، ارتشفت الباقي من الشاي ونظرت إلى هاتفي، اتصلت بحميَّ: «أيوه يا حاج شومان، عامل إيه؟ أنا الحمد لله بخير، أنا بس قتلت هناء بنتك الباردة وعيالها». وأغلقت الهاتف وانتظرته.

كانت قصة مثيرة لجميع مساجين الزنزانة، عدا غزالة الذي انكمش بعيدًا بعد سماعها وشرد طويلًا في مصيره المقبل.

هزت ضحكة حسن جلال فجأة أرجاء السجن الصامت، وقال وسط ضحكته بصوته الجهوري:

- الناس ماتت من زمان! إيه المفاجأة في كده؟ ده أنا فاكر أيام ما كنا عايشين، ومش كده وبس، أنا فاكر اليوم اللي مُت فيه!

ساد الصمت التام في السجن، صمت عجيب، صمت تكاد تسمعه من رهافة اللحظة، ومرت سحابة من كآبة على الجميع، كأن كل سجين يتذكر لحظة موته التي مر بها. قطع الصمتَ حسن جلال طه، وقال بصوت مختلف عما كان منذ قليل، صوت حزين متهدج متقطع، كأن صاحبه يسير حافيًا على أحجار مؤلمة؛ يتوقف لحظة ثم يتحسس لحظات ثم يكمل على الرغم من الأوجاع التي تزداد مع كل حرف:

- الناس كانت عادية، وأنا كمان كنت عادي، أصحى الصبح وأنا كلي أمل وكلي قلق، عايز أعمل حاجات كتيرة وأرجع وأنا عندي إحباط جميل، أيوه جميل، إحباط بيخليني حاسس إني عايش، وإن الدنيا صحيح مفيهاش عدل، بس كمان لازم يكون عندي رضا ومقاومة. وكان مفيش يوم زي التاني، يوم طويل بالملل، ويوم قصير بالأحلام، ويوم تقدر تلمسه حتة حتة بالحُب، والدنيا تفرحك شوية وتزعلك كتير، بس عايش لحد يوم التلات...

صمت كأنه يتذكر، والمساجين كأن على رؤوسهم الطير، كأنهم يتذكرون جميعًا نفس اليوم، ثم أكمل:

- التلات الصبح بدري المترو بيجري زي عوايده وأنا جواه، جيت أفكر في لحظة: أنا رايح فين؟ وجاي من فين؟ وأنا مين؟ وهوب حصلت فصلة، لحظة حصلت فيها الفصلة دي، زي ما تكون حاجة فيك، في روحك من جوه عملت «تِك»، أيون هو صوت الـ«تِك» دي، لحظة وبعدها كل حاجة بقت حاجة تانية؛ بقيت جسم على كرسي في المترو، جسم المفروض إنه يقوم وينزل المحطة ويكمل كل حاجة زي ما كانت، بس من غير... من غير إيه؟ من غير ما يبقى حي!

عاد الصمت الموجع من جديد، وبدأ كل سجين بشكل أوتوماتيكي يتذكر اللحظة التي فقد حياته فيها، يتذكرها بدقة ووضوح وألم، كانت لحظات مليئة بالحسرة والحزن والضياع، لكنها في نفس الوقت كانت اللحظات الأروع على الإطلاق في حياة محمود غزالة؛ ها هو يستمع بشكل واضح وتفصيلي لما اعتقد أنه حقيقة راسخة طوال السنوات الماضية ولم يجد مَن يؤيده بكل هذا الوضوح والقوة! المساجين يحكون أمامه لحظات موتهم، لقد ماتوا بالفعل، وأفكاره ليست محض هراء أو خيالًا سقيمًا. كاد يقفز من مكانه راقصًا في تلك اللحظة التنويرية الفارقة، لكنه تراجع عن ذلك في رعب شديد، رعب جعله ينكمش في مكانه ويتقوقع كجنين ويصمت، لن يتكلم بحرف واحد يُظهِر فرحته فسيكون ذلك كاشفًا عن اختلافه؛ سيدركون جميعًا أنه لا يزال حيًّا، وربما ذلك هو الفخ الحقيقي، أجل لقد تحدثوا بذلك الوضوح وتصارحوا لأنهم يريدون أن يكتشفوا مَن هذا الشقي الذي لا يزال يحتفظ بحياته بينهم. كانت أعين المساجين تتطلع إليه في

فضول رهيب، ثم بدأ الجميع يتكلمون ويصفون لحظة موتهم بدقة إلا هو! «ما عداك أنت يا محمود غزالة، ماذا ستقول لهم؟ إنهم ينتظرونك، أي قصة ستحكي؟»، صرخ محمود غزالة داخل نفسه مستنجدًا: «يا كذبُ، ألهِمني قصة تنجيني من كل تلك الأعين الميتة!».

وطالت به اللحظة حتى تمنى أن يكون ميتًا حيًّا مثلهم، حدجه حمدي الأمُّور بسؤال ضاغط:

- وإنت يا غزالة، مُت إمتى؟

زاد توتر غزالة وقال كاذبًا مرتجلًا:

- من فترة كنت مهموم أوي، ونزلت مخنوق لوحدي، وقعدت على القهوة وطلبت شاي، ومع حطِّة إيد القهوجي لكوباية الشاي على الرُّخامة حصلت الفصلة دي، وبس.

عاد الصمت، وحملقت أعين الأموات الأحياء إلى اللاشيء، وأغمض محمود غزالة عينيه من الخوف، وسمع غمغمة أحدهم وهو يقول: «الأغبيا دول فاكرين لما يعدموني يعني هاموت تاني، ما خلاص!».

ظلت عينا غزالة مغلقتين، يلوذ بالظلمة والصمت، ورأسه يعلو صوته بالأسئلة: «ليه المساجين اتكلموا في الموضوع اللي محدش بيتكلم فيه؟ وإزاي عندهم الوعي بموتهم مع إنهم أموات؟!».

خارج باب السجن كان حارس السجن رشدي شحاتة يحتسي الشاي ويلقي السمع إلى حوار السجناء، هز رأسه في ملل وارتشف رشفة من الشاي الساخن، وسحب نفسًا طويلًا من سيجارة مشتعلة في يده، وقال في سره: «مفيش جديد، حكايات كل يوم اللي حفظتها

لدرجة إنهم بطَّلوا يحكوها، ليلة مملة، كلهم قاعدين ساكتين ومفيش غير محمود غزالة ده اللي عمَّال يصوت كل شوية ويقول: «أموات، أموات»، الوحيد اللي نفسي أعرف حكايته بالتفصيل. لو عرفتها هارتاح».

قرر غزالة في ذلك اليوم أن يخفف عن كاهله كل شيء، لن يكمل حياته مع الموتى داخل زنزانة وهو مكبل بكل تلك الأثقال. وبالفعل، وقف محمود غزالة واتجه نحو حائط الزنزانة كأنه مدرس يتجه إلى السبورة، وكأن السجناء الموتى هم التلاميذ، وبدأ في الشرح:

– الحكاية بدأت من فترة يا جماعة، أول ما لاحظت الحقيقة المُرة دي، إني عايش وسط أموات. كانت أيام سودا، كل يوم أتفرج وأكتب وأسجل كل اللي اتفرجت عليه، من أول بيتي لحد شغلي لحد ناس بتعدِّي قدامي في البيت أو في القهوة بيتصرفوا بطريقة تأكدلي إنهم أموات. الموت مش هو الكارثة، مفيش أبشع يا زمايلي الأموات من إنك تعيش مع ناس مش زيك، مفيش أبشع من إنك تعيش حي وسط أموات، أو إنك تعيش ميت وسط أحياء، هو ده الجحيم. أنا كده في الجحيم مرتاح شوية لأني حكيت وفضفضت.

ساد صمت تام في الزنزانة، ولم يعلق أحد بكلمة، والتصق غزالة بجدار الزنزانة منتظرًا القادم، وطالت اللحظات القادمة بلا فعل، فقط سجناء يحملقون إليه حملقة مريبة، أعين متسعة تنظر إليه بمزيج من اللاشيء، أجل، اللاشيء بأعين مفتوحة فقط بلا غضب ولا فرح ولا راحة ولا قلق ولا ضيق ولا رضا، فقط متسعة بشكل جعل الدماء

تتجمد في جسد غزالة الذي اقترب منه حسن جلال طه في هدوء وصمت، وأمسك رأسه وهو يحدق إلى عينيه ويردد:

– إنت مش زيِّنا ليه؟

انهالت اللكمات على وجه ورأس غزالة، لكمات قوية قاتلة صامتة، لكمات من قبضة حسن جلال طه من غير أن تطرف عيناه أو يبدو على وجهه أي انفعال، فيما أحاط باقي المساجين بهما يشاهدون قبضات ولكمات حسن المتتالية على وجه غزالة، بلا تعليق أو تصفيق أو استهجان أو تشجيع أو غضب أو فرحة، فقط يتابعون. وحينما غاب غزالة عن الوعي وأوشك على الموت دخل حارس الزنزانة رشدي شحاتة وأبعد حسن عن غزالة، وسحب غزالة من الزنزانة غارقًا في دمه بلا وعي إلى خارج الزنزانة، وعاد السجناء إلى أماكنهم في صمت وهدوء، وخيمت الكآبة على المكان بشكل غير مسبوق. وكانت ظلمة عظيمة داخل روح ورأس غزالة، ظلمة لا يوجد فيها سوى طفل يجري لاهثًا ويقود غزالة غير الموجود أو المرئي إلى مكان يقترب بالتدريج، حتى وصل الطفل لاهثًا إلى شباك معلَّق في الظلمة، أطل منه غزالة غير الموجود في ذهول وحنين.

٩
زيارة خاطفة

وُلد محمود غزالة لأب وأم عاديين، الأب موظف في وزارة التموين، والأم مدرِّسة في مدرسة ابتدائية حكومية تدرِّس اللغة العربية، وكانت المسؤولة أيضًا عن طابور الصباح بشكل كامل، بداية من اصطفاف التلاميذ ثم تلاوة القرآن مرورًا بنشرة أخبار الصباح وعزف السلام الوطني وتحية العلَم، ثم خط سير التلاميذ إلى الفصول.

لم يُرزقا في بداية الزواج بالأطفال بسهولة؛ كانت السيدة حنان تعاني مشكلات في الرحم تجعل الجنين لا يكمل إلا شهورًا قليلة ثم يسقط غير مكتمل في الشهر الرابع، وبعد عدة مشاوير إلى الأطباء والشيوخ أتى محمود في الشهر السابع، ثم تلاه أحمد ثم راندا. كان محمود هو الطفل الأكثر حساسية في تلك العائلة، وهو الطفل الذي مر بكل التجارب أيضًا، ومنها الوقوف في طابور الصباح في المدرسة تحت قيادة وتوجيه الأم (المس حنان) التي ارتبط اسمه بين التلاميذ بها، فصار «محمود ابن المس حنان» قبل أن يكتشفوا اسم جده غزالة،

فصار «غزالة ابن المس حنان». ويظل محمود طوال الليل يحفظ «نشرة الأخبار» و«حكمة الصباح» و«طرفة الصباح» من غير أن يخطئ في حرف أو همزة أو تشكيل، وكل الأعين على «غزالة ابن المس حنان» الذي لا بد ألا يخطئ حتى لا يصير موضع سخرية الجميع، فكان «غزالة ابن المس حنان» يتحمل ذلك العبء اليومي السخيف. وفي الصف الرابع أصابت الحُمى محمود غزالة فغاب عن المدرسة أسبوعًا كاملًا، وحينما عاد وجد أن أسامة الصعيدي هو من يقرأ النشرة، وكان قارئًا بارعًا عجيبًا له نبرة جنوبية زادته مع سماره نجومية وتألقًا في الطابور الصباحي، صفق له الناظر تصفيقًا جعل حنان تتراجع عن فكرة تقديم ابنها محمود لكل الفقرات واكتفت له بتحية العلم. كانت المس حنان حزينة جدًّا، لكن محمود نفسه كان سعيدًا جدًّا في داخله – بعد أن تخلص من ذلك الهم اليومي – سعادة لم تمنعه من الغيرة من أسامة الصعيدي الذي احتل مكانته. وصار محمود متفرغًا أكثر لمتعته الأثيرة وهي المتابعة والفرجة على الناس، والعزف اليومي على الأكورديون الذي أحضره له والده في عيد ميلاده العاشر، وسرقة أقلام البنات في الفصل في أول اليوم وإعادتها إليهن في آخر اليوم ليجذب انتباههن إليه ويعوض أفوله كنجم في طابور الصباح، واستبدل بذلك سعادته وهو يسمعهن يتهامسن في اليوم التالي:

– أهو هو ده الواد الغلس غزالة ابن مس حنان اللي سرق القلم مني إمبارح ورجعه!

فترد الأخرى مدهوشة:

– وليه بيعمل كده؟

فترد الأولى في منطقية:

– رخامة!

وعلى الرغم من أنه همسٌ أقرب إلى الشتم والسب، فإن مجرد أن يكون اسمه مذكورًا ومادة للحديث وموضع اهتمام، كان ذلك يحقق له السعادة.

في البيت زاد اهتمام حنان وزوجها بأحمد وراندا أكثر من اهتمامهما بمحمود، لأسباب منطقية، فأحمد هو الأصغر، وهو الذي يعاني تأخرًا في النطق لازمه طويلًا حتى الآن، حيث لا يزال يتأتئ ويتكلم ببطء شديد، كما أن راندا كانت مصابة بالتوحد، وكان على حنان ونافع غزالة أن يقوما بدورهما ويمنحا الاهتمام الأكبر للطفلين الأحوج إلى الحنان، فضلًا عن قلقهما المفرط على محمود الذي يبدو أنه الطفل الوحيد السليم المعافى، فصار – بعد أن كان يعيش في حرية تامة في أول الطفولة – الطفل الذي يجب أن يحافظا عليه بشكل مبالغ فيه، فيقيدان تحركاته بكل ما يملكان من خوف. ماتت أخته راندا في سن الثامنة عشرة، كانت ملاكًا حقيقيًّا، ولم تعد بعد موتها المس حنان كما كانت، وصارت المدرِّسة المنطلقة خفيفة الظل سيدة حزينة صامتة متحفظة. وتزوج نافع غزالة فجأة (وفجأة هنا بالطبع بمنطق حنان وأهلها)، تزوج بفتاة بسيطة صغيرة؛ جاءت من الريف لتقوم على خدمة أمه القعيدة، وبعد أن خدمتها سنتين توفيت الأم واختفت الفتاة واختفى أيضًا نافع غزالة، ليكتشف الجميع زواج نافع بـ«هدى المنصورة» كما كانت تُطلِق عليها الأسرة. وعلا صوت المس حنان وعلا صوت

نافع، ورنَّت يمين الطلاق بعد ظهيرة يوم جمعة حار، وصار محمود غزالة هو رجل البيت. وطال غياب نافع غزالة كثيرًا حتى مات، وفي الجنازة كان «محمود ابن المس حنان» قد صار رجلًا في السنة الأخيرة من الجامعة يسير خلف نعش والده، وإلى جواره صبيان هما أخواه من أبيه. وفي العزاء علا صوت القارئ، وطال وقوف محمود غزالة يتلقى العزاء، وعند فض الصوان كانت السيجارة الأولى التي يدخنها في حياته. وبدأ في اليوم التالي قصة حبه الأولى الفاشلة مع ليلى سالم، ورحلة صداقته الفاشلة أيضًا مع أحمد عامر، وتزوج وأنجب مرتين، وماتت أمه، وبدأ يشعر بأن الناس يتغيرون، فشرع في كتابة ملاحظاته ومشاهداته، وخلُص فيها إلى أن الناس يعيشون بلا حياة، ثم قرر أخيرًا أن يختبر الأمر بنفسه مهما كلفه ذلك من مخاطر، حتى لو حوله الأمر إلى قاتل حقيقي.

أراحت غرفة المستشفى أعصاب محمود غزالة كثيرًا، وكان منظر الحديقة التي يطل عليها شباك غرفته كافيًا لجعله أكثر نشاطًا، حتى إنه غازل الممرضة صباح حينما رأى اسمها يلمع أمام عينيه المتورمتين، فنهض بصعوبة حتى صادف ابتسامتها الخلابة وشعرها الحريري المنسدل على وجهها، وقال بصوت ساخر: «خسارتك في الموت يا صباح»، قبل أن يروح في غيبوبة جديدة.

كانت صباح فيما بعد هي إحدى شهود محاكمة محمود غزالة بناءً على طلب محاميه الخاص، فهي الوحيدة التي اطلعت على أفكار ونظرية بل وقصص محمود غزالة الكاملة خلال فترة إقامته في مستشفى السجن، وكانت مؤمنة جدًّا بصدق أقواله، ولعل المفاجأة

الأكبر أن صباح لم تكن ميتة مثل الجميع، لكنها حية تمامًا مثل غزالة وتعاني ذات المشكلة، وما كان لذلك كله أن يُكتشف إلا بسبب ليلة القُبلة الحزينة، يقول غزالة أحيانًا إنها أعظم ليلة في حياته، ويقول أحيانًا أخرى إنها الليلة الأسوأ في حياته أيضًا.

في المستشفى، وعلى سرير مريح إلى جوار شباك يطل على أشجار، كان غزالة مستلقيًا برأس ملفوف بلفافات طبية عديدة لا يظهر منها سوى أنفه وفمه وجزء صغير من عينيه المتورمتين ولسانه الذي يتحرك بصعوبة، لكن الصوت مسموع إلى درجة أربكت الممرضة من كلامه المتردد بلا توقف: «وإيه عقوبة إن ميت قتل حي؟ طب إيه عقوبة إن حي قتل ميت؟».

اعتادت الممرضة صباح مع الوقت سماع أقوال السجين المعالَج، وصارت أحيانًا تبتسم وأحيانًا تبادله الحوار، وحينما خف الورم عن عينيه وبدأ النظر يصبح واضحًا رأى غزالة وجه صباح، كان قد اعتاد أن يسمع تعليماتها فقط: «افرد إيدك، افتح بُقك، خُد نفس، حرك صوابعك، اقفل وافتح عينيك»، إلى آخر تلك التعليمات. لكنها الآن تفتح معه حوارًا للمرة الأولى، في هدوء قالت:

– اتعودنا على خطرفة اللي طالعين من تأثير البنج. لكن إنت من أول لحظة ولحد شوية صغيرين بتقول نفس الكلام تقريبًا!

فرد غزالة في فضول:

– كلام إيه؟

نظرت إلى عينيه اللتين ما زالتا منتفختين، ونظر إليها غزالة ولاحظ أن عينيها خضراوان، مما زاد نظرتها إليه إرباكًا، وقالت:

– عمَّال تقول «وإيه عقوبة إن ميت قتل حي؟ طب إيه عقوبة إن حي قتل ميت؟»!

تحرك لسان غزالة المدهوش وقال:

– وإيه الغريب؟ ده سؤال حقيقي.

هزت رأسها وهي تدفع بملعقة الشوربة داخل فم غزالة، وتقول:

– العقوبة عقوبة.

بلع غزالة شوربة «لسان العصفور» الساخنة وهو ينظر إلى صباح ويقرأ الاسم المستقر على ملابسها الطبية، وقبل أن تُدخل الملعقة التالية إلى فمه همس بصعوبة لصباح:

– وإنتِ يا صباح، من إمتى؟

فردَّت بغير دهشة أو غضب:

– يوه! من زمان...

١٠
خيط بين الحياة والموت

اعتاد غزالة أن يفتح عينيه على ابتسامتها الجميلة، ابتسامة تجعله يشعر بأنه أكثر حياة وأكثر قوة وأقل همًّا، كانت تضحك بشكل تلقائي، وترتعش عيناها وتلمعان، وتضع يدها على فمها لتخفي أسنانها الكبيرة، ردود أفعال حية طبيعية افتقدها غزالة منذ سنوات طويلة. أخبرها بالقصة الكاملة وصدقته تمامًا، وكان الاكتشاف المدهش أن صباح حية تعيش مثله وسط أموات، كانت حية بشكل عظيم، روح تتحرك وتشكل حركة هذا الجسد الأنثوي البديع، يخفق قلبها وتخجل وتفرح وتُثار وتشتهي، صباح إنسان حي مثل غزالة، حياةً جمعتهما في الساعة السابعة والربع مساءً من صيف شهر مايو، تجعلها تقترب بوجهها الباسم المُثار الذي اشتعلت وجنتاه من وجه محمود غزالة حينما همس بصدق:

– هتوحشيني!

جذبتها جملته الصادقة كصنارة، فاقتربت كسمكة من وجهه وابتسمت، فاقترب هو بكل طاقته، وتلاقت شفاههما في قُبلة طويلة،

قبلة استهلكت كثيرًا من الهواء ولم تنقطع إلا عند انقطاع أنفاسهما، كادا يموتان بالفعل في تلك القبلة، القبلة لم تستهلك الأكسجين وحده، بل استهلكت دقات القلب وشغف الروح وشهوة النفس وانجذاب الجسد بالكامل! لكن مرور كبيرة الممرضين وعامل البوفيه كان كفيلًا بالقضاء على تلك اللحظة الخالدة، على تلك القبلة الحزينة التي اختزلت كل معالم الحياة الإنسانية. لقد طالت نظرة نبيهة رشدي كبيرة الممرضين وعزمي حسيب عامل البوفيه، واستمرت وقتًا طويلًا، وقتًا استغرق زمن القبلة كله، القبلة التي استمرت كأنها عمر كامل مكتمل بين صباح وغزالة! كأن نظرة نبيهة وعزمي إليهما كانت نظرة حسد من الأموات إلى الأحياء، حسد من لا يشعرون لمن يشعرون، صحيح أنهما ميتان لكن الاختلاف أثار بداخلهما شيئًا ما، ربما بقايا ذاكرة ميتة أو رغبة في قتل شيء لا يجدان له داخلهما مثيلًا. انتهت القبلة التي لا يستطيع أحد وصف مذاقها لدى صباح وغزالة، لكنها كانت شبيهة باسميهما، شبيهة بغزالة تجري حُرة في شمس الصباح، مزجت الفرحة بالحزن بالدهشة، قبلة أعادت إليهما مزيدًا من الحياة وكادت تتسبب في ضياعها؛ هجمت نبيهة على صباح كأنها القضاء المتعجل، وأمسكتها من كتفيها، وصرخ عزمي:

– بيبوسوا بعض يا عالم!

وبعد التحقيق مع صباح خُصم نصف شهر من راتبها وأحيلت إلى «قسم الأحداث» في الدور الأرضي. كان كل شيء بعد القبلة تعيسًا وحزينًا عدا إحساس صباح وغزالة بطعمها، طعم يعجز عن وصفه واصف.

في اليوم التالي عاد غزالة إلى زنزانته، وظلت صباح في «قسم الأحداث» في مستشفى السجن، ولكن كان بينهما رابط عظيم من الحياة، لا يقدر موت على قطعه!

همس غزالة لنفسه: «بالتأكيد هناك مزيد من الأحياء غيرنا، بالتأكيد يا غزالة». الأيام تمر عليه في الزنزانة وهو يواصل الكتابة في حماس أشعل فضول حارس الزنزانة لمعرفة ماذا يكتب هذا الرجل الذي اقتربت محاكمته وربما يحصل على الإعدام! تجرأ الصول رشدي شحاتة أخيرًا، بعد أيام وأسابيع من المتابعة وإحضار الأقلام والأوراق ولمبة كهربية ذات سلك طويل تدخل الزنزانة وقت الكتابة، وسأل كطفل:

– هو إنت بتكتب إيه يا أستاذ غزالة؟

وجد غزالة في الصول رشدي ضالته، إنه الجمهور المتاح، وهو الذي يمكنه أن يُعلق أو يفرح أو يغضب لكنه مختبر حقيقي في النهاية. اعتدل غزالة كنجم مسرحي قديم وبدأ يقرأ بنبرة استعراضية حاول أن يجعلها محايدة، ظل يقرأ لفترة تجاوزت الساعة، حكى فيها كل شيء تشمله نظريته عن الموتى الأحياء، ليفاجأ عند صمته بالصول رشدي ينفجر في بكاء مرير، بكاء من ذلك النوع الذي لا تعرف معه هل هو بكاء أم قهقهة. تركه غزالة يُخرِج كامل الشحنة، تركه حتى مسح رشدي وجهه بكفيه وأخرج نصف سيجارة وأشعلها، ثم نظر طويلًا إلى غزالة وقال له وهو يتلفت حوله وبلهجته الصعيدية الطيبة:

– أنا عرفت الحكاية دي من سنين يا أستاذ غزالة، وكتمت في

روحي كل اللي عرفته، وقلت لو اللي حوالين مني عرفوا إني حي هيموتوني، يبقى تعيش حي وإنت عامل نفسك ميت أحسن ما تعيش ميت عامل نفسك حي!

ساد الصمت، وظل غزالة يتأمل الصول رشدي طويلًا، إنه اكتشاف جديد بالنسبة إليه؛ حي يتصنع أنه ميت ليكمل حياته في سلام. وقبل أن يغادر ضوء اللمبة الزنزانة انحنى الصول رشدي على يد غزالة وقال:

- أحِب على إيدك يا أستاذ غزالة ما تقول لمخلوق على سري، لا بلسانك ولا كتابة!

هز غزالة رأسه واعدًا، وخرج رشدي وأظلمت الزنزانة.

رفض الصول رشدي كثيرًا طلب الأستاذ محمود غزالة، وكلما اقترب يوم المحاكمة زاد رجاء وإلحاح غزالة ورفض الصول رشدي، إلى أن صار الباقي على المحاكمة أسبوعًا واحدًا، ورضخ الصول أخيرًا، وكان عليه أن يسرع في تنفيذ الأمر، وهو إرسال رسالة شفوية إلى كلٍّ من أحمد عبد الحميد والممرضة صباح، رسالة ملخصها:

«عارف إنكم زيي عايشين، مش طالب منكم إلا حضور محاكمتي».

كانت الرسالة ضمنيًّا موجهة أيضًا إلى الصول رشدي، وقد ترك له غزالة حرية الرفض والقبول، وكان الوصول إلى الممرضة صباح هو الأسهل بالتأكيد، وحينما همس لها الصول بالرسالة لمعت عيناها وهمست:

- حاضر.

لكن رحلته في البحث عن أحمد عبد الحميد كانت صعبة للغاية، بدأها في العمل ثم البيت، وحينما خرج من البيت بإجابة «ما نعرفش عنه حاجة» سار في الشارع محبطًا، فلحق به طفل صغير – عمره عشر سنوات – وهمس في أذنه:

– سمعت عمي بيقول شاف حد شبهه في الحسين.

في ميدان الحسين فتش الصول رشدي بعينيه شبرًا شبرًا بلا فائدة، وحينما شعر بالجوع قادته قدماه إلى مطعم قرب «الباب الأخضر»، ثم قرر أن يبحث عن مقهى قريب ليجد نفسه بجوار «باب النصر»، وفي مقهى صغير جلس، ومع أول رشفة من كوب الشاي دارت عيناه في تململ، لتقعا على أحمد عبد الحميد يفترش البطانية ويضع ساقًا على ساق، كان مطابقًا للصورة التي رآها في بيته والوصف الذي أخبره به غزالة، لكنه كان أكثر فقرًا ونحافة وأكثر أملًا وحرية مما بدا فيها، طالت لحيته، واتسخت يداه وقدماه وملابسه، واتسعت عيناه واشتعلتا، فصار مهيبًا إلى درجة جعلت الصول رشدي يتردد كثيرًا قبل أن ينهض ويسير نحوه، لكنه فعل، وحينما انحنى وهمس له:

– أنا من طرف الأستاذ محمود غزالة زميلك زمان في الشغل، هو بيقولك إنه عارف إنك زيه حي، ومش طالب منك غير إنك تحضر محاكمته.

نظر إليه أحمد عبد الحميد طويلًا، ثم غطى وجهه وعينيه ومدد ساقيه وهو يهمس:

– امشي!

ظل الصول رشدي مكانه، فاستدار أحمد عبد الحميد وأعطاه ظهره ونام، نام نومًا حقيقيًّا حتى علا شخيره، فما كان من الصول رشدي إلا أن أكمل شايه واقفًا ودفع حسابه وغادر وقد شعر أنه أدى ما عليه.

١١
قاعة المحكمة

صرخ محمود غزالة:

- أنا حي!

واهتزت قاعة المحكمة، فحذره القاضي طارق العمري:

- وطي صوتك! إنت قاتل وكمان بتزعق فينا؟

رد محمود غزالة:

- ما قتلتش! أنا عملت اللي هو طلبه!

انفعل القاضي:

- يعني أنا لو طلبت منك جريمة، هتعملها وتقول أنا اللي طلبت منك؟!

رد غزالة بقوة:

- مش جريمة! الراجل كان ميت كده كده وطلب إنه يرتاح من وهم الحياة، كان ميت زي حضرتك وزي كل اللي حاضرين.

كظم القاضي غيظه وكتم انفعاله والتفت يمينًا وسأل:

- فين المحامي بتاعه؟

وقف المحامي القصير وقال جملته:

- أنا حاضر مع المتهم.

وقال غزالة خلف القفص:

- لا هو محامي، ولا أنا متهم، ومش عاوز محامين يدافعوا عني!

وضع المحامي إصبعه على فمه في إشارة إلى غزالة بالصمت، وقال:

- واضح لهيئة المحكمة إن فيه مشاكل، مشاكل نفسية كبيرة عند موكلي.

ابتسم القاضي في ضيق وقال:

- اتكشف على قواه العقلية والتقرير قال إنه تمام.

سخر غزالة:

- ميت يكشف على حي ويقول «تمام» كمان؟ ده كلام؟!

هتف المحامي:

- اسكت يا غزالة!

تشبث غزالة بالقضبان وقال بصوت عالٍ واضح:

- لو كان فيه جريمة حصلت تبقى جريمة إني هاوِدتُه وريحته بدل ما أتعب شوية وأحيِيه.

توتر القاضي وضحك ضحكة عصبية وهو يقلب الأوراق:

- لا ده إنت ملك تموِّت وتِحيي! هو مين الدكتور اللي كتب إنك سليم عقليًّا؟! تِحيِيه إزاي يا أستاذ محمود؟!

رد غزالة:

- ما أنا ما كنتش أعرف إلا وأنا باموِّته، السكينة في آخر تلات

طعنات خلت عينيه تنور تاني، لمعت ونورت وعاش... بس ما لحقش.

هز القاضي رأسه في يأس:

– يعني إنت محتاج تطعن حد كذا طعنة بالسكينة علشان تحييه؟!

رد غزالة:

– ده تفكير الموتى، وحضرتك معذور لأنك لسه ميت، لكن الألم والضغط الشديد وأي حاجة حاسمة حقيقية تضغط على طول على مشاعر بني آدمين، اللي زي حضرتك وزي المرحوم ممكن في لحظة ترجعه للحياة وهو حي.

قال القاضي:

– فرضنا جدلًا إني صدقت التخاريف دي، إيه الضامن يا أستاذ محمود إن الألم الشديد ما يموِّتش الميت على كلامك؟

غزالة في صدق:

– التجربة.

نظر إليه القاضي:

– نقعد نجرب في أرواح الناس؟!

أجاب غزالة:

– ما هما كده كده جثث بتتحرك من غير حياة! نجرب عادي.

رد القاضي:

– وإيه عرفك إن الألم هو اللي رجعه للحياة؟ مش يمكن حلاوة روح أو ندم إنه طلب منك كده أو رعب أو لحظة اقتراب الموت الحقيقي؟ عرفت إزاي؟!

شرد غزالة ولم يرد، ثم قال هامسًا:

- ما أعرفش! بس فيه حاجة حصلت خلت عينيه تنور.

أجَّل القاضي طارق العمري القضية لعدة أسباب منها استكمال شهادة الشهود. وغادر الرجل قاعة المحكمة وملامح وصوت غزالة لا يغادرانه أبدًا.

١٢
أرواح مستعملة

نظر الحارس إلى غزالة طويلًا وهو منهمك في الكتابة، وهمس:

– الحمد لله إن ربنا نجَّاك!

هنا ترك غزالة القلم ونظر طويلًا إلى الحارس بلا كلام، وتوقف عن الكتابة بعدها لعدة أيام، وتوقف أيضًا عن الأكل والشرب. وصل الخبر إلى إدارة السجن بأن غزالة أضرب عن الطعام، أتى مندوب من الإدارة وسأل غزالة عدة أسئلة لم يُجب عنها ولاذ بالصمت. بدأت حالته الصحية تسوء، وحضر الطبيب وعُلقت له المحاليل في مستشفى السجن. زاد الأمر سوءًا وتدهورت حالته. في الغرفة المجاورة كان هناك رجل يُحتضر، ويصل إلى غزالة كل ليلة نحيب زوجته وأولاده، وسمع الطبيب يهمس لابنه الأكبر خارج الغرفة:

– أنا ما أقدرش أجمِّل الحالة، حاوِل الصبح تكون مستعد للتعامل مع الموقف لأن والدك خلال ساعات هيكون ميت.

الكلمات تصل إلى غزالة في غرفته مجسمة، يبدو أن الإضراب عن الطعام فترة طويلة يزيد الحواس انتباهًا وقوة؛ صار يسمع الأصوات

البعيدة وتأتيه مجسمة وقوية وواضحة، وصار مع طول الرقاد بلا طعام يرى الناس بعينين مختلفتين أيضًا، صار لا يرى الأموات الأحياء فحسب، بل يرى أيضًا الأرواح المستعملة! الأرواح التي أُنهكت وأصبحت قديمة مهترئة من فرط الاستعمال، وصارت تنتظر لحظات كي تتحول إلى أرواح ميتة تسكن أجسادًا متحركة!

بدأت كلمات الطبيب الصريحة للابن البِكر تشكِّل طاقة قوية لدى غزالة الذي حاول أن يتكلم لأول مرة منذ عدة أيام، فرفع صوته الواهن تدريجيًّا وهو يحاول الصراخ بلا جدوى:

– قولوا للولد إن أبوه مش هيموت بكرة.

باءت محاولاته كلها بالفشل، وظل الصوت واهنًا جدًّا لا تبين حروفه، لم تعد الأحبال الصوتية قادرة على حمل همته في الكلام، ولكن الممرض المسؤول عن العنبر دخل في تلك اللحظة الأخيرة التي يئس فيها غزالة من أن يسمعه أحد، وقرب أذنه من فم غزالة، وسمع كلامه غير المفهوم أكثر من مرة، حتى وصلت إليه الجملة أخيرًا:

– قولوا للولد إن أبوه مش هيموت بكرة!

سأله الممرض علي الخواجة صاحب الوجه الأمهق:

– أنهي ولد؟ وأنهي أب؟

أشار غزالة إلى الغرفة المجاورة، وخرج الممرض وقد أدرك أنه يتحدث عن فهمي أنور المحتضر في تلك الغرفة. دخل الممرض الغرفة ليجد الابن يبكي في صمت، ويبدو أنه لم يخبر أمه التي تمسك بطرف السرير في صمت، لكنها أدركت المصيبة من غير أن

يخبرها ابنها. وفيما فهمي أنور جسد يتنفس فقط والأجهزة حوله تُظهِر إشاراتها المعتادة في أدنى حالاتها، أشار الممرض إلى الابن المكلوم وأخبره بأن الطبيب يريده، وتبع الابن الممرض إلى الخارج ليدخله غرفة غزالة، ويجلسه إلى جوار سريره، ويطلب من غزالة أن يكرر ما قاله، فيكرر غزالة الجملة:

– أبوك مش هيموت بكرة، أبوك هيكمل.

في الصباح كان الطبيب في قمة الدهشة وهو يلاحظ ارتفاع كفاءة أجهزة الرجل وتحسُّن حالته، وربت على كتف الابن وقال:

– ده شيء خارج اختصاصي كطبيب، لكن الحالة اتحسنت.

بجوار فراش غزالة كان الابن الأكبر للمريض فهمي أنور يقبِّل يد غزالة ورأسه ووجهه، وكان غزالة نفسه في حالة تحسن أيضًا وبدأ يطلب كوب ماء وزبادي. وفي المساء كان الممرض الأمهق وابن المريض فهمي أنور وطبيبة شابة سمعت بالأمر يتحلقون حول غزالة الذي استعاد بعض صحته، ويسألونه كيف أدرك أن المريض لن يموت، لكن غزالة اكتفى بالابتسام والصمت، وسجل إجابته بعد ذلك عند عودته إلى السجن.

عاد غزالة إلى الطعام والشراب، وعادت رغبته أقوى في الحياة بعد تلك الحادثة، وهناك في سجنه كان الحارس إلى جواره وهو منهمك مرة أخرى في الكتابة بلا توقف، فيما الفضول والشغف يقتلان الحارس حرفيًّا، وما لبث أن توقف عن الكتابة حتى أعد الحارس له كوبًا من الشاي، وقدمه إليه وهو يضبط جلسته، وراح غزالة يكتب وينطق ما يكتبه على مسامع الحارس:

«يمر الإنسان المعاصر بمراحل مختلفة حتى يصل إلى مرحلة فقد الروح وبقاء الحركة والحياة الظاهرية، تبدأ تلك المراحل بمرحلة الفقد، فقد الحماس، أو فقد الرغبة، أو فقد الشغف، أو فقد التواصل، أو فقد الإحساس بالأهمية، أو فقد الرغبة في المواصلة. وهنا يبدأ الإنسان في تسليم روحه للاستعمال، أي ترك روحه للآخرين يستعملونها كيفما شاءوا بلا اعتراض منه أو لوم أو عتاب أو حتى تعليق، فهذا يستعمل روحه بتسخيرها في العمل الشاق، وهذا يستعملها في السخرية والضحك، وهذا يستعملها في تحقيق أغراض كجسر للوصول إلى بشر آخرين، وهذا يستعملها كسماعة، وهذا يستعملها كمخدة تدريب الملاكمين، وهكذا. وصاحب الروح يتابع في حزن وصمت، أو ربما استسلام فقط بغير حزن. حدثني أحدهم ذات مرة على أساس أنني أحد الناجين من الموت...».

أدرك الحارس أنه المقصود بـ«أحدهم» فزاد شغفه واهتمامه بنفسه، وأكمل غزالة:

«أدركت لحظتها أنني لست ناجيًا ولا حيًّا لكنني فقط في مرحلة «صاحب الروح المستعملة». وهنا قررت إماتة روحي بيدي من غير أن أمنح أحدًا فرصة قتلها وتركي حيًّا أتحرك بلا روح، فأضربت عن الطعام والشراب وأوشكت على الموت، والمفاجأة الكبرى

هي أنني كلما اقتربت من الموت اقتربت من الحياة! إن التخلي والترك والبعد عن الحياة ودوافعها ومبرراتها ومقوماتها ينقذ روحك المستعملة من الموت، ويزيد حواسك وبصيرتك.

أدركت من صوت الطبيب الذي يخبر ابن جاري في المستشفى بأن أباه سيموت غدًا، أنه صوت مستعمل، شبه ميت، غير واثق، ربما صوتٌ ميتٌ بالكامل يحمل داخله قدرة وجود الصوت من دون أن يحمل روحًا، فأدركت أن الرجل المحتضر في الغرفة المجاورة ربما الآن يقترب من الحياة لا الموت مثلي، وهنا كان الاكتشاف المبهر، الاكتشاف الذي جعلني أطلب الماء والطعام وأعود مرة أخرى إلى الكتابة؛ هناك أمل. أجل هناك أمل في بعث الأرواح التي ماتت، فإذا كانت مراحل موت الروح تمر بمرحلة الاستسلام ثم الاستعمال ثم الموت، فإن نوعًا من البشر لم أحدده بعد قادر بطريقة ما على أن ينجو في تلك المرحلة الانتقالية بين الاستعمال والموت، ينجو ويُبعث من جديد. وكما أن هناك بعثًا في الآخرة وفق عقائد كثيرة، فهناك بعث في الحياة الدنيا أيضًا، من المؤكد أنه احتمال كبير في حالة الأرواح المستعملة، ولم يزل وهمًا أقرب إلى الاحتمال الضعيف مع الأرواح التي ماتت، هذا هو الأمر الذي أعادني إلى الكتابة والحياة مرة أخرى».

أغمض غزالة عينيه وتوقف عن الكتابة وراح في نوم عميق، بينما أمسك الحارس بالأوراق من يده كأنه يمسك كتابًا مقدسًا، ووضعها بحرص شديد في صندوقها المعتاد، ونظر بحب شديد إلى غزالة الذي راح في نوم عميق بوجه مشرق هادئ كأنه وجه قديس أو نبي.

لم يكن أحد يدرك على الإطلاق أن الأمر سيتحول في يوم من الأيام إلى ما تحول إليه، كيف اكتمل كل هذا العدد؟ كيف صار فريق كبير يعمل على بعث الموتى؟ تلك هي المعجزة الثانية التي حققها محمود غزالة من دون أن يدري. صحيح أنها أخذت كثيرًا جدًّا من الوقت، لكنها تحققت في النهاية، وصارت مجموعة من البشر تحاكي المسيح عليه السلام، وتتحرك وفق إطار معين من أجل بعث الموتى، ليس الموتى الذين زاروا القبور، لكن أولئك الموتى الأحياء الذين يملأون هذا العالم، ويحركونه أيضًا. وبالتأكيد، الأمر ليس سهلًا، فالموتى الأحياء يملكون كل شيء، وفريق البعث لا يملك إلا ذلك الحلم الذي صدَّقه محمود غزالة.

١٣
غزالة مبتسمًا

يوم لا يشبه بقية الأيام، ضجت قاعة المحكمة فيه بالأصوات المتداخلة، وخنق الزحام الشديد الناس بداخلها، الصحافة في كل مكان، والجمهور يملأ المقاعد، ومحمود غزالة صامت في قفصه، والقضاة الثلاثة يدخلون بعد صيحة الحاجب المدوية، ويتخذ القاضي الذي سينطق بالحكم مكانه وإلى يمينه ويساره القاضيان، ويحذر القاضي الجميع من الكلام، ويبادر وكيل النيابة بالكلام في خطبة قصيرة قوية عصماء، يتهم فيها غزالة بكل نقيصة ويضيف إليه توصيفات محددة الصياغة، كتوصيفه بالذئب الماكر، والمتعطش للدماء، والرجل الذي سفح دم جاره، والمجرم الذي امتلأ رأسه بالفكرة الشيطانية فخطط وقدَّر وأضمر في نفسه خطة غرسها الشيطان في أرض قلبه فأثمرت شرًّا لا يتصوره بشر، ثم طالب المحكمة الموقرة بأن تُوقع بالمتهم أقصى عقوبة وهي الإعدام شنقًا، ليذوق وبال ما أقدم عليه من جريمة شنعاء.

ابتسم محمود غزالة في قفصه ابتسامة مستفزة، وهمس همسة قوية

كادت تصل إلى مسامع القاضي حين قال: «خطبة محفوظة جاهزة، تثبت أن المرحوم يردد شيئًا لا حياة فيه»!

سأل القاضي عن محامي المتهم، فانبرى رجل قصير نحيل مقدِّمًا نفسه، وخلفه ثلاثة آخرون قدمهم فريقًا للدفاع عن الأستاذ محمود غزالة، ليرفع غزالة يده معترضًا بصوت عالٍ:

– أنا ما طلبتش حد يدافع عني!

رد المحامي:

– أنا مكلف من قِبل أشخاص كثيرين بالدفاع عنك.

هتف غزالة في قفصه:

– مش عايز غير إن المحكمة تسمعني دقايق معدودة.

نظر القاضي إليه في صمت ثم اتخذ قراره:

– ماشي. اتكلم يا محمود.

ابتسم غزالة في سعادة غامرة:

– ومحدش يا فندم يقاطعني لحد ما أخلص.

هز القاضي رأسه موافقًا، وبسط يديه وقال:

– اتكلم.

اقترب غزالة من قضبان القفص، وسحب شهيقًا طويلًا، وأقام ظهره ونظر نظرة كلها رضا، وقال:

– من ميت سنة البني آدمين اخترعوا حاجات كتيرة كان أهمها تسجيل الأصوات والصور، وأصبح الناس مش بيموتوا، كل واحد حي بيسمع ما بين تلاتة لتلاتين مطرب وقارئ قرآن ومبتهل ومُرنِّم ترانيم كلهم ماتوا، وكلنا بنتفرج ليل ونهار على

أفلام ومسلسلات ومقابلات لناس ماتت من زمان كأن مفيش حد بيموت. عبد الناصر عايش وخطبه عايشة، والسادات وحسني مبارك والملك فاروق لو دورت، وكذلك أم كلثوم وعبد الوهاب وفايزة ووردة وعبد الحليم لسه بيغنوا لحد دلوقتِ ومحدش فيهم مات، رغم إنهم ماتوا طبعًا من زمان، بس بقينا بنسمع ونتفرج وننفعل مع ناس ماتت من ميت سنة! الأموات بيزاحموا الأحياء في حياتهم، ومش بس كده، ده الأموات ليهم «ألتراس» كبير أوي بيشتم ويسب ويسجن أي إنسان حي بيغلط في الأموات اللي لسه عايشين، فأصبح الأحياء مش عارفين يعيشوا على راحتهم زي اللي قبلهم وسط زحمة الأموات والأحياء اللي الزمن حطهم مع بعض، لأول مرة في التاريخ، مش بس كده، الصحة كمان اتقدمت، وأنواع الدوا اتطورت، والعمليات الجراحية بقت تعمل المستحيل، فالناس عمرها طِول ومحدش عايز يسيب مكانه للي جايين.

كان لازم يكون فيه حل، والحل طبعًا مش إنهم يمَوِّتوا الميتين لأنهم ماتوا للأسف فعلًا، والنفاق والفساد والتجارة والمصالح أحيتهم تاني، لكن الأقرب للواقع إنك تموِّت اللي عايشين، وطبعًا ما أقدرش أدَّعي إنها مؤامرة كونية ولا حاجة، لكن أقدر أجزم إن ناس كتير أوي ماتت في العالم ده من غير ما تعرف، ويمكن ده يكون الحل لزحمة الحياة. من هنا بدأت رحلتي في اكتشاف موت العالم، وعرفت إن ناس كتير من اللي حواليَّ في البيت والشغل والشارع أموات حتى لو

احتفظوا بمظاهر الحياة الخارجية، زي إنهم يمشوا ويتحركوا ويتكلموا ويتجوزوا وياكلوا ويشربوا، وهما في الحقيقة ماتوا زي حضرتك وحضرتك وحضرتك، وكل اللي منورين قاعة المحكمة من ضمن الميتين دول.

جاري العزيز اللي فعلًا قتلته، مش رغبة في القتل ولا حاجة، أنا أصلًا جبان وأخاف أموِّت نملة، لكن لما جاني الخبر استغربت جدًّا وبدأت أحسب وأفكر لحد ما أدركت إن فلان ميت فعلًا وهو مش عارف، عايز أتعامل معاه إزاي؟ على إنه حي وهو فعلًا مش حي؟ ولَّا على إنه ميت وهو يبان حي؟ مشكلة كبيرة! وضميري هداني إني أخلي حقيقته واحدة، مظهره زي باطنه، وهو كده ارتاح أكتر. أقدر أقولك إنه ناداني كتير علشان أخلصه. ولو ما كانش فيه استيعاب لفكرة إنه ناداني دي، فأقدر أبسَّطها وأقول إني حسيت بأزمته وحليتها. ومن هنا باعلن لقاعة المحكمة الموقرة وللصحفيين ولكل الناس إن العالم بيحكمه الأموات، وإن معظم العالم مات والباقي على وشك. ما أعرفش أد إيه كلامي دقيق، لكن أرجو إن المحكمة تستدعي أحياء حقيقيين للحكم عليَّ، أنا عايز قاضي حي، ومحقق حي، وأرد هيئة المحكمة بالكامل، لأنه لا يؤخذ بحكم الميت على الحي، ولا بشهادة الميت على الحي. وأرجو من المحكمة الحية القادمة أن تستشهد برجال علم أحياء يقررون مدى حياة كل من ذكرتهم في مذكراتي. وإذا كان للموت تعريف دقيق من خلال موت الجذع العصبي أو موت المخ أو توقف القلب عن

النبض، فأنا أحتاج إلى تعريف دقيق للحياة، ومَن الحي علميًّا.
وفي النهاية، أيها العلم عليك أن تعرف أن الموت يحكم، وآن الأوان للأحياء الشرفاء أن يتحلوا بالمسؤولية.

عم الصمت في القاعة، ومرت لحظاته ثقيلة وطويلة، استمتع فيها غزالة للمرة الأولى منذ فترة طويلة بتأمل الوجوه، وجه القاضي ووجه وكيل النيابة ووجوه الصحفيين وجمهور الحضور، كان يشعر بشعور كبير بالفخر؛ لقد زال عن كاهله همٌّ كبير، هو الآن خفيف ومستعد لكل شيء، هو الآن حي بشكل حقيقي.

رُفعت الجلسة للتداول، وظل الصمت هو السيد. اقترب أحدهم والتقط لقطة من هاتفه لمحمود غزالة، وابتسم غزالة ابتسامة مشرقة كنجوم السينما، وظلت تلك الصورة لسنوات طويلة هي اللقطة الباقية من محاكمة محمود غزالة، صورة حلَّل ملامحه فيها كثير من علماء النفس، واختار على أساسها كثير من المخرجين وجوهًا مشابهة لتجسيد شخصيته في فيلم يحكي قصته سيُعرَض بعد سنوات طويلة. كانت صورة عجيبة ومعبرة اتسعت فيها ابتسامة غزالة اتساعًا كبيرًا، ولمعت عيناه، وظهرت شعرات شاربه النافرة المتدرجة من الأسود إلى الأبيض فوق شفته كأنها مضاءة، فصار وجهه وجه حكيم يضحك في يوم الحكم عليه.

عاد القضاة الثلاثة إلى منصتهم. كانت الأفكار تدور في رأس القاضي سريعًا: «التقارير الطبية تشير إلى سلامة قوى محمود غزالة العقلية وخلوه من الأمراض النفسية! والرجل يبدو هادئًا مبتسمًا، وربما كان ذلك دليلًا على إمعانه في الإجرام، وربما كان مدفوعًا

بشيء أكبر منه! ما هذه الثقة؟! ما هذا الهدوء؟! كيف غرز ذلك الوديع سكينه في صدر القتيل بلا رحمة وفي وضح النهار؟! من أي باب دخلت كل تلك القسوة إلى ذلك الرجل المطمئن؟! هل يضلل المحكمة بذلك الوجه البريء؟». نظر القاضي طويلًا إلى غزالة وكأنه ينظر إلى شخص كاد ينجح في الهروب من فعلته الدنيئة ويقفز فوق سور العدالة وينجو بفعلته الذميمة: «لا بد للعدالة أن تقتص للمجتمع وللقتيل منه، ولا بد أيضًا لضميري أن يرتاح!». هز القاضي رأسه ليفيق من تلك الأفكار المتزاحمة.

تتالت شهادات الشهود، وكان أولهم صباح الممرضة، بدت شاحبة وهي تحاول أن ترفع صوتها بالقَسم وقالت:

– والله العظيم أقول الحق. الأستاذ غزالة راجل أمير، والفترة اللي قعدها عندنا في المستشفى كان آخر أدب، وقالي «يا صباح هاقولك السر»، وقال – يا عيني – حكاية إن الناس ميتة وهي عايشة، صعب عليَّ أوي وحسيت إنه غلبان وصدقته، ولما روَّحت بصيت لحالي وحال الناس حواليَّ وفي المستشفى وحسيت إنه معاه حق، وربنا هو العالم بعبيده!

كان أحمد عبد الحميد شاردًا، رث الثياب، وقد طوق رقبته بكثير من المسابح، قال القَسم بصوت عالٍ، واسترسل بعده كأنه يغني:

– والله العظيم أقول الحق. بس إزاي؟ وأنهي حق؟ أنا ما كنتش جاي، بس جيت علشان منة بنتي، أنا باحبها أوي ونفسي تكبر وتعيش مبسوطة علشان هي ملهاش ذنب في أي حاجة، الورد اللي كنت باجيبه كل أسبوع لمراتي دِبِل وما عادش ليه لازمة،

كان بيتاخد مني ويترمي في الزبالة، الرصيف أدفا من حضن الحبايب الكدابين، وسيدنا الحسين أحن عليَّ من أهلي، عنده باحس إني ضيف عزيز وعنده كرامة، مفيش كرامة ولا محبة، محمود غزالة زميلي في الشغل، طول عمره مؤدب ومحترم، لكن ده مش كافي ولا قدر إنه يحميه، الناس خطر، خطر كبير، بيهدد أي حد وسطيهم، وهيفضل الواحد وسط الناس طول عمره عطشان، وأنا هربت!

صمت أحمد عبد الحميد طويلًا ثم نظر إلى أعلى وراح ينشد بصوت لا يخلو من جمال:

شَرِبنَا على ذِكْرِ الحَبيبِ مُدامَةً
سَكِرْنَا بِها مِن قَبلِ أنْ يُخلَقَ الكَرْمُ
لَها البَدرُ كأسٌ وهيَ شَمسٌ يُدِيرُهَا
هِلالٌ وكَم يَبدو إذا مُزِجَتْ نَجمُ

وكرر الإنشاد والغناء وهو يتمايل، ثم غادر المحكمة.

قالت زوجة سمير أسعد القتيل إن محمود غزالة جارهم لم يكن بينهم وبينه عداوة، لكنه كان يهاتف زوجها على فترات ويطلب منه اللقاء لأمر مهم، وكان سمير يحترمه ولكنه كان يتعجب من تلك المكالمات. وفي ليلة أخبرها زوجها بشيء عجيب، بأن غزالة كان حين يلتقيه في المصعد يسود بينهما الصمت، ثم يتكلم غزالة فجأة كأنه يجيب عن أسئلة لم يطرحها سمير من الأساس، ويقول له: «أنا حاسس بيك، أنا سامعك، أنا عارف اللي جواك». وختمت شهادتها بصوت جاف بلا حزن:

– منه لله! ما كانش باين عليه إنه هيقتل جوزي ويتِّم عيالي!

قال زملاء العمل إن غزالة كان مشغولًا في أيامه الأخيرة معهم بالكتابة، وكان يكتب في صمت، وإنهم ظنوا أنه يدوِّن أشياء عجيبة، وقد استغل أحدهم وجود غزالة في الحمام وفتح النوتة الصغيرة ولاحظ بسرعة صفحات تحمل أسماءهم وبجوارها كلام لم يستطع قراءته لضيق الوقت، وإنهم جميعًا ظنوا أنها تقارير سرية يرفعها غزالة للإدارة عن أداء كل واحد منهم، فقرروا جميعًا تجنبه والابتعاد عنه!

ولم يُدلِ الصول رشدي بشهادته، وكان قد طلب من غزالة ألا يدرج اسمه ضمن مَن طلب شهادتهم لحساسية مهنته كحارس للسجن، فوافق غزالة على طلبه.

استطاع رشدي – تكفيرًا عن ذنب عدم إدلائه بالشهادة – أن يقنع أبانوب صديقه بأن يشهد بدلًا منه، وطلب بالفعل غزالة شهادة أبانوب الذي أقسم بالمسيح الحي أن يقول الحق، فردَّه القاضي في هدوء:

– قول والله العظيم أقول الحق.

فردد أبانوب القسم الرسمي وقال:

– الصراحة أنا ما أعرفش الأستاذ غزالة، لكن حكايته وصلتني من حد جوه السجن يعرفه كويس وطلب مني آجي أشهد، والكلام اللي وصلني منه أنا مصدقه، الناس فعلًا ماتت، وأنا كل يوم باقابل ناس في كل حتة ما بيحسوش، ما بيختشوش، عينهم مطفية وبيتحركوا وخلاص، أهم حاجة ياكلوا ويشربوا ويكون معاهم فلوس، ومحدش فارق معاه حد! صحيح دي أول مرة أشوف فيها الأستاذ، لكن الراجل اللي حكالي أنا باحبه

ومصدقه. أما هو قتل ليه، فدِي حاجة ما أعرفهاش، الدنيا ظروف وأسرار، والراجل لما الدنيا تدوس عليه يعمل أي حاجة، وجايز الأستاذ غزالة يكون لاسع أو مخه مفوِّت، لكن قصة الأموات اللي عايشين دي حلوة وعاجباني وداخلة دماغي!

وقال مدير غزالة في العمل بعد إلقاء القَسم:

- إنه موظف كفء وأمين، وقليل الكلام، ولا أتذكر أنه كان سببًا في أي نوع من المشكلات، فقط هناك جملة واحدة قالها لي غزالة ذات يوم في اجتماع شهري كانت تقيمه الإدارة، حين تحدث فجأة بصوت عالٍ وقال: «المفروض يا فندم زي ما فيه شركات تأمين على الحياة زي شركتنا، تكون فيه شركات تأمين للحياة»، فضحكت يومها وسألته: «إزاي يا أستاذ محمود؟ وإيه اللي تعمله شركة زي دي؟»، فصمت ونظر إلى الأرض وهمس: «حضرتك مش هتفهمني. أنا آسف»!

جاء الدور على الممرض علي الخواجة الذي قال في شهادته إن غزالة رجل من أولياء الله الصالحين، وإنه شهد بعينيه غزالة وهو يخبرهم أن المريض الذي على وشك الموت سيعيش بعد أن أعلن الطبيب أنه سيموت خلال ساعات، وعاش الرجل على الرغم من تأكيد الطبيب، وإنه أدرك منذ تلك اللحظة أن غزالة رجل موصول بالسماء!

جاءت الشهادات في مجملها في صالح محمود غزالة وإن لم تتطابق بعض الشهادات مع ما كان يتمنى غزالة أن يسمعه؛ كان يتمنى أن تصرخ صباح - مثلًا - بأنها حية وسط أموات، وأن يقول أحمد

عبد الحميد إنه هرب من الموتى، وأن يدلي الصول رشدي بشهادته ولا يخاف، ويعلن للمحكمة أنه مؤمن بأفكاره وأن المبشرين بنظريته سيكونون عددًا كبيرًا يجبر المحكمة على تبرئته، لكن كل ذلك لم يحدث. وغمغم غزالة: «الأموات خايفين على موتهم، مفيش أوسخ من إنك تكون ميت وجبان!».

كان الشاهد الأخير هو زوجة محمود غزالة. كانت متوترة، ولم تنظر إلى وجهه، وقالت:

- محمود عنده «بارانويا»، وطول الوقت بيحاول يتجاهلنا في تعالي شديد، معظم الوقت بيقضيه في البلكونة، وعلى طول مستغربنا، كأنه مختلف عننا، ومفيش حاجة عاجباه. صحيح مش بيصرح بكده لكن عينيه بتقول كل حاجة. أول الجواز كان عادي، وبعدين بقى يبعد عننا بالتدريج، كل حاجة بنعملها أنا وولاده بيتفاجئ منها ويبصلنا بغرابة، ولما سألته مرة: «هو إنت مستغربنا ليه أوي كده؟ وليه مش بتشاركنا في حاجة؟»، ابتسم وقالي: «لما أموت إن شاء الله هتلاقوني زي الفل، ومتفاهم ومش مستغرب عمايلكم». ولما قتل ودخل السجن قريت مذكراته واتخضيت؛ كتب فيها إني ميتة وولاده ميتين! الصراحة كان كلام غريب كأني ما أعرفش الراجل اللي كنت متجوزاه، ولحد دلوقتِ أنا مش فاهمة ولا مستوعبة هو عمل كده ليه!

قال غزالة ساخرًا من داخل القفص:

- بتطلبوا إزاي شهادة ناس ماتت على إنسان لسه حي؟! هو ده العدل يعني؟!

حاول المحامي مرة أخرى أن يستغل النقاط الإيجابية في شهادة الشهود، والاتكاء على سيرة غزالة الحسنة وكفاءته في العمل، وعدم حدوث سابقة عنف له قبل ذلك، ولكن غزالة قاطعه عدة مرات معلنًا أنه لا يريد محاميًا، وأن المحامي أيضًا ميت، ولا يجوز أن يحامي ميت عن حي.

أنهى القاضي الأمر بتأجيل القضية ورُفعت الجلسة.

لم تتغير ابتسامة محمود غزالة وظلَّ على حاله من الهدوء والطمأنينة، وسحبه رجلا أمن من القفص إلى الداخل، لكنه التفت لحظة إلى الخلف وسأل الصحفي الذي كان قريبًا جدًّا من القفص سؤالًا خاطفًا:

- إنت كتبت كل اللي قلته؟

هز الصحفي رأسه، وهنا واصل غزالة طريقه في سعادة وإحساس كبير بالانتصار.

١٤
الفصل الأخير في كتاب غزالة

– أنت العالم الموازي، أما العالم فهو واقع افتراضي، أنت أحد عناصره أيضًا.

قالها غزالة في شرود تام كأنه يهمس بكلام مقدس.

ذهل الصول رشدي طويلًا لمحمود غزالة بعد تلك الجملة التي قالها له بعد أن أخبره أن المحاكمة بعد أسبوع من اليوم. وأردف غزالة:

– أوحش حاجة في موضوع المحاكمة ده إنهم هيعدموا شخص حي!

هز رشدي رأسه في أسى، وسأله سؤالًا لم يسأله أحد له منذ أن قتل جاره، سأله بتعاطف شديد:

– ندمان؟

شرد غزالة طويلًا من غير أن يرد حتى أيقن الصول رشدي أنه ندمان، فزاد توتره وحزنه، ولكن غزالة نطق أخيرًا:

– ندمان جدًّا إني اتأخرت، كان لازم الراجل يرتاح من أول لحظة حسيت فيها بألمه!

زاد ارتباك رشدي وهو يرتب الأوراق البيضاء والقلم، ويقرب اللمبة من غزالة الذي ابتسم ونظر إليه وسأله:

– مصدقني؟

هز رشدي رأسه في يقين وقال:

– جدًّا.

بدأ غزالة في الكتابة وهو ينطق ما يكتبه بصوت عالٍ أخذ يتصاعد كأنه يلقي خطبة عصماء:

«يقترب يوم المحاكمة، ولعله يكون يوم الحكم بالخلاص من هذا العالم الذي لم أستطع فهمه بالقدر الكافي، فالحياة أمر خطير جدًّا وأخطر من الموت بكثير، وغياب الحياة بالتدريج عن هذا العالم بازدياد أعداد الموتى الأحياء أمر محزن بالفعل، ويظل الرهان في المستقبل على إنقاذ الأرواح المستعملة من الموت قبل الموت، وهو الرهان الذي أحيا تلك الأيام من أجل تحقيقه. لقد صدقني الحارس، وصدقتني صباح الممرضة، وكاد يصدقني الضابط والطبيب النفسي، وذلك شيء يبث في النفس الطمأنينة.

العالم يبدأ دورته الجديدة، دورة صراع الموجودين على هذا الكوكب، ليس من أجل الحياة كما كان في السابق، ولكن من أجل مقاومة الموت، فهل ينجح الأحياء الذين يمثلون الأقلية في الانتصار على الموتى الأحياء الذين يمثلون الأكثرية؟ الأمر بالتأكيد شديد

الصعوبة، لكنني على يقين وإيمان شديد بقدرة الإنسان على تجاوز محنته، وبأن بعض الأحياء الماكرين هم المتسببون في تلك الأزمة لأسباب عجيبة وسرية، تجعلهم يسيطرون على العالم الميت سيطرة تامة بعد أن يستأصلوا سر الوجود الأعظم وهو الحياة. لم يكن سهلًا نجاح خطتهم بإماتة الأحياء بغير حروب كبيرة، لقد مر العالم بتجارب كبرى ونظريات جُربت على البشر، وتدحرجت الكرة الأرضية بالناس من الفطرة إلى العلم، ومن الوثنية إلى الأديان إلى الشيوعية إلى الرأسمالية، وكان البشر يدفعون ثمن تلك التغييرات من أرواحهم، حتى وصلنا إلى مرحلة «الحياة الشبيهة»، وهي حياة ظاهرية تنطوي على موت محقق، ولن يحتاج الأمر هذه المرة إلا إلى مؤمنين جُدد، مؤمنين مثل صباح ورشدي، يكونون نواة لمقاومة الموت وإعادة الحياة إلى الموتى، ولا تعيد الحياة إلى الموتى إلا لمسة حية قوية، وتواصل روحي حقيقي بين الذين ما زالوا أحياء والذين يوشكون على الموت.

ربما لم أستطع إنقاذ روح جاري في الوقت المناسب واضطررت إلى قتله حتى يستقيم ظاهره مع باطنه، لكنني أستطيع الآن أن أعترف أن الأفضل والأجدى كان إنقاذ الروح المستعملة بدلًا من قتل الموتى.

وعلى ذلك، فإنني أدعو من محبسي هذا كل من تقع

عيناه على كتابي، أن يجعل هدفه الأسمى هو إنقاذ الناس من الموت عبر التواصل والصدق والحب، حب حقيقي، حب للحياة التي هي سر الله فينا، والحب يحتاج إلى قدر عالٍ جدًّا من السماح والمغفرة وترك الملامة، لا تعاتبوا ولا تلوموا شخصًا روحه أجهدها الاستعمال! اغفروا زلاتهم، وقسوتهم، وعدم مبالاتهم، وسوء سلوكهم، مهما حدث وصدر عنهم، حتى لو أوشك أحدهم على قتل من يدعوه إلى الحياة، سيموت شهيدًا بالتأكيد، فقد مات من أجل أشرف وأعظم غاية».

توقف غزالة عن الكتابة والقول، واغرورقت عينا الحارس رشدي بالدموع، وأمسك بيد غزالة وراح يقبِّلها في حب خالص.

ابتسم غزالة، وهمس في أذن رشدي:

- كده كتابي خلص، والكتاب لما يخلص يبقى حياته بدأت، وحياة الكتاب ده أمانة في رقبتك!

ووضع الكتاب على صدر رشدي الذي ضم يديه عليه بإدراك عظيم للمسؤولية وإيمان تام بأنه يحمل في صدره مفتاح نجاة العالم!

١٥
رسائل تلفونية قصيرة

صارت العلاقة بين حارس السجن الصول رشدي شحاتة ومحمود غزالة علاقة بها كثير من الود والصداقة، وانطلق لسان رشدي في أدب بالأسئلة التي بعضها كان مهمًّا وبعضها الآخر كان ساذجًا، ولكن يظل السؤال الأهم والمفاجئ هو الذي قاله في تلك الليلة بعد العشاء وهو يتحاشى النظر إلى عينَي غزالة:

– لكن إزاي العيال الصغيرة عايشة؟ يعني ماتوا وهما عايشين مع إنهم لسه يعني أطفال؟ إيه اللي يوصلهم لكده؟

ابتسم له غزالة وقال وهو يخفي حزنًا حل به أكثر من القلق والارتباك:

– كان الأمر محيرًا جدًّا بالنسبة إليَّ، ولكن الأمر يأخذ وقتًا أطول مع الأجيال القديمة مثلي ومثلك، أما أطفالنا فلن يعانوا كثيرًا حتى يفقدوا حياتهم الظاهرة.

رفع الصول رشدي صوته:

– ما تكلمني بالبلدي يا أستاذ غزالة! قلبت ليه كأنك بتكتب؟!

تدارك غزالة الأمر وضحك ثم أردف:

- زي ما تقول المناعة قلت جدًّا في الأطفال الصغيرين، مجرد ما مراتي أصبحت ميتة وهي عايشة فهُما وراها على طول، هي اللي بتقعد أكتر وهما اللي مناعتهم أقل، ده غير إن الموت السريع بيكون أريح ليهم، بيعرفوا يتعاملوا أسرع مع غيرهم في الشارع والمدرسة والنادي، كل حاجة بتدفعك للموت، حاولت ألحقهم ما قدرتش، وبدأت أتابع أطفال غيري لقيت معظمهم أو كلهم بقوا كده، ده فيه أطفال ماتت وهي عايشة مع إن أبوهم وأمهم لسه في مرحلة الأرواح المستعملة! الخلل بدأ من أول ما بقى الطفل أعلم من أمه وأبوه وبيقدر يعرف بجوجل اللي أمه وأبوه ما يعرفوهوش، علشان كده الأطفال كانوا أول فريسة!

ساد الصمت، وهرش رشدي في أذنه ورقبته، ثم قال في تردد:

- ده زي ما يكون كمين أو فخ أو مغرز أو مؤامرة! بس الأطفال دول هما الأمل!

هز غزالة رأسه بلا تعقيب.

كرر رشدي:

- الأطفال! بس الأطفال في الأرياف لسه زي ما هما.

التفت غزالة باهتمام:

- إزاي؟

أكمل رشدي:

- أنا بانزل البلد دايمًا، الأطفال هناك عايشين وبيحسوا.

فكر غزالة وقال:

- أكيد فيه حاجة هنا بتحصل مخلية مناعتهم كده!

قال رشدي في فشخرة متذكرًا:

- الواد ابن أختي هانم ولدته في الغيط، جالها الطلق وهي على الحمارة، نزلت وولدت جنب النخلة، الواد طالع طِحش وزي الفلق ولسانه مِتبرِّي منه، بس حي وعايش مفيهوش أمارات الباقيين.

لم يتكلم غزالة، وساد الصمت الطويل، فتحرك رشدي ليقرِّب منه الأوراق والقلم واللمبة وسأله:

- مش هتكتب النهارده؟

هز غزالة رأسه بالنفي، فوقف الصول رشدي وهو ينظر إليه في حنان:

- طيب عايز مني حاجة قبل ما أمشي؟

همس غزالة:

- خليك، خليك نتكلم سوا!

جلس الصول رشدي على الرغم من أن موعد انتهاء عمله قد اقترب، حيث شعر على الفور بحاجة غزالة إليه.

ابتسم غزالة له في امتنان شديد وقال:

- احكيلي إنت بقى!

رد رشدي:

- عن إيه؟

قال غزالة:

- كل حاجة، أحوال الناس بره إيه، مين عايش، مين مات، مين بين البينين...

انطلق رشدي في الحكي عن أولاده وزوجته وجيرانه وزملاء العمل (حراس السجن). حكى عن كيف تزوج، وعن أول مولود، وعن شقيق زوجته صديق عمره محفوظ، وكيف فرقت بينهما الأيام بسبب خلاف مادي بسيط، فقد تشاركا معًا في بقالة صغيرة واختلفا في الحساب فهتف محفوظ: «إنت مخوِّني؟»، وكانت هذه الكلمة هي آخر ما سمعه منه، واستمرا في خصام امتد لسنوات، وكان كل يوم في هذه السنوات يتجه إلى شقة محفوظ في البيت المقابل، ويهم أن يطرق الباب متخيلًا أن محفوظ سيفتح له فيحتضنه رغمًا عنه وينتهي كل شيء، لكنه في كل مرة يتراجع عن طرق الباب خوفًا من زوجة محفوظ سليطة اللسان. وأخيرًا ذهب وقد قرر أن يطرق الباب وليكن ما يكون ولتنتهِ تلك القطيعة الماسخة، لكنه وجد الباب مفتوحًا والنواح يأتي من الداخل، وخرج بعدها بوقت – مر على رشدي سنين – محفوظ محمولًا في نعشه إلى المسجد، وظل رشدي يهتف خلف النعش بصوت عالٍ: «كده تموت قبل ما تصالحني يا محفوظ!»، حتى راح صوته واحتبس ولم يعد له إلا بعد شهور.

مسح غزالة دموعه تأثرًا، وكذلك مسح الصول رشدي دموعه، وساد الصمت، ثم ابتسم غزالة، وامتلك أخيرًا الشجاعة فسأل السؤال الذي كان يربكه كثيرًا:

– هو إنت مصدقني فعلًا ولَّا بتاخدني على أد عقلي؟

رد رشدي بتلقائية:

– مصدقك أوي، علشان كلامك صح وأنا شُفته بعيني.

اتسعت عينا غزالة وقال بصوت خفيض:

- شُفت إيه؟

انطلق رشدي يحكي عن الأشخاص المحيطين به، والفارق بينهم وبين محفوظ، كان محفوظ هو مقياس الإنسانية لديه، يقيس عليه كل شيء: فلان ليس خفيف الظل كمحفوظ، وفلان كلامه طائش وليس كمحفوظ الذي تزن كلامه بميزان من ذهب...

ثم صمت رشدي وتحولت ملامحه إلى الغيظ وهمس:

- عيب محفوظ بس إنه ادَّى ودنه لمراته فقسِّت قلبه!

ثم عاد رشدي إلى وصف الناس وفق نظرية غزالة مؤكدًا أنهم أموات بالفعل، وضرب مثلًا المكوجي والجزار والفكهاني وصاحب محل الهواتف على ناصية شارعهم الذي يعطيه شاحنًا «مضروبًا»، وحينما يعاتبه لا يرد ولا يعتذر ولا يتكلم، ويذهب في صمت لإحضار شاحن «مضروب» آخر!

قاطعه غزالة:

- مش كل واحد سلوكه وحش أو حتى حرامي أو أي حد زعلك يبقى ميت وهو حي!

رفع الصول رشدي صوته:

- وحياة ربنا فاهمك، أنا مش باقول أموات علشان حرامية وقُللات أدب، لأ، باقول أموات علشان الحي بيختشي، ويزعل، ويتكسف، ويغير، ويتحمق، ويفرح من قلبه، وينتقم حتى بغِل، لكن دول لأ، دول أموات! ده فيه واحدة منهم جارتنا وقعت من الدور الرابع نزلنا نجري لقيناها زي ما هي سليمة، وقامت

ورجعت بيتها وعايشة لحد دلوقتِ بس بعيد عنك جسم من غير روح!

سأله غزالة:

– أكيد بتشوف ناس عايشة في الدنيا زينا، مظبوط؟

شرد رشدي طويلًا ثم هز رأسه موافقًا:

– فيه طبعًا ناس لسه حية، زي محفوظ الله يرحمه، وزي الدكتور وديع بتاع الأطفال، وزي شحتة اللبَّان، ومين تاني؟ آية ربنا يديها الصحة، وشريفة حب عمري مرات صاحب الفرن الفينو، وهو برضو الصراحة رغم إني مش باطيقه، وأبويا الله يرحمه... كل دول عاشوا عايشين وماتوا عايشين والموت ما هوِّبش ناحيتهم.

قال غزالة:

– وأكيد فيه زيهم كتير.

هز رشدي رأسه مؤكدًا:

– أكيد.

لمعت عينا غزالة، وهمس في أذن رشدي:

– دول واللي زيهم واللي لسه ما وصلش للتَّكة لازم نقف جنبه ونساعده يفضل حي!

رد رشدي:

– الكتاب بتاع حضرتك يكمل وبإذن الله يوصل للناس حتى لو...

أكمل غزالة مبتسمًا:

– حتى لو أعدموني.

هز رشدي رأسه موافقًا في حزن:

- أيوه!

وقف غزالة وراح يتحرك في الزنزانة ذهابًا وإيابًا وهو يقول:

- عايزين حاجة أسرع من الكتاب، نبعت جوابات.

همس رشدي:

- لمين؟

أكمل غزالة فكرته:

- للناس اللي لسه عايشة، والناس اللي فيها أمل، ننبِّههم ونحذرهم، وكل واحد وصله الجواب يبعته لغيره، والناس تتلحق، يعني المكوجي اسمه إيه؟

رد رشدي:

- مصطفى.

رفع غزالة صوته كأنه يكتب رسالة:

«عزيزي مصطفى المكوجي، أنا محمود غزالة. أحبك جدًّا وأحب روحك، لا تستسلم أبدًا، ولا تصل إلى مرحلة الـ«تِك». يا مصطفى أنت روح مقدسة، خلقها الله من روحه، لا تجعل أحدًا يسلبك إياها تحت أي ظرف، حافِظ على روحك، ليس من أجل أولادك وزوجتك وأمك وأبيك، ولكن من أجلك أنت مصطفى المكوجي، أنت تستحق أن تعيش حيًّا لا ميتًا».

ساد الصمت، وابتسم الصول رشدي ابتسامة تحولت إلى ضحكة، مما أثار استهجان غزالة فسأله:

- إيه اللي يضحك؟

رد رشدي:

– الكلام بالنحوي تاني! وبعدين جوابات ورسايل إيه أيام الموبايل؟! إحنا نجيب خط وحضرتك تكتب رسالة واحدة بسيطة بالبلدي ونغير فيها كل مرة الاسم بس، واللي يصدقنا يبعتها لعشرة، إيه رأيك؟

أعجب غزالة كثيرًا بمنطق الصول رشدي، ونظر إليه بامتنان واحترام كبيرين، وقال:

– من بكرة تجيب خط ونبدأ نبعت ننقذ الخلق.

تحرك رشدي مستعدًّا للخروج وقد شعر بأنهما وصلا إلى نقطة مهمة في تاريخ العالم، ثم نظر إلى عينَي غزالة مباشرة وقال:

– بس لازم تكون رسالة إيه... طلقة!

ابتسم غزالة، وقبل أن يغلق رشدي باب الزنزانة رفع غزالة صوته قائلًا:

– الدور الجاي تكلمني عن العيال الصغيرة عندكم في البلد بالتفصيل.

هز رشدي رأسه وأغلق الزنزانة، ونظر غزالة طويلًا إلى الباب المغلق كأنه يتمنى أن ينفتح بداخله باب ينجيه من الوحدة القاتلة، وزفر زفرة طويلة وقال: «الوحدة أصعب من الموت!».

١٦
المسيح الحي

ظهر أبانوب فجأة كعادته، نحيفًا بريئًا عالي الصوت، ونجح للمرة الألف في أن يخلع قلب رشدي شحاتة وهو يهتف خلفه كعفريت:

– إيه أحوال مساجينك؟ احكيلي.

زعق رشدي وسب ولعن وغضب، لكن بعد دقائق قليلة جدًّا كانا على المقهى يتبادلان نفخ دخان السجائر والرشف من كوبَي الشاي، ورشدي يبتسم ويقول:

– الحاجة الوحيدة اللي بتخليني أسامحك رغم رخامة دمك إنك فعلًا عايش يا أبانوب مش ميت.

ضحك أبانوب حتى كاد يقع على الأرض، وصدرت أصوات من أنفه، وضرب كفًّا بكف، وسالت دموعه والكلام يخرج من فمه مبعثرًا:

– ما كلنا عايشين يا رشدي!

هنا بدأ رشدي يمسك بمفتاح باب الحكي، وحكى لأبانوب قصة سجينه كاملة. كان أبانوب جنوبي الأصل من أسيوط، ويعمل طبَّاعًا في المطبعة الكبيرة الخاصة بهيئة الكتاب، وهو رجل خفيف الظل،

وحينما ينفعل يرطن فجأة بلهجة الجنوب. تزوج إيرين وأنجب منها مريم ولطيف. كان يشعل سيجارة من سيجارة، وحين ينتابه السعال تستطيع أن تقسم إن الرجل سيموت الآن وأمامك من فرط ما يعتريه من ألم وجحوظ في العينين. تعرَّف على رشدي شحاتة في المقهى منذ سنوات طويلة حينما حدث خلاف بينه وبين جاره مدحت أحمد فواز، وطلب مدحت من رشدي أن يشهد بينهما بالحق، وشهد رشدي لأبانوب وغضب مدحت، وظلت من بعدها صداقة رشدي وأبانوب.

أنهى رشدي قصة سجينه وخيَّم الصمت، ثم قال أبانوب:

– والله الجدع معاه حق، ده أنا معظم الناس حوالين مني كده، محدش كده عايش إلا ناس قليلة.

نظر إليه رشدي طويلًا وسأله:

– يعني تشهد مع الراجل لو طلبك للشهادة؟

صاح:

– والمسيح الحي أشهد!

تعجب رشدي لأول مرة من اليمين التي حلفها أبانوب، وقال:

– شوف أهو إنت بتحلف بسيدنا المسيح وتقول إنه حي مع إنه يعني مش عايش، لكنه حي. كده الحياة زي ما بيقول الأستاذ غزالة غير العيشة، الحياة حاجة تانية.

ساد بينهما الصمت ثانية، وراح أبانوب يفكر من البداية في قصة المسيح الحي.

غاب أبانوب كثيرًا عن الود مع الكنيسة، لسنوات لم يدخل كنيسته أو أي كنيسة أخرى، كان الأمر عنده ليست له علاقة بقسوة القلب

أو إنكار أهمية الكنيسة، بل على العكس، قلبه معلق بالكنيسة وبكل تفاصيلها: بالقداس والمذبح والتناول والبخور وكل شيء... لكنه منذ مات كاهن اعترافه وهو فاقد الصلة والتواصل، كان يعشق الكاهن متَّى ويقدسه، ويحب عطفه وتعاطفه، ويلعب معه أحيانًا كرة القدم ضربات جزاء، وكان متَّى يترك أبانوب أحيانًا يُدخِل الكرة بسهولة في مرماه إذا لاحظ أنه منخفض الروح منكسر، ولكن إذا شعر بأن أبانوب في حالة نفسية جيدة كان يمطره بالأهداف من كل الزوايا. مات متَّى وانقطع أبانوب، لكنه الآن على باب الكنيسة للمرة الأولى منذ أربع سنوات، دخل على وجل، ثم اقترب من الصليب الكبير في المدخل وانهمر في البكاء، أيقظته من تلك النوبة يد وهمسات الأب بطرس وهو يقول:

– ياه! أبانوب أخيرًا! وحشتنا! تعرف إن دي أول مرة من فترة أشوف حد بيعيط!

بعد أن هدأت نفس أبانوب وجفت دموعه كان كلام الأب بطرس هو المفاجأة الحقيقية:

– لا أحد يبكي! الناس لا يساورهم شعور الندم، الاعتراف صار كلامًا مبرمجًا وعجيبًا عن أشياء عادية، الناس صاروا يدخلون ويخرجون بلا روح، كأنهم أجساد تتحرك بحياة مزيفة!

هكذا رد أبانوب على حكاية رشدي، حيث كان منذ قليل في الكنيسة والقصة ساخنة حاضرة في ذهنه. وحل الصمت بينهما، ثم مر بائع يدفع عربة فاكهة وهو يغني:

يا فاكهة غالية وملهاش طعم
مين يدفع تمنك!

١٧
وطار غزالة

اقتيد محمود غزالة إلى مكان تنفيذ الحكم بالإعدام، وسأله الشيخ المرافق قبل تنفيذ الحكم:

- نفسك في إيه يا غزالة؟

ابتسم له غزالة ابتسامة عريضة وقال في هدوء وثقة:

- نفسي إنك تعيش يا عم الحاج.

لم يرتح الشيخ لمقولته، وأحضروا كوبًا من الماء المثلج شربه غزالة على مهل، ثم التفت إلى العسكري الذي عن يمينه وهمس:

- كلها لحظات ونبقى كلنا زي بعض!

غُميت عيناه وفق المعتاد وصعد على «الطبلية» - هكذا يسمونها - ووُضع الحبل حول رقبته، وشد المُسمَّى دومًا بـ«عشماوي» الحبل وانفتحت الطبلية، لكن جسد غزالة لم يسقط وفق القانون الفيزيائي السليم، بل صعد إلى أعلى! وكما انفتحت الطبلية انفتح سقف الغرفة

وصعد جسد غزالة إلى أعلى صعودًا لا يتوقف، ثم مد غزالة يده ورفع الغمامة الموضوعة فوق عينيه وألقى بها في الهواء لتسقط على وجه القاضي، وصوت غزالة يتردد في الفضاء الرحب: «الحي هو اللي يقدر على تكاليف الحياة».

أفاق القاضي من كابوسه المتكرر وهو يتحسس وجهه بحثًا عن الغمامة التي كانت تغطي عينَي غزالة، لكنه لم يجد شيئًا. وعلى الإفطار لاحظت زوجته شحوبه. بحث في رأسه كثيرًا عن أصل الجملة التي يرددها غزالة في نهاية الحلم وعن قائلها، لا بد أنها قول مأثور أو حكمة أو جملة لأديب كتبها في إحدى الروايات. بحث في جوجل ولم يجد. وأفاق على سؤال زوجته الذي يبدو أنه لم يكن الأول، فقد تحدثت إليه كثيرًا في أثناء شروده ولم ينتبه، سمعها أخيرًا تقول:

– بقيت تتكلم وإنت نايم!

رد بسرعة:

– من اللي بنشوفه. أنا قلت إيه؟

ردت مبتسمة:

– قلت «نفسك في إيه؟»!

رد ضاحكًا:

– ده مش أنا، ده الشيخ.

فقالت الزوجة:

– وبعدين سِكتْ وقلت «نفسي إنك تعيش يا عم الحاج»!

رد مقطبًا جبينه في ضيق:

– مش أنا، ده غزالة.

لم تفهم شيئًا من ردوده العجيبة، وختمت كلامها:

– محتاج تستريح؟

أجابها وهو شارد:

– العجيب إن أنا نفسي ما كنتش في الكابوس ده خالص، بس كنت شايف كل حاجة!

أحكم رباط العنق حول رقبته وساعدته زوجته في ارتداء جاكت البدلة وهي تسأله:

– هي إيه القضية اللي خلتك تشوف الكابوس ده؟ أكيد فيها حاجة عجيبة تخليك تنام وتصحى كده!

أجابها وهو يتحاشى النظر إلى نفسه في المرآة:

– واحد قتل واحد وبيقول إنه بريء!

ربتت على كتفه وقالت:

– مش أول جريمة قتل يا طارق.

أجابها وهو يضع النظارة على عينيه:

– أيوه، بس هو بيقول إن القتيل من الأول ميت، ميت حتى وهو حي، وإننا كلنا أموات بس بننكر، كلنا متنا وإحنا عايشين!

خيَّم صمت طويل عليهما، وعند باب الشقة قبَّل وجنتيها ووجدهما شديدتَي البرودة كأنهما قطعتا ثلج، وهمست هي في أذنه بارتجاف:

– ما يمكن معاه حق. إنت مش فاكر ابن عمك عمل إيه؟

ربت على كتفها وخرج مسرعًا، وأغلقت هي الباب بيد مرتعشة.

الطريق من سكن القاضي طارق العمري إلى المحكمة كان المكان والزمان المثاليين له ليطلق العنان لنفسه ويفكر بحرية؛ لا يقاطعه السائق ولا ينطق بكلمة، هكذا كانت أوامر طارق له منذ أول مرة والتزم السائق الأمر، غير مسموح أن يرن الهاتف المحمول الخاص بالسائق أو حتى طارق، على كليهما إغلاق المحمول طوال مدة ذهاب القاضي إلى عمله وكذلك مدة الإياب. المسافة تأخذ تقريبًا خمسين دقيقة، وهو وقت كافٍ جدًّا لمراجعة كل شيء. خمسون دقيقة يتذكر فيها طارق كل شيء عن القضايا التي سينظرها، عيناه مغمضتان خلف نظارته، وتركيزه كله منصب على التفكير الهادئ، ونوافذ السيارة مغلقة، وتكييفها مضبوط، ولا صوت واحدًا، لا راديو ولا كاسيت ولا شيء، لا يقطع هذا الصمت أبدًا إلا جملة رمضان السائق: «وصلنا يا فندم».

في هذه المرة كان تفكير طارق العمري منصبًّا على محمود غزالة، كانت ملامح غزالة كأنها قابعة خلف جبهته، حاول الهرب كثيرًا منها ليجد نفسه يصطدم بوجه حازم العمري، ابن عمه الذي يعيش في المنوفية، وكيف كانت ملامحه محايدة باردة حينما طلب أن يشتري – أو بمعنى أدق يستولي على – بيت الجد العمري. كان مُصرًّا على الشراء بثمن لا يمكن أن يقبل به أحد، أقام طارق ليلته تلك في بيت جده وهو مندهش جدًّا من حازم الذي تغيَّر تمامًا، بل تبدَّل وصار شخصًا آخر. كان حتى الماضي القريب شخصًا عاطفيًّا بشوشًا يمد حبال الود للجميع ويسأل عن الجميع، إلى درجة كانت تثير سخرية بعض أشقياء العائلة. كان يبكي مع مشاهد الفراق واللقاء في الأفلام

والمسلسلات، وينحاز إلى الخير ضد الشر عند المشاهدة، إلى درجة التصريح بصوت عالٍ شامتًا في الشرير: «أحسن. تستاهل. إنت إيه؟ مش بني آدم؟!»، أو يدعو عليه وسط الفيلم قبل أن ينال الشرير جزاءه: «إلهي يا أخي ربنا يخرب بيتك زي ما خربت بيت الست». كان يغمض عينيه ويهز رأسه مع أغاني عبد الحليم حافظ كأنه هو نفسه «العندليب الأسمر». الآن هو شخص آخر، قليل الكلام، بارد المشاعر، حاسم مُصر على رأيه، يتحرك في صمت، تخلى عن صخبه وعن كل شيء، فقط يردد جملة واحدة: «هاشتري البيت وهتبيعه يعني هتبيعه». باع طارق نصيبه لابن عمه وعاد، لم يكن غاضبًا ولا حزينًا، لكنه كان مندهشًا دهشة اكتملت حينما اقترب ليودع ابن عمه عند باب بيت الجد، فمد له يدًا ثلجية تشبه وجنتَي زوجته حين قبَّلهما قبل قليل. هل هي مثل حازم أيضًا؟ وهل هو مثلها؟ هل نحن جميعًا تبدَّلنا ومتنا مثلما يرى محمود غزالة؟

علا صوت رمضان السائق:

– وصلنا يا فندم.

أفاق طارق العمري، ونظر إلى وجه رمضان الذي فتح له الباب فوجده وجهًا هادئًا بلا تعبير، كأنه وجه لا ملامح له. كان صعود طارق العمري على سلالم المحكمة أبطأ من المعتاد، وفي الاستراحة التي يجلس فيها قبل الدخول إلى قاعة المحكمة كان طعم القهوة في فمه مناسبًا لتلك الأفكار المُرة، ورنت في رأسه جملة محمود غزالة كأنها ترن في فضاء رحب: «الحي هو اللي يقدر على تكاليف الحياة»!

أخذ رمضان السائق رشفة من كوب الشاي في المقهى المجاور

للمحكمة وهو يحاول أن يتذكر ماذا جرى له قبل ثلاثة أيام حينما ظل يصعد ويهبط سلالم بيته في بولاق بين شقته وشقة أمه أكثر من عشرين مرة ليفض نزاعًا ويطفئ نارًا اشتعلت بين زوجته وأمه. في المرة الأخيرة جلس على السلم بين الشقتين يلتقط أنفاسه وحنى رأسه إلى أسفل مغلوبًا، وسمع رقبته وهي تصدر صوتًا يشبه «التَّكة»، لقد تكَّت رقبته تكة عجيبة عاد بعدها إلى شقته ولم يسمع كلمة واحدة من زوجته، ولم يأبه برضا أمه أو سخطها، ونظر إلى زوجته نظرة عجيبة جعلتها تصمت تمامًا. رشف رشفة أخرى وهو يهمس لنفسه: «كانوا هيموتوني ولاد الكلب!».

كانت الجلسة الأخيرة، وبدا القاضي طارق العمري مرهقًا من أثر النوم المتقطع، فيما محمود غزالة في قفصه هادئ يحدق إلى الأرض، والحاضرون يملأون القاعة كأنه عرض مسرحي «آرش كومبليه»، دقات المسرح الثلاثية تشبه إلى حد بعيد نداءات الحاجب بمقولته الشهيرة: «محكمة!». يدخل القاضي العمري ثم عضو اليمين ثم عضو اليسار ثم وكيل النيابة، وتبدأ الجلسة الأخيرة...

الجميع ينتظر حكمًا في القضية المثيرة. وقف غزالة فجأة وصرخ بأعلى صوته:

– الحي هو اللي يقدر على تكاليف الحياة، والحياة صارت مكلفة جدًّا، اللي يقدروا يدفعوا التكاليف عددهم قليل جدًّا، واللي ما يقدرش بيموت وهو حي!

فاجأت الجملة القاضي فدق بشاكوشه الصغير فخيَّم الصمت على القاعة، وبلع القاضي ريقه وقال بصوت جاف:

- الكل يلزم السَّكينة.

قالها كأنه يخاطب نفسه، كان في أمسِّ الحاجة إلى سَكينته هو، ثم تمالك نفسه وهتف:

- محمود غزالة، المرة دي هاسمعك، عايزك تفتح قلبك وتقول إيه المبرر اللي خلاك تقتل جارك، سيبك من قصة إنه ميت، واتكلم بصراحة، وخلي بالك دي فرصتك الأخيرة في الكلام.

قال محمود غزالة بوقار وهدوء:

- شكرًا سيدي القاضي، أنا محمود نافع غزالة، ٥١ سنة، أب لطفلين، وزوج وموظف ومواطن عادي، حاولت كتير إني أدفع تكاليف الحياة وما زلت، وفي رحلتي في الحياة كانت ليَّ ملاحظات دوِّنتها عندي عن الناس والحياة، ولاحظت تغيير كبير بيحصل للناس حواليَّ، في بيتي وفي شغلي وفي كل مكان الناس بتتولد وتكبر وتقاوم الحياة مقاومة، والظاهر إن ضغوط الحياة في العشرين سنة اللي فاتوا كانت فوق الطاقة، وبدأت الناس بالتدريج تموت، زمايلي في الشغل، مراتي، ولادي، الكل بيموت وهو عايش عادي! ومنهم جاري سمير أسعد، كان بيعاني من أزمة الموت على قيد الحياة، شُفت وسمعت معاناته وقدرت بحمد الله إني أنقذه وأموِّته، يمكن لو ما كنتش في السجن كنت حاولت أنقذ عدد أكبر من الناس، كنت هاموِّت اللي قريبين مني وأمنحهم الراحة اللي منحتها لسمير أسعد، لكن وجودي في السجن خلاني وقت الوحدة أفكر إن فيه ناس تانية لسه ما ماتتش وبتقاوم، الناس دي ممكن

ننقذهم لو قدرنا نخفف عنهم تكاليف الحياة، وده اللي كتبته في كتابي «مذكرات محمود غزالة» اللي باطلب من المحكمة الموقرة طباعته طباعة جيدة ونشره وتوزيعه مجانًا في كل مكان، ممكن الناس يستفيدوا بقرايته، ويفهموا وجهة نظري. أنا يا سيدي القاضي صرخة في وِش الموت اللي مَلَك رقاب الخلق، وأخيرًا أنا راضي تمامًا أيًّا كان الحكم، راضي بموتي وراضي بحياتي. شكرًا!

أنهى غزالة كلامه وجلس في هدوء، وبدأ يعاني شعورًا شديدًا بالعطش.

همس القاضي:

– تمام. يا محمود أنا عندي سؤال تاني...

هتف غزالة:

– عطشان!

ارتبك القاضي وقال مسرعًا:

– هاتوله ميَّه ساقعة!

لحظات مرت ببطء وصمت، وزجاجة الماء المثلجة تظهر أخيرًا في يد عسكري من عساكر المحكمة، وتتحرك حتى تصل أخيرًا إلى يد غزالة، فيشرب منها بهدوء على عدة مراحل. إنه الكابوس يتكرر أمام القاضي، حتى إنه للحظات أغمض عينيه وفتحهما ليتأكد أنه مستيقظ. استراح القاضي قليلًا حينما شرب غزالة، ونظر إليه طويلًا وهو خلف القفص، ثم قال بصوت جاف:

– طلعوا محمود بره القفص وخلوه قدامي.

خرج غزالة من القفص ووقف أمام القاضي الذي قال بصوت هامس به رنة من حنان:

- قرَّب يا محمود.

اقترب غزالة أكثر من منصة القضاء حتى صار على مسافة تتيح للقاضي طارق العمري أن يرى ملامح وجهه بوضوح، وقال القاضي:

- لو أنا وافقتك على فكرتك وقلت إن جارك سمير أسعد كان ميت وهو عايش، وإن أغلب الناس كده بمن فيهم أنا يا سيدي، إزاي إنت نفسك تثبتلي إنك حي؟

تهامس الحضور بعد ذلك السؤال مدهوشين منه، وعلت همهماتهم التي أسكتتها دقات شاكوش القاضي وهو ينظر إلى وجه غزالة الذي ابتسم وقال:

- إنت شايفني، وشايف كويس وعارف إني حي، وِشي فيه هَم وحكمة وحزن وتعاطف وحب، حاجات مستحيل تشوفها لو بصيت في المراية أو خليت أي حد من اللي قاعدين يبص في المراية، أنا باعطش وأشرب، أجوع وآكل، أشتهي وأخاف وأترعب وأحب وأشتاق، لكن إنتو لأ! أنا إنسان حي ينتظر الموت، وإنتو أموات تنتظروا القبر!

ساد الصمت العجيب مرة أخرى، صمت قطعه طارق العمري فجأة في حسم:

- رُفعت الجلسة للمداولة والنطق بالحكم. ارجع القفص يا محمود.

تخلو القاعة من القضاة، ويعود غزالة إلى القفص، ويمر الوقت

ثقيلًا وقد غرق كل شخص في القاعة في صمت رهيب، أعقبه شعور كبير بالعدائية داخل القاعة تجاه محمود غزالة، صار كل شخص في القاعة يتمنى أن يُحكم على غزالة بالإعدام، وربما وصل الأمر ببعضهم إلى أن يتمنى أن يعدم غزالة بنفسه. فيما ظلت زجاجة الماء المثلجة في يد غزالة يرشف منها رشفة بين الحين والآخر، ثم يعود للنظر إلى الأرض. ويهتف الحاجب، ويدخل القضاة، ويستقر طارق العمري في المنتصف، ويضع نظارته على عينيه ويُحكِم وضعها بضغطة من إصبعه على إطارها فتستقر أكثر على أنفه، وينظر طويلًا إلى الأوراق أمامه ثم يرفع نظره إلى محمود غزالة مباشرة:

«بعد الاطلاع على أوراق القضية، والاستماع إلى السادة الشهود، وبعد مرافعة النيابة، والاستماع الجيد للمتهم، في قضية قتل السيد سمير أسعد، وعلى الرغم من أن التقرير الطبي خلُص إلى سلامة قوى المتهم العقلية، فإن الشواهد تدل على أنه يعاني ضغوطًا شديدة واضطرابات قوية دفعته دفعًا إلى ذلك الفعل الإجرامي الشنيع. ولقد أثار المتهم في أثناء التحقيق أفكارًا غريبة بدت في البداية محاولات منه لتضليل العدالة، وبالتدقيق وجدنا أنها أفكار تحمل كثيرًا من الألم النفسي الذي دفعه دفعًا إلى ذلك الجرم الأكبر وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها، ضلالات نفسية حركته كالإيمان الفاسد ليرتكب ما ارتكب، كأنه يقدم للبشرية حلًّا ينقذها من الموت. وعلى الرغم من أن

المتهم فعل فعلًا شنيعًا لا تقبله النفس ولا ترضاه، فمن قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا، فإن المتهم صوَّرت له أوهامه أنه يحييها، وبالتالي فقد أحيا الناس جميعًا، في خلط شيطاني عجيب، فقتل الرجل بغير خصومة سابقة بينهما وبغير مصلحة مرتجاة أو غرض واضح أو معتاد. لذلك فقد استقر ضمير القاضي إلى الآتي...».

سكت القاضي قليلًا بعد تلك الجملة كأنه يراجع ضميره مراجعة أخيرة؛ هو لا يرى أن الرجل يستحق حكم الإعدام، ولا يرى أيضًا أنه يستحق البراءة، إنه يرى نفسه على المحك كأنه يحكم على جزء منه ويحاول أن يكون عادلًا قدر الإمكان، شيء ما يدفعه إلى تصديق محمود غزالة، شيء صغير جدًّا يدفعه إلى ذلك، وشيء أكبر يدفعه إلى الحكم بأقصى عقوبة، وها هي الكلمات تخرج من فمه كأنه ينطق بالحكم وهو نائم:

«حكمت المحكمة حضوريًّا على المتهم محمود غزالة بالسجن المؤبد خمسةً وعشرين عامًا».

خيَّم الصمت على القاعة، وبدا عدم الارتياح للحكم، بينما أكمل محمود غزالة شرب الماء من زجاجته المثلجة وهو يبتسم للقاضي ويهمس:

- والكتاب؟

في طريق العودة من المحكمة إلى السجن، وغزالة في سيارة الترحيلات يتابع الشوارع وهي تجري من حوله خلف زجاج وقضبان السيارة المغلقة هادئًا مستقرًّا، توقفت السيارة بجوار إشارة المرور

الحمراء، وطفل صغير في سيارة والده تعلقت عيناه بوجه غزالة خلف الزجاج المغلق والقضبان، أشار الطفل ببراءة ملوحًا لغزالة الذي رد إليه التحية، فتحت الإشارة وتحركت السيارتان – سيارة الترحيلات وسيارة الطفل التي يقودها والده – وأعين الطفل وغزالة تتبادل النظرات، كانت عينا الطفل مليئتين بالشغف والفضول، وعينا غزالة تفيضان بالحنان، وفمه يهمس برقة بالغة: «أرجوك خليك حي! قاوِم وكمِّل!».

وصلت سيارة الترحيلات إلى السجن، وفتح العسكري بابها ولم يخرج منها غزالة! كان الصول رشدي قد وصل لاهثًا ليستقبل غزالة، فلحق مسرعًا بالعسكري في قلق إلى داخل سيارة الترحيلات بعد أن علت صرخته في الداخل، كاد الصول رشدي ينكفئ على وجهه وهو يصعد إلى السيارة وقد ظن أن غزالة أصيب بمكروه، وفي داخلها كانت سيارة الترحيلات خالية، ليس فيها سوى العسكري الصارخ والصول رشدي ولا أثر لمحمود غزالة!

هذا الحدث الذي تجاهله الجميع ولم يكتب عنه أحد، احتفظت به ذاكرة رشدي شحاتة إلى الأبد، من دون أن يبوح به لأحد. دخل رشدي إلى الزنزانة الخالية فحسب، وأخذ كتاب محمود غزالة وعاد إلى بيته في صمت.

الفصل الثاني

أهل البيت

أَمَّا الفُؤادُ فَحَسبِي أنتَ سَاكِنهُ
وصَاحِبُ البَيتِ أدرَى بِالذي فِيهِ

إبراهيم اليازجي

١
البيت

لله بيت على الأرض بَنَتَه الملائكة قبل أن يهبط آدم إلى الأرض في الزمن السحيق، وحينما شرَّف آدم الأرض هو وزوجته بنزولهما أعادا بناء بيت الرب. لا يوجد ذِكر لبيوت الله في الجنة، بيوت الله في الدنيا فقط. والبيت الحرام هو بيت الله الأقدم على وجه أرضنا المختارة، تلاه بيت المقدس، وتلاهما مسجد الرسول، وبالتوازي عديد من المعابد والكنائس لكل دين ولكل ربٍّ، ففي كل بقعة معتبرة من بقاع الأرض بيوت لله وإن اختلفت أسماؤها، من معابد الفراعنة لكثير من الآلهة إلى بيوت آلهة الصين والهند. فكل آدمي له إله اجتهد في أن يبني لإلهه بيتًا يزوره فيه ويتقرب إليه بالقرابين ويسأله حاجته، فكان للإله بيت في كل مكان فيه مألوه لذلك الإله، وكان لكل مألوه بيته أيضًا. ولم تقتصر البيوت على أولاد آدم وحدهم، ولكن كانت لغالب المخلوقات الأخرى بيوت ومساكن، فكانت للنمل والنحل مساكن، وكانت للعنكبوت بيوت، وكان للإنسان كهف يأوي إليه وكوخ وخيمة وبيت ومنزل

ودار وقصر تبعًا لوقته ومكانه ومكانته، فإذا نزل الإنسان بمكان ما وأسعده الزمان كانت له المنزلة والمكانة بين أقرانه، كأن المنزلة والمكانة هما مُحصلة الجمع بين الإنسان والمكان وحُسن الحظ وتوافقه مع الزمن الذي وُجد فيه.

أقام الإنسان في بيوت بعد رحلة طويلة على الأرض حتى صار له بيت مستقل، وصنع في ذلك البيت غرفًا، والغرف إشارة إلى فخامة البيوت وإلى الخصوصية والتنوع، فجعل غرفة للنوم وغرفة للمائدة وغرفة لاستقبال الضيوف وغرفة للمعيشة لمزيد من الرفاهية، وأنشأ القاعة والردهة والصالة والبهو، وخطا خطوات في المعمار تصميمًا وتنفيذًا حتى صار سطح الكرة الأرضية عجيبًا؛ من أعلى تُزاحِم فيه المنشآت التي أنشأها الإنسان تلك الطبيعة التي أنشأها الخالق، فتُدفع الغابات بالمباني، وتتراجع شواطئ البحار في دهشة، وتلوي الجبال أعناقها في تعجب من ذلك الإنسان الذي نحت داخلها البيوت. و«السكن» هو المفردة الأكثر حميمية للإقامة والحياة.

القبر أيضًا أحد أشكال البيوت، هو بيت وسيط برزخي يضم الجسد الميت إلى حين فكِّ أسره وانتقاله إلى الحياة الدائمة. وظهر هذا البيت البرزخي في حضارات قديمة، وعلا شأنه عند حضارة المصريين القدماء، حتى إنهم اهتموا به أكثر من البيت الدنيوي، فاحتفظوا بموتاهم داخل بيوت مغلقة بعد أن وضعوهم محنطين في توابيت خشبية متينة، في قبور محصنة ضد اللصوص، حيث ينتظر الميت بجسد مُهيَّأ للصمود أمام عوامل التحلل والفناء حتى يعود إلى الحياة، ويمر عبر ممر طويل هو الممر الفاصل بين العالمين،

يمر في مركب يتهادى وفق مسار محتوم للحساب، فإما إلى حياة أبدية سعيدة وإما إلى شقاء.

فضَّل أقوام آخرون ألا يجعلوا لأجساد موتاهم بيوتًا برزخية، وآثروا أن يحرقوا أجساد موتاهم حتى تصير رمادًا تذروه الرياح، فكانت الرياح هي البيوت المتحركة لذرات موتاهم، فتسكن في طيرانها أكبر مساحة ممكنة من الهواء، وقد يحتفظ الأبناء ببعض رماد موتاهم في علب صغيرة للذكرى. وفضَّل أقوام آخرون ترك موتاهم على قمم الجبال طعامًا للجوارح، لتسكن أجزاء من أجسادهم في بطونها، وتطير بها حيث تطير. واختلفت درجة اهتمام البشر ببيوتهم البرزخية، واتبعت البيوت البرزخية نهج البيوت الدنيوية في شكلها الاجتماعي، فمنها الفخم ومنها الفقير ومنها المغمور ومنها المشهور، فاشتهرت قبور للعظماء، واندثرت قبور مَن هم أعظم، وغابت قبور مَن هم أكثر عظمة، وصارت قبورهم مقامات روحية في قلوب أحبابهم، تنتقل من قلب إلى قلب حتى صار القلب أشهر بيوت المحبين.

٢

سعد

لم يكن عاطلًا، كان يعمل عملًا عجيبًا وغريبًا ومُلهمًا، يعمل في «المصنفات الفنية»، يُطالع كل يوم مئات الأفكار للأغاني والمسرحيات والمسلسلات والأفلام العجيبة. شبان وشابات وعجائز يقبلون بأوراق عجيبة يريدون أن يرقِّبوها ويدفعوا رسومها، بوجوه يحدوها الأمل في أن تحقق قصصهم وأغانيهم وأشعارهم النجاح السريع والشهرة الجنونية. كان يستلهم أحيانًا شخصياته الوهمية على فيسبوك من تلك الشخصيات الحالمة الوهمية، صادفهم بالفعل في أثناء جلوسه إلى مكتبه الضيق الذي يحتل الكمبيوتر مساحة منه أكثر من التي يحتلها هو ببعض الكُتَّاب المشاهير، لم تكن تبدو عليهم آثار النجومية، كانوا على عجلة من أمرهم ومرتبكين ويبادلونه ابتسامة زائفة، ويشعرون بالضيق الشديد عندما يُطلب منهم أدنى مجهود بسيط للنزول إلى الخزينة في الدور الأول، أو الحصول على إمضاء من المكتب المجاور، لكن ملامحهم كانت تتبدل عند إنهاء تلك الإجراءات وقُرب حصولهم على الخروج بحُرية من تلك المكاتب

الخانقة، يكادون يطيرون بأجنحة من الفرحة، وتظهر ابتساماتهم الصادقة جدًّا مع الشكر قبل الخروج، كأنهم يخرجون من النار إلى الجنة.

كان يقرأ تلك الأفكار ويتعجب بشدة من الأسباب التي تدفع هؤلاء الكُتَّاب إلى كتابة مثل تلك الأشياء غير المنطقية. وعلى الرغم من دراسته في السابق للنقد الأدبي، واقترابه الأكاديمي البسيط من الكتابة وأهلها، فإنه لم ينجح قَطُّ في صياغة أفكاره في إبداع مكتمل. نشر عدة مرات على فترات متباعدة قصصًا قصيرة في بعض الصحف قليلة التوزيع، وجرَّب أن يخالط هؤلاء الكُتَّاب، لكنه أحجم بعد ذلك عن المواصلة. وكتب في مرة مسرحية عن شاب غادر بلدته في الجنوب ليصبح نجمًا في القاهرة، وحينما أتمها وقرأها بصوت عالٍ لنفسه انفجر في البكاء وقطَّعها.

كانت وظيفته البسيطة، ودخله البسيط، والأرض التي يمتلكها في الجنوب إرثًا بعد فَقْد الأهل واحدًا تلو واحد، هي الأشياء التي يستند إليها في استمرار الحياة كما خطط لها، حياة المتاح والحرية البسيطة التي لا تجعل أحدًا قادرًا على التدخل المباشر فيها وإفسادها. جرَّب الزواج القصير، وسرعان ما أدرك أنه خُلق ليعيش بمفرده. قد تتخلل حياته بعضُ العابرات من حين إلى آخر، لكنه في النهاية «الوحيد السعيد» كما يصف نفسه.

في كل صباح يحمل حقيبته ويذهب صامتًا إلى مكتبه المكتظ بالزميلات المحجبات – عدا تلك الـ«وفاء» جعداء الشعر كثيفة الكحل والمكياج – والزملاء الرجال كثيري السخرية من كل شيء،

ومحمد حنفي صانع الشاي وصائد البقشيش من الكُتَّاب المتنمرين المتأففين الكسالى الذين يوفرون سعي أقدامهم بين المكاتب نظير منح حنفي (أشهر شخصيات المكان) بعض الجنيهات. الساعات الصباحية اليومية تمر ثقيلة، ويخففها قدوم شاب بأغنية عجيبة أو مطربة شهيرة أو كاتب نصف مشهور أو مخرج شديد التردد، فيصير وجود أحدهم كافيًا لصنع اليوم لدى جميع موظفي المكتب المتجاورين حد الالتصاق؛ لا يستطيع موظف أن يمر بسهولة بين مكتب وآخر، لذلك كان جمهور المواطنين هو الذي يتحرك بدلًا من الموظفين، فحركة السيدة وفاء – مثلًا – من مكتب إلى آخر لإحضار الكربون أو القلم أو الختم كفيلة بجعل مؤخرتها تنحشر بين المكتبين، فتعلو الابتسامة الخجلى وجه المواطن والضحكة وجه حنفي، فيما هي تنظر إلى المواطن باعتياد مازحة: «ما هو إنتو اللي بتحشرونا الحشرة السودة دي». ويتكرر المشهد اليومي لمؤخرة وفاء ومكتب صاحبنا لأنها دائمًا تضع أقلامها وكربونها وأختامها في المكاتب المجاورة.

٣
الوقت

«الوقتُ يغزل لنا بيوتًا أوهن من بيوت العنكبوت، نسكنها كأننا خالدون».

نظرت إلى الساعة على الحائط، وكررت: «الوقت يمر، الوقت يمر، الوقت يمر». لم يلتفت أحد إلى أنها فتحت الباب وخرجت. كانت تجِدُّ في السير كأنها تعرف هدفها تمامًا. بيت صغير بجوار الحديقة العامة المغلقة، ربما كان بيت أبيها أو بيت جدها، ومع كل خطوة كانت تفقد جزءًا صغيرًا من ذاكرتها، ربما كانت ترفض لا تفقد، ترفض مع كل خطوة جزءًا وهي تردد: «الوقت يمر... متى آخر مرة شاهدتِ البحر؟ متى آخر مرة ركبتِ القطار؟ بل متى آخر مرة عانقتِ رجلًا حتى ارتويتِ؟ متى آخر مرة رأيتِ فيها الشارع يا...».

حاولت أن تكمل الجملة لكنها فشلت، كررت النداء كثيرًا: «يا... يا... يا... يا مَن؟». عصرت ذاكرتها حتى تعرف من تنادي، لكن بلا جدوى، فتشبث عقلها بآخر المرافئ وآخر أطواق الأمل، جملة واحدة بلا معنى: «إنه بجوار حديقة عامة مغلقة».

لم تعد في ذلك المكان حدائق عامة مغلقة، وهذا البيت أُزيل منذ ثلاثين عامًا على الأقل. وبينما هي تسير وقد أبطأ الفقد خطواتها، تحاول أن تصل إلى من يدلها على ذلك البيت الذي يجاور حديقة عامة مغلقة، غير آبهة برنات الهاتف المتواصلة في حقيبتها، فقط تسير كالهاربة، تصطدم بذلك الرجل وتسأله.

ربما استراحت أختها منها، ربما تواصل الاتصال الآن على الهاتف بتكرار لعين، حتى تزيل الحرج أمام نفسها وأمام تلك المرآة التي تحاصرها الآن وتذكِّرها طوال الوقت بمن هي.

فوزية، الطفلة الأكثر ذكاءً ورقة وإحساسًا وأنوثة من فدوى. كانت فوزية دائمًا هي القادرة على جذب القلوب والأعين، في حين ظلت فدوى العاقلة «الكُمَّل» الرزينة. وإذ أحب كل الصِّبية فوزية، نظروا إلى فدوى بتقدير وامتنان، فقط تقدير وامتنان، فيما أسرارهم الكبرى وهمساتهم الضاحكة وقصصهم المثيرة ظلت قريبة من فوزية التي أعطاها الله كل شيء، كما تعتقد فدوى. حتى حين مات زوج فوزية بأزمة قلبية مفاجئة وانشغلت عنها ابنتها، أصرت فدوى على أن تقيم فوزية عندها على فترات، ربما لترى نظرة زوجها إلى أختها، وهي على يقين من أنه مغرم بها غرامًا مجنونًا ينفلت منه كثيرًا في نظراته وتعليقاته. كانت فدوى تستمتع وهي تجمع في بيتها أختها وزوجها، وهي تصرخ في داخلها: «ها هي فوزية يا عزمي، أرملة حزينة شاردة، فقدت بريقها، فلتنظر بلا حرج إلى حلمك الذي تحطم!».

أجهشت فدوى في البكاء وواصلت الاتصال برقم فوزية، لكنها

كانت تحس إحساسًا تحاول طوال الوقت نفيه ودفعه وإنكاره، وهو ذلك الإحساس الخبيث العجيب بالفرحة بغياب فوزية المفاجئ!

لقد رحلت غريبة الأطوار، تركت المكان وفتحت الباب وخرجت. هكذا هو الأمر إذن يا عزمي!

– بعد كل اللي أنا عملته، إيه اللي مش مريحها؟ أنا مش عارفة! ما إنت شايف أنا كنت باعمل إيه وأستحمل إيه! بس برضو قلقانة عليها، يمكن قاصدة ما تردش، بس برضو هافضل أتصل، وما تقولش لبنتها يمكن شوية وراجعة، طول عمرها كده!

٤
عيسى وسوزان

كان يقف منتظرًا على الرصيف، ويحاول أن يجدول مواعيده المتراكمة في رأسه، حين أتاه صوتها متسائلًا، وهو ما زال يفكر في ثقل الحقيبة الملقاة على كتفه:

– من فضلك، أمشي إزاي علشان أوصل بيتي؟ من هنا ولَّا لازم أعدي الشارع للناحية التانية؟

– مش عارف. هو بيت حضرتك فين؟

كان رده تلقائيًّا، ولم يكن معنيًّا بالالتفات الكامل نحوها، لكنه التفت نصف التفاتة، ولم يجد في وجهها الشارد ما يشي بالريبة، ولم تكن هي تحدق إليه أيضًا. كانت سيدة خمسينية عادية، وجهها لا يحمل إلا صدق السؤال، ويدها تحمل حقيبة متوسطة الحجم بلون سماوي هادئ.

– جنب الجنينة الكبيرة المقفولة.

– الجنينة الكبيرة المقفولة فين؟ أنهي منطقة؟

ترتبك، وتشيح بيدها، وتتحرك خطوة مبتعدة في خجل، ثم تعتذر وهي تتشبث بحقيبتها:

– عفوًا، إنها المرة الأولى التي أخرج فيها من البيت، لم أخرج منه منذ أن مات زوجي، سنوات طويلة مرت... سنوات طويلة!

يهز لها رأسه في تفهم، وينقل حزام حقيبته الثقيلة من كتف إلى كتف، وتعبر هي الشارع برعونة من دون أن تنتظر إشارة مرور المشاة، السيارات تطلق لها الكلاكسات المحذرة وهي لا تلتفت. تنجو بأعجوبة، وهو يتابعها حتى تصل إلى الناحية الأخرى وتتجه إلى دكة حجرية تحت مظلة يعلوها إعلان ضخم عن شاليهات في الساحل بأقساط ممتدة، وتجلس مُطرِقة، وتضع حقيبتها على حِجرها، وتحدق إلى الشارع في حيرة. تظل عيناه معلقتين بها، يمر أتوبيس خاص بنقل تلاميذ إحدى المدارس الخاصة حائلًا بينه وبينها، يتذكر في تلك اللحظة أن في آخر الشارع حديقة عامة مغلقة، ينتظر بحذر ملحوظ أن تسمح الإشارة بعبوره، لا يعبر حتى تقف تمامًا كل السيارات، ثم يعبر إليها، تحدق إليه طويلًا كأنها تراه لأول مرة، فيبتسم مطمئِنًا:

– فيه جنينة كبيرة في آخر الشارع.

– من فضلك، أمشي إزاي علشان أوصل بيتي؟ من هنا ولَّا لازم أعدي الشارع للناحية التانية؟

يدرك الأزمة، ويبتسم لها مشجعًا:

– بيتك جنب الجنينة الكبيرة المقفولة؟

تتهلل ملامح وجهها:

– أيوه.

– ممكن أوصلك لهناك، تعالي معايا.

تتردد السيدة قليلًا، ثم تقف وتسير إلى جواره، ويشعر شعورًا

غريبًا بالراحة، إنه يسير إلى جوار سيدة تبحث عن بيتها، كان عليه أن يرد على هاتفه المحمول الذي يواصل الرنين لكنه يغلقه؛ ماذا لو تأجلت تلك المواعيد اليومية قليلًا؟ لن يحدث شيء على الإطلاق! بجوار الحديقة العامة المغلقة، ذهب الحماس عن وجه السيدة، ونظرت إليه في حزن:

– مش هي دي الجنينة.

كلبان في الحديقة العامة يتجاذبان طرفَي زجاجة مياه معدنية بلاستيكية، وكلب ثالث نائم يتابعهما في تعالٍ كأنه يسخر من قلة عقليهما، وكثير من الأكياس المتطايرة، وبعض السرنجات الملقاة من الليالي المتعاقبة على الحديقة العامة المغلقة ليلًا ونهارًا؛ ليس من اللائق أن يتركها هنا ويواصل طريقه، يشعر ببعض الذنب لأنه أشعل بداخلها الأمل بالعودة إلى البيت، حدَّث نفسه، ثم تمتم مُبشرًا:

– فيه جناين تانية.

– أيوه.

ترد وهي شاردة كأنها طفلة خرجت لتوِّها من منزلها، ويبدو شعرها القصير وعيناها الحائرتان في الشمس، وخطوتها المفاجئة كأنها تستعد لعبور الشارع مرة أخرى وسط جنون سياراته المسرعة، فيوقفها بكلمات سريعة علها تساعده أكثر:

– طيب هو إيه اسم الشارع اللي فيه بيتك اللي جنب الجنينة؟ هل فيه مستشفى أو نادي أو قسم شرطة قريب من بيتك؟

تُكرر جملتها:

– البيت جنب الجنينة الكبيرة المقفولة. من فضلك، أمشي إزاي

علشان أوصل بيتي؟ من هنا ولَّا لازم أعدي الشارع للناحية التانية؟

لاحظ أنها تتحدث بإيقاع أبطأ ووجهها يعلوه الشحوب، فهتف كاذبًا ومشجعًا:

– افتكرت! أعرف مكان قريب من بيتك.

ابتسمت في سعادة طفولية:

– أيوه جنب الجنينة الكبيرة المقفولة.

كان المطعم جيدًا ونظيفًا ويقدم تلك الوجبات شبه المنزلية، أجلسها وتلفتت حولها في دهشة:

– هو ده البيت؟

– إحنا قريبين أوي، بس لازم ناكل لقمة علشان نعرف نروح البيت.

لم ترد، وتشبثت بحقيبتها، وظلت تحدق إلى أرضية المطعم. كانت تأكل ببطء ووقار من دون أن تتكلم. حاول أن ينشط ذاكرتها:

– ساعات الزوج يعني يتوفى والولاد يبقوا مشغولين، الدنيا كده.

لم تُحدِث جملته أثرًا يُذكر، وظلت صامتة تتأمل الأطباق، ثم هتفت فجأة:

– هو إنت عندك بيت زيي؟

– أيوه.

– جنب الجنينة الكبيرة المقفولة؟

– لأ.

– تقدر توصفه؟

– أنهي فيهم؟ أنا سكنت في بيوت كتيرة.

– مش كان ليك بيت؟

– كان لي بيت بيطل على النيل.

كانت إلى جواره صامتة، والوقت يمر بهما من شارع إلى شارع، وهي تتابع حكيه بشغف.

– جنب الجنينة الكبيرة المقفولة؟

– مفيش في القرى جناين كبيرة.

هزت رأسها في تفهم.

كان المقهى شبه خالٍ، وكانت تحتضن كوب الشاي بكلتا يديها، وتسأله بنظرتها أن يكمل.

– القرية كلها غالب أهلها من جد واحد، ينتهي نسبهم إلى السيد عيسى القادم من بلاد فاس المغربية، ليستقر به المقام هو وزوجته وأولاده على تلك الأرض المطلة على النيل ويحيط بها الجبل في أنانية. لم يكن سوى نيل وجبل يفصلهما شريط مستوٍ من الأرض التي غطاها الحصى كحصيرة عريضة. وعمَّر السيد عيسى وأولاده المكان، وحلَّ الأخضر مكان الحصى، وأنجب الأولاد والبنات، وأتى الوافدون وأقاموا إلى جواره فرحَّب بهم وصار نسله يصحبهم لقب «السيد».

كان المقهى غير مزدحم، وقد اختار لهما مائدة داخلية، وجلست أمامه وهي تنظر حولها تتفرس في الوجوه وتتطلع في المكان الصاخب، وهمست: «القهاوي دي بلكونات للناس اللي معندهمش بيوت يقعدوا فيها لحد ما يلاقوا بيتهم؟».

هكذا همست وهي تستمع إليه، وعيناها معلقتان برجل وامرأة في

ركن المقهى يتبادلان الابتسام، ثم نظرت إليه، فاجأته جملتها وكان قد أراح حقيبته الثقيلة على كرسي ثالث:

- اسمك عيسى؟

- جدي الكبير، جد جد جدي يعني.

تهز رأسها وتنهي كوب الشاي.

همست له في أدب:

- أنا معايا فلوس.

وأخرجت نقودًا من حقيبتها وناولته إياها في جدية وامتنان:

- الأكل كان جميل.

أخذ النقود وأعادها إليها، وهي أعادتها إلى حقيبتها بشكل تلقائي.

رن هاتفها المحمول فردت في هدوء بكلمات تحولت بالتدريج إلى الضيق:

- مين؟ مين؟ فوزية مين؟ أنا؟ أنا إزاي؟!

أغلقت الخط وألقت بالهاتف في الحقيبة، والتفتت إليه وسألته:

- مين دي علشان تكلمني بصوت عالي كده؟!

- يمكن تكون...

قاطعته:

- هو إنت عندك شباك في بيتكم؟

هز رأسه مبتسمًا:

- كل بيت ليه شباك.

ردت ضاحكة:

- كل البيوت فيها شبابيك، الشبابيك تُصنع...

ودندنت:

ومن الشباك لارميلك حالي

ومن الشباك لارميلك حالي...

كان صوتها جميلًا، عادي لكنه جميل. وهمست:

- كمِّل كمِّل، كلمني عن بيتك.

كانت تلك ثالث حديقة عامة مغلقة يصلان إليها، وبدأ يشعر بالتعب، هل عليه أن يسلمها إلى قسم الشرطة أم يتركها؟ لاحظ أنها مشغولة عنه بالنظر إلى إعلان ضخم لفيلم أجنبي رومانسي تقترب فيه البطلة من البطل وخلفهما يظهر بيت يطل على البحر، أشارت إليه مستفهمة:

- بيتك؟

هز رأسه وقال:

- لأ، بس شبهه.

في قاعة العرض كانت تتابع الفيلم وهي تحتضن علبة الفيشار الضخمة، وعند كل قُبلة بين البطل والبطلة تضع يدها على عينيها في خجل شديد، وكانت القاعة المكيفة لا يوجد فيها إلا هو وهي وقليل من المشاهدين، كان الفيلم عن رجل وامرأة التقيا مصادفة وجمعتهما قصة حب لم تدم، لكنها جعلتهما يفترقان سعيدين.

خارج السينما هتفت:

- حلو بيتك.

- ده بيت البطل في الفيلم مش بيتي.

- لأ بيتك.

كان لطعم البسبوسة بالقشدة في الطبق المعدني لدى «قويدر» مذاق خاص، ضحكت هي لأول مرة بصوت عالٍ حين وقعت قطعة من القشدة على ملابسه، وضحك هو أيضًا من ضحكاتها المتتالية التي علت في المكان، لم يكترث لنظرات الزبائن ولم يشعر بالحرج بل على العكس. وأمسكت بكوب الماء في محاولة لتنظيف قميصه فابتل القميص كله، وشعر بأنه حُر وهو يمشي إلى جوارها بقميص مبتل في شوارع وسط البلد المزدحمة جدًّا، وهو يحاول أن يمنعها من العبور العشوائي من شارع إلى شارع، لكنها كانت مُصرة على العبور بلا التفات، في حين يظل هو عدة لحظات حتى تهدِّئ العربات من سرعتها فيستطيع المرور، لكنها تسبقه وتذوب في الزحام، فيعبر الشارع أخيرًا مسرعًا ويبحث عنها في كل مكان، ويشعر بالقلق من اختفائها المفاجئ، ويقف في يأس ليجدها خلفه تبتسم:

- يا خوَّاف!

هكذا هتفت بسعادة، وصارحها بأنه ما زال يرتبك جدًّا عند عبور الشارع في العاصمة، فترد:

- ما تخافش، هينشف بسرعة ما تخافش، مفيش حاجة تخوف إلا إنك تبعد عن بيتك. هو إحنا قربنا؟

يبتسم مرددًا:

- هنمشي لحد ما نوصل الجنينة الكبيرة المقفولة.

تفتح حقيبتها وتلتقط الهاتف المحمول الذي يومض، وتلقيه في الحقيبة مرة أخرى:

– مش هارد.

في ساحة ميدان التحرير وقف كعادته أمام فرْش بائع الكتب، وراح يحدق كعادته إلى عناوين الكتب والمجلات والجرائد المرصوصة، وهي تتابعه ثم تمد يدها إلى إحدى المجلات وتتفحصها وتظل نظرتها معلقة بصورة لامعة وتشير إليه أن يقترب:

– الفستان ده فستاني.

ينظر إلى الصورة، هي صورة لموديل ترتدي فستانًا أنيقًا طويلًا زاهيًا، يدفع ثمن المجلة ويواصلان المشي.

– هو إنت بيتك برضو جنب جنينة كبيرة مقفولة؟

– لأ، بيتنا على النيل.

همست في سرها: «أنا باحب ريحة الكتب الجديدة والمجلات، المدرسة وكتب المدرسة، نسهر نجلِّدها ونشم ريحتها، جميلة».

تشم المجلة وتضحك، فيقول:

– جميل فستانك.

– مش بيخلوني ألبسه.

– بيتك قريب من هنا؟

تنظر في يأس وتهز رأسها بالنفي وتواصل المشي، ويتبعها في استسلام لا يخلو من سعادة.

كان السكون الذي يحيط بكوبري قصر النيل قد بدده صخب المركب المجاور لقاربهما، وكانت إلى جواره تصفق بشدة، ومر القارب بهما من تحت الكوبري، فشعر بالرهبة، وشعرت هي بالبرد فضمت حقيبتها إلى صدرها.

تركت فرحتها بداخله أثرًا، فالنيل حوله يشعره بالقرب من بيته القديم، يشعر بأنه خارج العاصمة وداخلها في آن واحد، على الرغم من أن الأضواء في الجانبين تختلف عن الأضواء الخافتة في قريته، وتختلف أيضًا عن أضواء القاهرة في سبعينيات القرن الماضي حين أتى إليها للمرة الأولى، لكن النيل هو النيل. يبتعد المركب الصاخب وتخفت الأصوات القادمة منه، وتتوقف عن التصفيق وتنظر إلى الماء شاردةً تبتسم. ترفع عينيها نحوه فجأة:

– الفرحة حلوة، وحلو إن الناس تفرح ويصقفوا ويرقصوا... حلو، الموج بيتهز من رقص البنات هههههه، رقص البنات يرقَّص الدنيا كلها.

تضحك في خجل وتنظر إلى الأرض، وترفع بصرها فتبدو في الضوء المنتشر خلفها جميلة ومرهقة وقد زادها الإرهاق جمالًا، تهرب بعينيها إلى النيل وتسأل:

– ليه سِبت بيتكم؟

– هو اللي سابني. جيت مصر وهما نسيوني.

ترد بدهشة:

– مصر؟! إنت خليجي؟

يضحك بصوت عالٍ مصححًا:

– إحنا الصعايدة بنقول على القاهرة «مصر».

همست:

– أول ما بنموت محدش بيزورنا، محدش بيزور الأموات إلا في الأول بس وبعدين بينسوهم!

رد في حزن:

– وأنا نسيوني!

تهمس وهي تتلفت حولها:

– بس هما بيزورونا في الحلم، بس ما بيتكلموش، بيقعدوا ساكتين. عارف ليه مش بيتكلموا؟

يهز رأسه بالنفي.

ترد بيقين:

– علشان لو اتكلموا مش هنفهمهم، بيتكلموا لغة تانية، لغة هنتعلمها وإحنا بنموت!

تُخرِج من حقيبتها مسبحة، وتبتسم له. كانت مسبحة قصيرة لامعة وضعتها في يده للحظات ثم أخذتها مرة أخرى، وأخذت تتمتم وهي تغمض عينيها:

– يا لطيف يا لطيف يا لطيف. هل يمكن أن تفعل مثلي؟!

يغمض عينيه مثلها ويردد معها:

– يا لطيف يا لطيف يا لطيف.

ثم يفتح عينيه فيجدها أمامه مغمضة العينين، كانت المرة الأولى منذ بداية اليوم التي يدقق فيها في ملامحها، إنها سيدة جميلة بالفعل على الرغم من عاديتها، جمال لا يكشف عن أسراره إلا بالتدقيق. وحين فتحت عينيها فجأة التفت مرتبكًا إلى الجهة الأخرى وقد قرر أن يبقى إلى جوارها أطول وقت ممكن. لاذ بالصمت على أمل أن تتكلم هي أكثر، لكنها أعادت المسبحة إلى حقيبتها وسكتت، وشعر هو بشوق عظيم لسماع صوتها مرة أخرى، شوق غير معتاد

وغير متناسب مع قرب المسافة بينهما، أراد أن يهتف بها «تكلمي»، ابتعدت بجسدها خطوة عنه، وتسلت بالنظر إلى الميدان وهي تردد:

– تُهنا؟ تُهنا؟

– لسه ما تُهناش، ولسه فيه جناين كبيرة مقفولة كتير.

– أنا تعبت وعايزة أنام.

قالتها بطفولية شديدة وصدق، واحتضنت حقيبتها وأغمضت عينيها استعدادًا للنوم، وأحس لحظتها بحنين جارف تجاه تلك السيدة التي التقاها مصادفة في أول اليوم.

– أنا افتكرت مكان بيتك، ده قريب جدًّا.

هكذا هتف كاذبًا ليوقظها، وهكذا رافقته على أمل الوصول. في التاكسي الصامت كانت قد نامت بالفعل فيما يحدق هو إلى الشباك الذي تجري خلفه الأماكن بسرعة تجعل ذاكرته تئن، حتى السائق بدا – على غير عادة السائقين – صامتًا حزينًا كأنه فهم أنه لا حاجة إلى الكلام في هذا المشهد.

ابتسم لها، وقال بعد شرود:

– كل ما المدة تطول في الغربة كل ما المسافة بيني وبين بيتنا تبعد أوي، أول ما جيت هنا كان كل ما الأيام تعدي كل ما بيتنا في البلد يكبر في خيالي وأُوَضه توسع وسلالمه تبقى أطول. زمان جيت مع أبويا وأمي وإخواتي هنا وعشنا كذا سنة، كنت عيل عنده ست سنين، ودخلت ابتدائي هنا، وكل ما أفتكر بيتنا أفتكره واسع أوي، وأول ما رجعنا بعد خمس سنين اتصدمت، لقيته أصغر وأضيق بكتير من اللي في خيالي، الخيال والشوق بيغيروا كل حاجة.

دندنت لأم كلثوم:

خيال وشوق بيزيد ويَّايا

كل شيء حواليَّ بيفكرني بيك

كل نور في عينيَّ فيه ضحكة عينيك

آدي ابتسامتك يا حبيبي وإنت غايب على الشموع

وآدي الشموع اللي ابتسامتك نورت فوقها الدموع

ثم هتفت فجأة:

– عيسى! هو أنا مين؟

التفت إليها متسائلًا:

– مين عيسى؟

فأجابت:

– إنت عيسى. أنا مين؟

أجابها بلا تردد:

– إنتِ سوزان.

هكذا ارتجل اسمها بسرعة وبلا تفكير، وهزت هي رأسها موافقة سعيدة:

– سوزان؟ مين سوزان؟

أجابها مبتسمًا:

– سوزان ست جميلة.

أعجبها المديح والغزل، وازدادت سعادتها حتى امتلأ وجهها بالحُمرة الخجول، وسألت:

- هو إنت شايفني جميلة؟

أجابها:

- جميلة جدًّا.

فردت في شرود:

- وسني أد إيه؟

أراد أن يسعدها أكثر فقال:

- ما بين التلاتين والخمسة وتلاتين.

هزت رأسها:

- تلاتين بس. أظن.

فرد مؤكدًا:

- مظبوط.

ضحكت وهي تتأمل شقته القاتمة:

- وأنا باعمل إيه هنا؟

أشار إلى تفاصيل شقته بيده بشكل عشوائي كأنه يفتقد الإجابة الصحيحة:

- ده بيتك.

نظرت إلى تفاصيل المكان وهي تمسك بمسند الكنبة البُنية:

- بيتي؟

أجابها:

- أيوه.

ردت:

– وفيه جنبنا جنينة كبيرة مقفولة؟

أخذها من يدها نحو الشباك المفتوح، وأشار لها نحو حديقة عامة مغلقة:

– أيوه. أهي.

نظرت إلى الحديقة البعيدة هامسة:

– سوزان؟ وعندي أولاد وبنات؟

أجابها وهو ينظر إلى جوارها من الشباك:

– زي ما إنتِ عايزة.

التفتت إليه مدهوشة:

– زي ما أنا عايزة؟!

رد بيقين غريب وهو يعود للجلوس:

– فيه حياة عدت ملكيش يد فيها، وفيه حياة جاية اعمليها على مزاجك، زي ما إنتِ عايزة يا سوزان.

صمتت في تردد وخوف، وعادت إلى الكنبة كأنها طفل أضاع أهله للتوِّ، وسألت:

– وفاضلي أد إيه؟

أجابها في تفاؤل بصوت عالٍ كأنه يقاوم فكرة بداخله:

– كتير!

وقفت فجأة، وتحركت إلى وسط الصالة، ثم هتفت:

– عايزة أغسل المواعين.

ألجمته المفاجأة ولم يرد، ولكنها كررت في إصرار:

– عايزة أغسل المواعين.

شدا صوتها عاليًا في مطبخه وهي تغسل المواعين بهمة شديدة:

أنا وحبيبي في جنينة

والورد خيم علينا

سطا صوتها على الشقة فابتسم واقترب من باب المطبخ يتأملها.

– أنا وحبيبي في المطبخ.

نظرت إليه متسائلة بجدية:

– مين أكل في الأطباق دي؟

أجابها في طفولية:

– أنا.

هزت رأسها وهي تنظر إلى الأطباق ويدها تقطر ماءً:

– بتاكل كتير يا عيسى.

كانت تجفف الأطباق بعناية شديدة وتعيدها إلى أماكنها، وحينما أنهت مهمتها نظرت إليه وقالت:

– سبعين جنيه.

لم يفهم ماذا تقصد، وظل ينظر إليها بلا رد، فكررت في إصرار:

– أنا غسلت الأطباق وعايزة سبعين جنيه، دي أول حاجة أعملها في حياتي الجديدة.

ارتبك كثيرًا ثم اتجه إلى الصالة وأخرج من بنطلونه سبعين جنيهًا ودخل المطبخ ومد يده إليها بالنقود، فقالت له:

– إيدي مبلولة. حُطهم على الرخامة.

امتثل للأمر، ونظرت هي إلى ملابسها المبتلة وحدثت نفسها: «عايزة أستحمى».

رن هاتفها المحمول فالتفتت إلى عيسى آمرة:

– هاتلي موبايلي.

أحضره من حقيبتها، ونظرت إلى شاشته المضيئة وجرسه المتواصل، وسألته:

– مين فوزية؟

رد:

– ما أعرفش.

ابتسمت وهي تضع الهاتف إلى جوارها:

– متطفلة بالتأكيد. عايزة رقم جديد يا عيسى.

أجابها:

– حاضر.

أمسكت بالنقود الموجودة على الرخامة وناولته إياها:

– رقم جديد لسوزان، وموبايل جديد برضو، موبايل جميل ولونه بنفسجي، سوزان بتحب اللون البنفسجي.

كانت ستارة شباك المطبخ بنفسجية اللون وعيناها تنظران إليها في شرود، تركته وخرجت والنقود في يده وصوتها يصل إليه فرِحًا:

– هاخد حمَّامي، ولما أخرج تكون جبتلي الموبايل الجديد البنفسجي.

في الشارع كان يتحرك وقد اختلطت بداخله الأفكار، فيما كانت هي في جلبابه الأبيض تنام في سريره، وقد ربطت شعرها بفانلة بيضاء من فانلاته، وغطت نفسها ببطانيته الزرقاء، وراحت في سُبات عميق، وعلا صوت شخيرها. وعلى باب غرفته المفتوح كانت هناك ورقة معلقة مكتوبًا فيها:

«عيسى، رُحت فين وسبتني؟
حاول لما ترجع ابقى قولي أنا مين، وليه سبتني لوحدي!».

تجنَّبا أن يتبادلا الأسئلة المقلقة والحرجة، تجنَّبا مثلًا السؤال عن ماذا بعد، وتجنَّبا أيضًا كل سؤال يجعلهما يفقدان تلك اللحظة التي جمعتهما وامتدت الآن إلى يومين متتاليين. على الأقل تجنب عيسى ذلك بوعي تام، أما سوزان فعلى الأرجح كانت تبدأ في كل مرة من جديد، صحيح أنها لم تسأله عن بيتها وعن الحديقة العامة المغلقة، لكنها فقط تأكدت من أنه عيسى، من أن ذلك المكان هو بيته، ومن أنها تريد نوعًا معينًا من القهوة، وحينما وضع لها الرقم الجديد في الهاتف ونظر إليها من دون أن يسأل، ردت بسرعة عجيبة:

– موبايل بلا أسماء هو أجمل شيء في الوجود. كلمني يا عيسى عن بيتك اللي جنب النيل.

فارتشف من فنجان القهوة الذي أعدته له سوزان وقال:

– اعلمي يا سوزان أن لكل بيت بابًا.

– وإيه باب بيتك يا عيسى؟

– باب بيتي المحبة.

– وإيه دخل المحبة في الأبواب؟!

– ما يدخلش القلب إلا اللي يحبه القلب يا سوزان، واللي حبه بيبقى دخل قلبك ومن غير استئذان، وعاش لحد ما بقى هو الباب.

قالت ضاحكة بطفولية:

- يبقى إنت حبيبي!

ساد الصمت، وارتبك عيسى وشعر بخجل مفاجئ، وهي تتطلع إليه بوضوح وقوة وبساطة وتقول في تسامح شخَّصته نظرة بعينين مفتوحتين:

- اوصفلي باب بيتك يا عيسى.

هرب منها وانهمك في ملء براد الشاي بالماء، ورنت الملعقة في الكوبين بالتتابع مع ضحكات سوزان من طريقة عيسى في تقليب الشاي وصبه:

- مزعج! إنت مزعج!

يبتسم.

- احكي. إنت لما بتحكي مش بتبقى مزعج، إنت ما بتعرفش تعمل حاجة غير إنك تحكي.

- بُصي يا ستي، أنا أكتر واحد كان بيقف ينتظر ورا الباب، أقف ورا الباب أنتظر وقت طويل، ممكن أفضل ساعة ورا الباب مستني وعيني جوه العين السحرية لحد ما ييجي اللي أنا مستنيه، وأنا باتخيل أمي وهي مستنياني دايمًا ورا الباب هناك في الصعيد. يدخل الشقة اللي أنا مستنيه أو مستنيها بعد طول انتظار، ويبدأ الجزء الأصعب في الحكاية، أفضل مشغول ومستني إمتى هيمشي علشان أقفل الباب وراه وأرتاح وأرجع وحيد خفيف زي ما كنت بعد ما قعدت يوم كامل أستناه أو أستناها. ياه! الانتظار الانتظار الانتظار هو فخ العمر يا سوزان! دايمًا فيه مواعيد، ودايمًا ننتظرها، لحد ما ينتهي العمر وما تنتهيش

المواعيد ولا ينتهي الانتظار! نستنى الحبيبة ومواعيد اللقاء، ونستنى الشغل، ونستنى الجواز، ونستنى الحمل ومواعيد الخلفة، ونستنى مواعيد مباريات الكورة للفريق اللي بنحبه، ونستنى الأعياد، ونستنى الدور في الطابور، ونستنى... والكل يكسب من ورا انتظارنا: شركات الإعلان، والحكومة، وصاحب الشركة، وأصحاب المنتجات المعروضة في الفتارين... الكل بيكسب وإحنا نستنى، والكل في الانتظار زي بعض سواء، اللي بينتظر في طابور طويل لحد ما تفتح محلات آبل علشان يجيب الموبايل الجديد، واللي بينتظر في طابور طويل من اللاجئين علشان يرموله كراتين المعونة، مع اللي مستني في طابور تالت قدام الاستاد علشان يلاقي تذكرة تدخَّله... الكل بينتظر، الإنسان مخلوق منتظِر!

يخيم الصمت عليهما، وتسأل سوزان كأنها حذفت بشكل مونتاجي من كلامه واختصرت غالبه وعادت إلى نقطة ثابتة تعنيها:

– كنت بتستنى مين ورا الباب؟ لازم ست! مش هتقف ورا الباب إلا علشان خاطر ست! صح؟ قلقك ورا الباب كشفك، تستناهم ورا الباب وتفرح لما يمشوا! ستات، صح؟ حقارة!

يضحك:

– إيه اللي إنتِ بتقوليه ده؟! أنا باكلمك عن فكرة الانتظار بشكل عام!

– وأنا باقولك إنك بتستنى ستات. طريقتك بتقول كده، ما تلفِّش وبلاش فذلكة وفلسفة، بلا انتظار بلا عبط!

– أيوه، هي دي الحقيقة، دي علاقتي بالباب والانتظار، كانت دايمًا في أصلها وراها ست، دايمًا كان فيه باب وأنا وراه مستني، وست أتمنى إنها تيجي وأفرح لما تمشي.

– مجنون يا حبيبي مجنون! كنت فاكراك مزعج بس، لكن اتضح إنك مجنون. وتطلع مين الغندورة؟

– غنادير يا سوزان، غنادير!

– مسكين الباب.

– أنا اللي مسكين! هي تيجي وتمشي وأفضل أنا برضو زي ما أنا منتظر!

– علشان يا حبيبي بتختار غلط، لازم تفضل منتظر.

– إنتِ اللي قلتِ احكيلي عن الباب.

– أنا هانام، مش عايزة حكايات، خليك مستني الغندورة. تصبح على خير!

كانت غاضبة جدًّا على الرغم من أن وجهها لم يحمل أمارات الغضب المعتادة، لكن أكدت ذلك حركة وقوفها، وحِدة خطواتها إلى الداخل، وإغلاقها باب الغرفة، ونظرتها المرتبكة قبل أن يغلق الباب تمامًا، وكلمتها المتعجلة قبل أن يخفي الباب وجهها:

– أنا لازم أقفل الباب. ما تقفش وراه من فضلك!

غابت، وظل يحدق إلى الباب المغلق وينتظر.

لم ينم، ظل ينظر من الشباك إلى الشارع ويعد السيارات في هدوء، وظلت هي مستيقظة في سريرها لا تجد النوم إلا تخاطيف، ثم تفيق إثر حلم متقطع، حلم تتلصَّص فيه على عيسى وهو ينتظر

إحداهن، تتلصص عليه من مكان خفي لا يراه، كأنها تختبئ خلفه وتنتظر، والفضول ينسيها الحذر، فحين يفتح الباب تهتف بقوة: «الآن سأراها»، فيلتفت نحوها في رعب وقد أدرك أنها خلفه، فتستيقظ هي بسرعة قبل أن يمسك بها. تكرر الحلم وعلا صوتها في آخر حلم: «الله يخرب بيتك يا عيسى!».

وظل عيسى على شروده يعد السيارات ويتابع الشارع اليقظ وهو يحاول أن يهرب من ذاكرته التي امتلأت بالأبواب الموصدة. وصل صوت الفرامل الزاعق إلى أذنيه، والتقطت عيناه بعدها بثوانٍ فتاة تقع أمام سيارة نصف نقل والجميع يلتف حولها، كانت ممددة لا تتحرك، وهو أيضًا لم يتحرك، ظل يحدق إلى الشارع والدائرة التي تكاثفت حول الفتاة حتى نجحوا في أن يوقفوها على قدميها. شعر بالبرودة فأغلق الشباك وعاد إلى الكنبة، وأتته تلك المرة الجملة من الداخل أكثر وضوحًا: «الله يخرب بيتك يا عيسى!».

جلس مبتسمًا، وقد أدرك أنها تحلم بحلم ظهر لها فيه وضايقها، وتذكر جملة أمه الشهيرة حين كانت تعلق على حياته بشكل عام: «يا ولدي، بيت المهمل يخرب قبل بيت الظالم». مدد جسده على الكنبة، وألقى نظرة على حقيبته التي لم يصنع بها شيئًا، وعلى هاتفه الذي تخلى عن متابعته على غير عادته، وأغلق عينيه وراح في النوم. لم يلحظ بالتأكيد خروج سوزان المفاجئ من الغرفة وجلوسها أمامه على الكنبة المجاورة ومراقبتها له، وتساؤلها المكرر: «مين الراجل ده اللي نايم قدامي بيشخَّر عادي كده كأنه بيت أبوه؟!».

هل خرب الله بيت عيسى حقًّا؟

منذ غادر عيسى بيته قبل سبعة وعشرين عامًا وأتى به مكتب التنسيق إلى الجامعة في القاهرة، وهو يقاوم حنين العودة إلى البيت، فشل في أن يصنع بيتًا مستقرًّا في العاصمة، فهذا أكبر من طاقته، ظل دائمًا يحاول أن يحقق ما يريد، لكنه على الحقيقة لم يحقق شيئًا، ربما هي رواية وحيدة قال له البعض إنها عادية وقال البعض الآخر إنها جيدة لكنها تفتقد شيئًا.

لماذا تُحدِث بداخله كلمات سوزان هذا الوقع الغريب؟ وكيف استطاعت أن تعيده إلى بيته الذي حاول كثيرًا أن ينساه؟ ظل ينتظر سنوات طويلة أن يمر به والده ويسأله عن أحواله، اشتاق لأن يُلقي بنفسه في حضن والده وقتًا كافيًا لإزالة الوحشة التي تأكل قلبه، انتظر النجاح طويلًا، انتظر أن يحقق نجاحًا في أي شيء ليحمل ذلك النجاح ويعود به إلى أبيه في الجنوب، لكن صوت أمه الباكي سبق كل شيء وأتاه ناعيًا الأب الذي مات، سألها:

– جاب سيرتي؟ قال أي حاجة؟ ده أنا كنت...

صمت، وجاء صوت الأم كأنه الحزن الخالص:

– يا ريتك جيت وشُفته!

مات ليلتها جزء كبير منه، ومات الجزء الثاني يوم ماتت ابنة العمدة الجميلة كوثر؛ أمه التي لم تعرف الغضب، رآها وهي سعيدة، وهي حزينة، وهي حيرى، وهي ساخرة، لكنها قَطُّ لم تكن تغضب، «حتى لو أغضبتها أنا أو أبي أو أحد إخوتي كانت لا تغضب، تنظر فقط بطفولية وصمت تمامًا كما أراها الآن على سريرها ميتة في صمت وطفولية. كانت ساعات ثقيلة، لا أصدق ما تراه عيناي، بكاء وسواد

وغسل وتكفين وجنازة وقبر وعزاء، ووحدي على سريرها الخالي وإلى جواري ملابسها، آخر ملابس ارتدتها قبل موتها، احتضنتها ورحت أشم ضحكاتها ودموعها وحنانها وغيابها. في الصباح كنت غريبًا جدًّا، لم يعد شيء يخصني في هذا البيت، فقط إخوة يعاملونني بأدب معاملة رسمية، كأنني ضيف يجب أن يحترم أصول الضيافة ويغادر سريعًا، وصلت الرسالة وغادرتهم شاكرًا ممتنًّا، وعدت إلى شقتي في القاهرة، وجلست خلف الباب أنتظر أمي وأبي».

* * *

كان لا بد لفدوى أن تتحرك؛ غابت فوزية ومرت ليالٍ ولم تعد، وبدأت رحلة البحث عنها في المستشفيات والمراكز، لم تتحرك فدوى إلا بعد أن لمحت الدموع في عينَي عزمي زوجها حزنًا على فراق فوزية، تظاهر بالتماسك في البداية ولكنها ضبطته بمفرده في غرفتهما يبكي وينهنه كالأطفال، كانت لحظة قاتلة لفدوى بدأت بعدها رحلة البحث عن أختها لعلها تصل إلى خبر صادم تزفه لعزمي باكية وتستمتع بحزنه الأبدي على فوزية، حزن يقهر جسده وروحه ويجعلها تكمل حياتها شامتة سعيدة.

* * *

الدفء انتقل من كوب الشاي الساخن إلى قلبه، فانعكس على نظرته إلى سوزان بجواره في بلكونته المطلة على الشارع، كانت تضع كوفية صوفية من كوفياته على كتفيها وتحتها ترتدي جلبابه، وتنظر إليه بمزاج رائق وشعر ملموم، وامتلأت البلكونة بالدفء.

قالت:

– هو إنت بتشتغل إيه يا عيسى؟

رد:

– أنا شغال في الرقابة موظف، بيتعرض علينا كل يوم أغاني ومسرحيات ومسلسلات وأفلام ونكتب عنها تقرير.

قالت ببراءة:

– حلوة؟

رد ضاحكًا:

– هي مين؟

قالت:

– الأغاني والمسرحيات والأفلام اللي بتتعرض عليكم.

هز رأسه:

– فيها وفيها، معظمهم بايخين وساعات تيجي حاجات حلوة.

سألت:

– وبتعرف إزاي إذا كانت حلوة ولَّا وحشة؟

فكر قليلًا ثم أجاب:

– بيبان. فيه معايير محطوطة، وفيه كمان الذوق الشخصي، وفوق ده كله أنا كمان باكتب.

زاد حماسها وارتشفت رشفة من الشاي وقالت:

– بجد؟ بتكتب إيه؟

أجاب:

– قصص وروايات، بس مع نفسي.

ضحكت ضحكة عالية رائقة وقالت:

- فنان يا عيسى، إنت فنان! إزاي بقيت فنان؟

شرد في جمال نطقها للكلمات، كانت لها رنة، وإيقاع خاص به نبرة صادقة واندفاع، تصنع موسيقى خاصة بها، وقال متذكرًا:

- البداية كانت في المدرسة الثانوية، والأستاذ محمود غزالة كان راجل عجيب بيعشق الشعر والقصص، يقرأ القصيدة بصوت عالي منغَّم، يقرأها بإحساسه وبحركة إيديه وكل حاجة، كأنه ماسك القصيدة وشايفها وشاممها، رجله بتخبط في الأرض علشان يظبط بيها الوزن والإيقاع، مغمَّض وهيمان وطاير كأنه بيملك الدنيا واللي فيها. كنا بنحكيله كل حاجة حتى قصص الحب الفاشلة، وكان يقول: «اكتب لحبيبتك رسالة، الحب ما يحبش الأخرس، يحب اللي بيتكلم»، وكان ساعات يكتبلنا هو الرسايل علشان نبعتها لحبايبنا في مدرسة ثانوي بنات، ورسالة من الرسايل دي وقعت في إيد والد بنت من البنات، الراجل اتجنن، جه المدرسة وزعق، واضطر الولد إنه يكشف السر ويقول إن اللي كتب الرسالة الأستاذ محمود غزالة، وللأسف الأستاذ محمود اتنقل ومشي من المدرسة بطريقة مُهينة، وكل المدرسة عيطت عليه وخرجوا كلهم يودعوه ما عدا أنا!

سألت سوزان وهي تمسح دموعها:

- ليه؟

رد في حزن:

- أنا الطالب اللي قال لوالد البنت والناظر إن الأستاذ محمود غزالة هو اللي كتب الرسالة!

ربتت سوزان على كتف عيسى في حنان وسألته:

– هي سوزان عملت حاجات وحشة قبل كده؟

رد مبتسمًا:

– سوزان لسه صغيرة، عمرها كام ليلة بس، ما لحقِتش تعمل حاجة.

همست:

– اقرالي القصص اللي بتكتبها، مش إنت فنان؟

هرب من طلبها، فاتجهت إلى مكتبته الكبيرة، وفتحت أحد الأبواب الزجاجية ونظرت إلى الكتب في دهشة، ورأت كتابًا صغيرًا فقالت:

– مين سعد بهاء؟

ارتبك كثيرًا، كانت الإجابة ستزيد الأمر تعقيدًا؛ لقد صارت على يقين من أنه «عيسى» ولن يستطيع أن يُفهمها أنه «سعد بهاء سعد إسماعيل حماد عيسى»، فأخذ منها الكتاب ببساطة وقال:

– كاتب اسمه كده.

سحبت منه الكتاب مرة أخرى وقرأت بصوت عالٍ:

موت العالم

المعروفة شعبيًّا بـ«مذكرات محمود غزالة»

قال عيسى:

– إشمعنى دي؟

ردت بطفولية:

– عاجباني! اقراهالي.

ابتسم شاردًا وقال:

- حاضر.

سألته:

- هو أنا سمعت عن محمود غزالة ده؟

هز رأسه بالنفي.

أمسك عيسى بالرواية، وفتحها وبدأ في القراءة، وسوزان تتابعه وهي تُحكِم لف كوفيته حول رقبتها:

«كان كل شيء كأنه طبيعي تمامًا، الناس تتكلم وتتحرك وتشرب وتفعل ما اعتادت فعله، ولكن أمرًا ما، أمرًا غير ملحوظ بسهولة، شاء القدر أن يدركه ويكتشفه محمود نافع غزالة في صبيحة ذلك اليوم من نهاية السنوات العشرين الأولى من القرن الحادي والعشرين...

لقد مات الإنسان، وبما أن الإنسان هو معنى هذا العالم، فإن العالم نفسه قد مات...

همس: ليس الأمر كما تظن... لا تغضب ولا تُفاجَأ؛ لا ذنب لهم في شيء، فهم فقط ليسوا أحياء ولكن لا يشعرون...

لقد قامت القيامة، وأُخذت أرواح الناس من دون أن يشعروا. أجل، الآن وجد محمود تفسيرًا لكل شيء من حوله: لماذا يحملق إليه جاره دقائق طويلة بلا معنى، ولماذا قطع أحدهم رأس رجل آخر وسار بالرأس مسافات طويلة...

في البداية أتى الموضوع لمحمود في صورة أحلام متتابعة يرى فيها الناس أجسادًا تهذي بلا روح...».

همست:

– هو إنت صالحت المدرس؟

رد:

– تقريبًا، كأني طفل صغير، كأنه بيقولي «أرجوك خليك حي! قاوِم وكمِّل!».

همست:

– كمِّل.

أكمل عيسى قراءة روايته عن غزالة للسيدة سوزان التي بدأت معه حياتها الجديدة قبل عدة ليالٍ.

ثلاث ساعات متواصلة وعيسى يقرأ بحماس وسوزان تسمع في شرود، وحينما أتم عيسى رواية «موت العالم – المعروفة شعبيًّا بـ«مذكرات محمود غزالة»» ابتسمت له سوزان في رضا، وقالت:

– وأنا... عايشة ولَّا ميتة؟

ابتسم لها عيسى وقال:

– إنتِ لسه مولودة جديد.

قامت في دلال وذهبت إلى غرفتها وتركت بابها مفتوحًا، ونامت في سعادة في جلبابه الأبيض وهو يتابعها كأنه امتلك العالم.

الفصل الثالث

البعث

١
عودة

«بين الحياة والموت برزخ لا يلتقي عنده إلا أولئك
الذين التقت أرواحهم من قديم».

تواصلت جهود بحث الشرطة عن السيدة فوزية منذ أبلغتهم أختها فدوى بغيابها، وبعد تتبع جهازها المحمول ذهبت سيارة الشرطة إلى شقة السيد سعد بهاء سعد إسماعيل، ولكن باب الشقة كان مغلقًا ولم يكن أحد بالداخل.

صحب سعد – الذي هو عيسى – السيدة فوزية – التي هي سوزان – في جولة خارج الشقة بناءً على طلبها، وانتقل بها من شارع إلى شارع إلى المقهى إلى السينما، ثم هتفت فوزية:

– مين غزالة يا عيسى؟

أجابها مبتسمًا:

– أستاذي في المدرسة الثانوية.

ردت بتلقائية:

– ما تيجي نزوره!

همس في شرود:

- الله أعلم إن كان عايش ولَّا ميت.

أجابته في حماس طفولي:

- نزوره وخلاص!

عصر سعد ذاكرته، واستطاع أن يتذكر شارع الأستاذ غزالة، وكان الخبر السعيد أنه ما زال حيًّا وحيدًا في شقته في الدور الثالث في إحدى العمارات القديمة في ذلك الشارع.

فتح غزالة باب شقته بعد أن طرقه سعد مترددًا. كانت ملامحه لطيفة وعيناه مشعتين على الرغم من كبر سنه، ابتسم لسعد وفوزية مرددًا:

- أهلًا وسهلًا.

نظر إليه سعد بمحبة صادقة وقال:

- سعد يا أستاذ غزالة، تلميذك في المدرسة الثانوية زمان، فاكرني؟

أفسح لهما الأستاذ غزالة الطريق مبتسمًا وهو يدعوهما للدخول:

- اتفضلوا، أخيرًا حد سأل عليَّ!

بيد مرتعشة قدم إليهما الشاي على صينية وهو يتفرس وجهيهما ويقول:

- وإنتِ حبيبته اللي أنا كتبتلها الجواب؟

شعر سعد بالخجل وقد أدرك أن الأستاذ غزالة تذكَّره، ونظر إليه معتذرًا:

- أنا جاي أعتذرلك يا أستاذ محمود. حقك عليَّ!

تحركت عينا غزالة في حب واضطراب، وقدَّم إليه سعد السيدة فوزية قائلًا:

– مدام سوزان، صديقة.

هتفت فوزية فجأة:

– هو إنت خرجت من السجن إمتى؟

فشلت نكزة سعد لفوزية في تدارك الأمر، وسأل محمود غزالة في دهشة:

– سجن إيه؟

أكملت فوزية بطفولية:

– مش إنت قتلت جارك وأخدت تأبيدة؟

رد غزالة مستنكرًا:

– أنا؟ أنا طلعت معاش ومراتي ماتت وبنتي اتجوزت وعمري ما قتلت حد!

ردت فوزية بإصرار:

– طيب هو إحنا عايشين زيك ولَّا أموات زي ما إنت بتقول؟

سأل غزالة في ضيق:

– أموات يعني إيه؟ هو فيه إيه؟!

حاول سعد أن يشرح الأمر لكنه تراجع واكتفى بتقبيل جبين الأستاذ غزالة قائلًا:

– أنا بس حبيت أعدِّي عليك وأعتذرلك.

رد غزالة في حنان وذكاء وهو ينظر إلى فوزية:

– وأنا مسامحك ومن زمان. ها؟ جايلي أكتبلك جواب حب لمين؟

في الشارع كان سعد يضحك بصوت عالٍ وفوزية تنظر إليه في دهشة واستغراب، وحينما توقف عن الضحك وضعت فوزية يدها في ذراعه وهمست:

- يلَّا بينا.

سألها مبتسمًا وقد زاد بها التصاقًا:

- على فين؟

ردت في شرود:

- بيت عيسى اللي على النيل.

كان القطار ينهب الطريق في شوق إلى الصعيد، فيما فوزية مستغرقة في النوم وقد وضعت رأسها على صدر سعد، وسعد ينظر من شباك القطار إلى العالم الذي يجري بسرعة، ويده تداعب شعر فوزية وهو يهمس في رقة: «عيسى بيحبك يا سوزان».

كل شيء خارج القطار كان مظلمًا عدا ومضات سريعة تظهر وتختفي، ومضات جعلت سعد يغمض عينيه وينام في سكينة، وراح يستقبل في الحلم بترحاب كل الأحباب الذين ماتوا وقد امتلأت ملامحهم بالحياة.

٢
دولاب الهم

وضعت فوزية يدها على خده وهمست قبل أن تغمض عينيها وتدس رأسها في حضنه:

– احكيلي حاجة تريح القلب.

أخفى مسافر آخر يجلس على مقعد مجاور وجهه بالجريدة، ونفخ نفخة صغيرة وهو يشعر بضيق من جرأة سيدة تضع رأسها في حضن زوجها بلا حياء، وقال في نفسه: «أكيد مش صعيدية».

بينما حاول سعد – الذي هو عيسى – أن يتذكر شيئًا مريحًا للقلب يحكيه لفوزية – التي هي سوزان – وشرد كثيرًا قبل أن ينطق، ومسح عينيه المبتلتين وقال:

– كانوا هنا منذ لحظة. كانوا يضحكون بصوت عالٍ، ويضربون كفًّا بكف، فتهتز تحت أقدامهم الأراضي السبع. كانوا يغضبون أيضًا ويحزنون ويقولون أحيانًا ألفاظًا مؤلمة وكلمات نابية، لكنهم كانوا يقومون مبتسمين بقلب سليم، ويصافحون بأيدٍ صادقة لا تحمل ضغينة، وينظرون في سلام ويغادرون. كانوا

هنا منذ لحظات قليلة يملأون الحياة حياة، ثم تركوا أرواحهم معلقة في دولاب الهَم، ذلك الدولاب الذي صنعته الأيام داخلنا من خشب الفراق، وكلما علقنا على شماعته روحًا جديدة كنا نحبها، ثقلت أجسادنا، واقترب الموعد الذي نسلم فيه روحنا إلى دولاب حبيب من الأحباب ليعلقها وينظر شاردًا هامسًا إلى دولابه: «كانوا هنا منذ لحظة».

فتحت عينيها في إصرار طفولي، وقالت وهي تنغزه بإصبعها في صدره:

- قُلت احكي!

ابتسم لها ابتسامة واسعة في سعادة لنجاح عقله في التقاط الخيط.

٣
تجار الأمل وسارق الجاموسة

كنت أنا وخَلَف ورمضان لا نفترق، كان الجُرن هو ملاذنا الآمن، تحته نحكي الأسرار ونغني بأصواتنا غير الشجية، ونرتشف الشاي بصوت عالٍ ونستلقي ناظرين إلى السماء حالمين.

قال خلف:

– البؤس يسيطر.

ومسح الرقيق رمضان دموعه وقال:

– لا قلوب رحيمة!

هربت بنظرتي إلى السماء الصافية وأنا أراقب النجوم البعيدة وأُبعد بلساني تِبنة دخلت فمي:

– يا ريتني معايا فلوس كتيرة، كنت غَنِيت الفقرا!

قال رمضان وهو ما زال يغالب دموعه:

– مِرسالة جاموستها تعبت، وشُفتها بعيني وهي عَتهيل التراب فوق راسها زي اللي عيلها الوحيد مات! وبَردَويلي اتسرقت حمارته وبقى يمشي على رجليه بالخُضار مسافات طويلة من

بلد لبلد، وشُفته إمبارح عَيكُر رجله كر ويِدعي بقلب محروق على اللي سرق الحمارة!

كنا في سن البلوغ والجنون حينما قررنا – وفق قلوبنا وثقافتنا المتاحة وقريتنا الفقيرة – أن نكون فريقًا قادرًا على زرع الأمل في القلوب، بدأنا بزيارة الفقيرات العجائز الوحيدات ونحن نحمل أشياء بسيطة (قطع خبز لطيور السيدة الفقيرة، أو حزمة برسيم لعنزة نحيلة)، ونبتسم في وجوههن ونحدثهن عن الأمل، ثم ننصرف.

ذاع صيتنا، وبدأت القرية تتحدث عن الصِّبية الثلاثة البالغين الذين يذهبون إلى الأرامل والعجائز من النساء في أوقات غريبة، وكثرت القصص والأقاويل، حتى كانت الليلة الموعودة التي كسر فيها والد خلف مُلة السرير على ظهره صارخًا:

– عَترُوح للحريم الوحدانية بيتها ليه يا حايح يا ابن المركوب؟!

وأمسكت أم رمضان برقبته وغطَّسته في مسقى البط حتى كاد يختنق وهي تردد في ضيق وغيظ:

– كِبرت وكبر خيرك يا مَكفِي زي أبوك!

كانت ليلة سوداء، ظللت طوالها أترقب عقاب أبي عند عودته. أغلق باب غرفة الجلوس – «الأنتريه» بالمعنى المعاصر – علينا، وقال بصوت خافت:

– عارف إن نيتك سليمة، لكن الناس عقولها على كدَّها، والفقر مش فلوس بس، الفقر في النفوس، والنفوس الفقيرة نيتها مش زيك؛ عندهم كل واحد عَيدخُل بيت لازم لغرض، فاحمي نيتك السليمة من نيتهم العفشة!

صمت أبي، وشعرت بأني فهمته تقريبًا.

تحت الجرن اجتمع ثلاثتنا مرة أخرى، ولكن يبدو أننا قد تغيرنا؛ صارت دموع رمضان لا تنزل على خديه بسهولة، وصار خلف أكثر صمتًا وقسوة، وصرت أنا أكثر ترددًا وخوفًا.

رفع خلف صوته فجأة وقال:

- ناس بلدنا قُللات أدب ولازم يتربوا!

كانت ملامحه صارمة كأنه كبر كثيرًا، ووافقه رمضان بهزة من رأسه وقد امتلأت عيناه بدموع لا تهبط، ولُذت أنا بالصمت بعد أن شعرت بأن تكرار كلام أبي لن يفيد.

تطورت خطة الثلاثة الأبرياء من «زراعة الأمل» إلى «الانتقام من سارقي الأمل»! وظللنا ليالي طويلة على الطريق وعلى أسطح منازلنا نراقب، حتى لمحنا لصًّا يسرق جاموسة نسيمة عطية الله، ويسحبها في أمان. نظرنا حولنا، وجاءت الفكرة تلمع مشتعلة في رأس رمضان. انتظرنا حتى عبر بها إلى طريق فرعي خلف المزارع يمر بالجنابية (وهي مجرى مائي صغير مصدره الترعة) ليجد اللص نفسه أمام ثلاثة صبية يضعون أقفاصًا مشتعلة فوق رؤوسهم في الظلمة، ويقف كلٌّ منهم على إحدى قدميه، ويرددون في صوت واحد: «سيب جاموسة نسيمة»! ليترك اللص الجاموسة ويقفز في الجنابية في رعب، فيسحب الثلاثة ذوو الرؤوس المغطاة بالأقفاص المشتعلة الجاموسة ويعودون بها إلى بيت نسيمة، ويتركونها داخل الحوش الضيق وينصرفون.

رفع خلف رأسه في غرور تحت الجرن وقال:

– لولانا كانت البلد دي راحت!

وأخرج سيجارة قصيرة من سيالة جلبابه وأسند إلى الجرن ظهرًا ما زالت آثار ضربات مُلة السرير عليه، وسحب نفسًا طويلًا وقال:

– الناس دي لازم تخاف!

وافقه رمضان في طاعة، ونظرتُ إليهما في تردد.

كانت المرة الأولى التي يوقِف فيها خلف لصًّا ويلكمه لكمة كادت تهشم فكه ثم يعاجله بأخرى تجعل اللص يسقط على الأرض. ويسحب خلف منه الصندوق الضخم ويجري حاميًا وجهه بلثامه وخلفه أجري أنا ورمضان.

تحت الجرن كان رمضان يفتح الصندوق، وخلف يتابع وسيجارته في فمه، وأنا أخبرهم بتردد:

– دي آخر مرة أشوفكم فيها، إحنا قلنا نزرعوا الأمل، وإنتو كده حرامية!

نظر إليَّ خلف بقسوة ولم يعلق، فزاد ارتباكي.

وفتح رمضان أخيرًا الصندوق، وكان بداخله راديو ومكحلة وزجاجة عطر ومنديل حرير وحلق ذهبي.

هتف خلف:

– ثروة! معانا ثروة! خليك، ما تبقاش فقري!

تذكرت كلمة أبي وتركتهما غاضبًا.

همس رمضان الذي لم تعد عيناه تلمعان بالدموع:

– مش حرام؟

نفخ خلف الدخان في وجهه:

- ناس تستاهل الحرق! ترحمهم يظلموك!

هز رمضان رأسه موافقًا.

في طريق العودة إلى بيتي كنت أشعر بالضعف والضيق والإهانة؛ كيف تحول خلف ورمضان إلى هذا الوضع؟ كيف حرما فتاة من صندوقها الذي يبدو أنه كل ما تملك؟ أي شجاعة في أن أتركهما وأنصرف؟

لا بد أن أفعل شيئًا، كان عليَّ أن أجد حلًّا لتلك القضية المربكة، فاتخذت قراري الأصعب.

في الليل عدت إلى الجرن، وكنت أعلم أن خلف يضع الخبيئة في مكان ما إلى حين وجود طريقة لبيعها بعد مرور زمن. وصلت بالفعل إلى الصندوق وحملته وجريت بأقصى سرعة ممكنة. كان عليَّ أن أعرف مَن صاحبة الصندوق، وهو أمر عسير، حاولت أن أعصر رأسي لأصل إليها، إنها فتاة ليست فقيرة فقر أهل البلد المعتاد، وهي فتاة تقترب من سن الزواج وتمتلك راديو ومنديلًا حريريًّا ومكحلة وزجاجة عطر، لا بد أنها ابنة الحاج عمارة صاحب جناين العنب، لكنه لم ينجب بناتًا! ربما هي ابنة حسين بيه المقاول الذي يملك وابورًا يجوب النيل من الجنوب إلى الشمال محملًا بالأحجار الواردة من جبل قريتنا، لكنه ليس لديه إلا ابنة واحدة وتزوجت! ربما هي ابنة الحاج ربيعي صاحب الفدادين الكثيرة شرق البلد، أو حفيدته، فهو رجل تخطى السبعين منذ سنوات! وربما هي... رُحت في حسبة معقدة وزادت الاحتمالات والوقت يمر، وسرعان ما سيكتشف خلف الأمر، وعيناي تجوبان البيوت وأبوابها، وأذناي تقتربان في

حذر من أبواب بيوت الأكابر علَّهما تلتقطان كلمة أو تسمعان خبرًا. مرت عربة كارو تحمل أثاث عروس جديدة وعليها بنات وأولاد يطبلون ويرقصون، وتوقفت أمام بيت الحاجة عظيمة، وكانت سيدة جميلة وقوية، ترملت ولم تتزوج، وتربي حنان ابنة أختها التي ماتت بعد ولادتها مباشرة، وتعاملها كابنتها وتدللها دلالًا عظيمًا. توقفت عربة الأثاث كثيرًا، وكلما شرع بعضهم في إنزال الأثاث أتى صوت أنثوي صارخ من الداخل:

– مفيش عفش نازل!

وسمعت الرجال يتهامسون: «حنان زعلانة... فيه حاجة من عندها اتسرقت».

كان قلبي يرقص من الخوف والترقب وأنا أدخل بيت الحاجة عظيمة والصندوق بين يدَي. لستُ على يقين من أي شيء، لكنني واصلت طريقي، ووضعت الصندوق أمام الحاجة، ونادت هي حنان، وكان مشهدًا عجيبًا: حنان تفتح الصندوق وتُخرِج منه الأشياء وتبكي بصوت عالٍ، والحاجة عظيمة تربت على كتفي في حنان وتسألني:

– لقيت فين يا ولدي الصندوق؟

أجبتها وعيناي معلقتان بحنان:

– ضحكت على الحرامي وسرقته منه.

نظرت إليَّ ضاحكة:

– مصدقاك، وإيه حلاوتك؟

رددت بتلقائية:

– ولا حاجة، حنان تبص عليَّ وتقولي «شكرًا» بصوتها.

أفاقت حنان على كلامي، فنظرت إليَّ، وقالت هامسة في حنان يوافق اسمها:

- شكرًا.

خرجت من بيت الحاجة عظيمة راقصًا طائرًا غارقًا في صوت حنان وعينيها!

في الجرن ليلًا كانت المواجهة الكبرى بيني وبين خلف ورمضان، يتهمني خلف وأعترف بالحقيقة، فتدور معركة بالأيدي والأرجل والرؤوس، معركة لا يتدخل فيها رمضان، وتنتهي بكدمات تحت عينَي وعينَي خلف، وكسر في سنه الأمامية، وكدمة كبيرة في ركبتي! ليفرقنا بعدها الزمن سنوات طويلة، علمت في أثنائها أن رمضان تزوج وأنجب عددًا من الأولاد والبنات، وعمل في أعمال عدة بسيطة ثم أقعده المرض، وأنه يجلس في بيته الصغير ينتقل من الشمس إلى الظل صيفًا ومن الظل إلى الشمس شتاءً، يشتم زوجته ويسب أولاده نهارًا، ومساءً تعلو ضحكات الجميع حول الطبلية، وفي آخر الليل يحاول أن يعطي ظهره لامرأته حتى لا ترى دموعه القديمة التي عادت للنزول ثانية تلك الأيام بغزارة، وصوت أمه التي ماتت منذ سنوات يتردد في أذنه: «كِبرت وكبر خيرك يا مَكفِي زي أبوك!»، وهو يحملق إلى تفاصيل بيته الذي لا يختلف عن بيوت الآخرين الذين حاول أن ينقذهم من البؤس. لم أعلم كل هذا بالتأكيد لكنني أظن حاله هكذا.

وسافر خلف إلى القاهرة، وعمل في منطقة «البساتين»، وتزوج قاهرية أنجب منها ثلاث بنات، ثم عاد إلى قريتنا وتزوج بأخرى وأخذها معه إلى البساتين وأنجب منها طفلًا ذكرًا، ودخل السجن

ثلاث سنوات في قضية قتل خطأ، وخرج بعدها ذا هيبة ونفس منكسرة محاولًا أن يسيطر بملامحه القاسية ونظرته القوية على زوجتين زاد الصراع بينهما، فهذه هي القديمة أم البنات وتلك هي الجديدة أم الولد، وبعد أن ينتهي الصراع اليومي كانت زوجته - لا أدري هل القديمة أم الجديدة - تسمعه وهو نائم يغالب خصمًا خفيًّا ويقول: «ناس بلدنا قُللات أدب ولازم يتربوا!».

قابلته مرة في القاهرة، كنت هابطًا من الأتوبيس وكان صاعدًا، فهتف:

- سعد!

لكنني تجاهلته وهبطت كأني لم أسمع شيئًا، ومن شباك الأتوبيس راح يشير صارخًا:

- سعد! سعد! إنت مش فاكرني؟ أنا خلف، خلف، الصندوق والمكحلة، الجرن!

وذاب صوته، ولا أفهم حتى اللحظة لماذا تجاهلته ولماذا ادعيت أني لا أعرفه!

* * *

كانا يقفان أمام المنزل ليلًا، وحينما فتح سعد باب المنزل الخالي طار شيء ما، ربما كان طائرًا أو خفاشًا أو حياته الماضية، وكانت الصالة تنطق بالهجران، والسلم حزينًا يشكو عدم الصعود والهبوط عليه، وهتفت فوزية:

- هو ده اللي كنت بتتزحلق عليه؟

هز رأسه وعيناه تتابعان المكان، وذاكرته تهجم عليه بكل قوتها،

فيضع يده على جبهته في ألم، ويمسك يدها ويصعدان إلى الدور الثاني. كانت الأم تجلس في مكانها المفضل على الكنبة بجوار الشباك وتنادي سعد من الشباك ليصعد إليها وهو يبتسم لها بدموع خفيفة:

– ما عادش سعد عنيد يا أمَّه زي زمان!

همهمت الأم برقة:

– بس برضو متأخر، طول عمرك كده!

تفهمت فوزية تمامًا أن سعد يحادث الماضي، ولم تسأله عن الأم غير الموجودة، وجلست على الكنبة تلتقط أنفاسها.

طار الخبر إلى بيوت الأعمام والأخوال: «سعد رجع بيتهم ومعاه مَرَة بشعرها، وهيفتح بيت أبوه ويقعد فيه».

وهتف ميكروفون القرية:

أهالي البلد الكرام

انتقل إلى رحمة الله

رمضان أحمد فواز رمضان أبو سليم

والجنازة بعد صلاة الضهر

والعزاء في مندرة العيلة

ولا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم

لمعت عينا سعد بالدموع، وهمس بأنفاس حارة:

– رمضان! صغير يا رمضان!

فتح الشباك، وربتت على كتفه فوزية، ونظر إلى القرية لأول مرة منذ سنوات طويلة، وهمست فوزية:

– ما تزعلش.

كان يتألم وهو يعلق رمضان بجوار من رحلوا في دولاب الهم! الأمر يزداد صعوبة مع كل ميت جديد لأنه يجدد الأحزان، لا بد أن تمر بجميع من رحلوا، وعليك في كل مرة أن تُضاعف البكاء وتضاعف الحسرة وتضاعف الفقد.

ارتمت فوزية في حضنه بشكل طفولي وقالت:

- أنا برضو مُت! وإنت حَييتني، صح؟ يبقى ما تموتش. الحزن بيموِّت يا عيسى.

دق صوت طرقات عصا على الباب، أعقبه صوت تصفيق، ونظر سعد من الشباك ليجد ثلاثة ظلال لثلاثة رجال، وقد امتدت ظلالهم وظلال عصيِّهِم وعمائمهم أمامه كأنهم ثلاثة من ملوك الجن يطرقون الباب. فتح سعد باب البيت وعانقه خاله رافع بعنف لا يخلو من حنان، وعمه علوي بارتباك، وعمه سليم بضيق، وفتح لهم سعد باب غرفة الجلوس التي ملأها الهلوس (بيوت وخيوط العنكبوت)، وجرت على الحوائط الأبراص، وأشعل الإضاءة فبدا الكنب قديمًا ومغطى بالتراب، تجاهل الجميع الأمر وجلسوا في صمت وهتف الخال رافع:

- بركة رجوعك بالسلامة.

ولم يتمالك العم علوي نفسه وقال:

- هو إنت رجعت وحدك ولَّا معاك حد؟

ونظر سعد إلى عمه سليم حتى يفرغ ما في فمه من كلام.

وكانت فوزية قد هبطت السلم ودخلت الغرفة وهي تتفرس وجوههم:

– مين دول يا عيسى؟

همس الخال رافع:

– عيسى؟!

ونظر إليها العم سليم في ضيق:

– اتجوزت في مصر ومن غير ما تقول! وخدتها كبيرة كمان!

وسأل الخال رافع ثانية:

– وإيه حكاية «عيسى» دي؟!

رد سعد مبتسمًا:

– هي بتحب تناديني باسم عيسى على اسم جدي، وكبيرة ولَّا صغيرة دي حاجة تخصني يا عم سليم. أكيد جايين تباركوا...

قال رافع:

– مبروك.

فقال علوي:

– مبروك على إيه؟ على قلة المشاورة؟!

قال سليم:

– وما دام الموضوع يخصك وما يخصش حد، إيه لازمة مبروك؟ طول عمرك كده!

وقف سليم وعلوي، وابتسم رافع لسعد وهمس في أذنه:

– مبروك.

وقبل أن يغادر الثلاثة مسرعين نظرت إليهم فوزية في ضيق معترضة:

– هو مش جوزي، أنا جاية أشوف بيته...

رنت كلماتها في البيت القديم، وأُسقِط في يد سعد، ونظر علوي في ذهول، وحاول رافع أن يستوعب الأمر بالنظر إلى سعد، وعلا صوت سليم بقوة وغضب:

– يعني راجع وداخل بيت أبوك وأمك ومعاك مَرَة مش حلالك ومحرمة عليك؟!

* * *

لجريد النخل مع الهواء قرب الشباك أحاديث وإيقاع، فإن كان همسًا كان مقلقًا واحتشدت داخل الأذن الهواجس. خلف الشباك الظنون تكبر، فلربما كان هذا الهمس من حركة ثعبان أو من رقص عفريت. ولو اشتد الهمس وصار ضجيجًا فسيكشف عورة الليف عن الكرانيف، وسيصير ريحًا شديدة نسميها في الجنوب «الطياب» كناية عما يفعله الهواء بين ذكر النخل وأنثاه من هوى يطيب به البلح. وإن كان الهواء في ليالي الصيف جافًّا وحارًّا وسقيمًا يبعث على الأسى، فهو «الشَّرْدْ» (بفتح الشين وسكون الراء والدال)، كأنه لفظ يحكي الكآبة في أعلى تجلٍّ لها، هكذا كان لسان النخل، وهكذا سمعت الأذنان خلف شباكنا ذات مساء في ذاكرتي.

كان سعد بجوار الشباك يحدث نفسه، ثم مدد جسده وأغمض عينيه، مدت الأم يدها من الغيب وراحت تمسد شعره، ليغفو لحظات قليلة قبل أن تقف فوزية الصامتة في غضب وتتجه نحوه وتسأله في عصبية وحِدة تطيران النوم من عينيه عن هؤلاء، ولماذا قال إنها زوجته. ثم تركته غاضبة وفتحت باب غرفة مغلقًا ودخلت وأغلقت الباب خلفها. لم يسعفه الوقت ليخبرها أن تلك الغرفة هي غرفة أبيه وأمه،

وظل مكانه جالسًا جوار الفرندة التي تطل على الغرب حيث النيل والصمت، يتقدم في صمت ويفتح شباك الفرندة ويسحب كرسيًّا متهالكًا من كراسي السفرة، كان كرسيًّا منكفئًا في حزن يشبه حالة سعد، جلس عليه وراح ينظر إلى الغرب في صمت وتأمل. الغرب دائمًا يرمز إلى الحزن والغروب والموت. يتذكر في طفولته ليالي طويلة حزينة يجلس فيها الوالدان على حافة النهر ينتظران خروج جثة ابنهما الذي غرق، الأب يحدق إلى النهر الجاري يستجديه ويرجوه، ويقول بدموعه: «أعرف أنه غرق وفاضت روحه، لكنني أريد منك أن تكون كريمًا وتمنحني جثته»، وحينما تخرج الجثة في اليوم الثالث أو الرابع في مكان بعيد جدًّا عن المكان الذي غرق فيه الابن، يمسح الأب المكلوم دموعه، وربما تزغرد الأم زغردة حزينة ممطوطة تقشعر لها الأبدان وهي تحضن جثة ابنها الذي غيَّر النيل ملامح وجهه ولم يغير ملابسه التي تعرفها الأم. إنها تحصل في النهاية على شيء من فقيدها، جسد تعلم أن الأرض ستأكله، لكنها ستعرف له موضعًا تستطيع أن تزوره فيه، مكانًا معلومًا يصلها بذلك الذي جمع بينهما حبل سُرِّي واحد.

الصيادون في الليل أيضًا لا يتركون البحث عن الرزق، ها هم يمارسون عادتهم القديمة في الدق والتطبيل على مقدمة القارب حتى يهرب السمك إلى الشباك، وفي الصباح ستأتي النساء يتهادين بالمواعين وحلل الألمونيا والطاسات يضعنها في الماء ويغسلنها ويدعكنها بكل قوتهن حتى تلمع تحت شمس الصباح كأنها الفضة الخالصة. أخبرتني أمي قديمًا وأنا طفل، بأنه في ليلة شم النسيم إذا

ملأت كوبًا من ماء النيل وظللت أنظر إليه حتى يتبين في السماء الخيط الأبيض من الأسود فسيتحول هذا الكوب بالكامل وما يحتويه من ماء إلى فضة خالصة. ظللت أنا وبنات عمتي وأبناء خالي وإخوتي نحملق إلى أكوابنا، وفي اللحظة التي يتبين فيها الخيط الأبيض من الأسود من الفجر نُصاب جميعًا بالنعاس، نغمض أعيننا غصبًا ونفتحها لنجد الشمس تغمرنا بأشعتها كأنها تسخر من أحلامنا. نجري نحو أمي ونخبرها، فتنظر إلينا وتقول بنبرة حكيمة صادقة: «علشان عينكم غفلت، اللي يحب حاجة أو حد عينه ما تغفلش عنه أبدًا». ومرت السنوات، وظلت أعيننا تغفل والشمس تسخر والأكواب على حالها ممتلئة بالماء ولن تصبح فضة أبدًا.

علا صوت فوزية فجأة في غرفة الأب والأم:

– إنتو اللي تفهِّموه مش أنا، أنا جاية زيارة أشوف بيته والسلم اللي بيتزحلق عليه، لكن هوَّ كداب.

أفاق سعد على صوتها، والتفت ليجد باب الغرفة يُفتح وتخرج منه فوزية، وتنظر إليه مدهوشة:

– يا ساتر! نسخة منك، مش عايزين يغلَّطوك! ده مش حب ده استعباط!

يضحك سعد للمرة الأولى منذ أن ركب القطار، ويقترب منها مبتسمًا معتذرًا:

– أنا آسف، إنتِ صح.

تهز رأسها متفهمة وتضع إصبعها على رأسه ساخرة:

– مخكم ناشف أوي!

يمسك يدها ويسحب كرسيًّا باليد الأخرى:

– تعالي أفرجك على البحر.

ترد في ذكاء:

– النيل.

يرد ضاحكًا:

– إحنا شايفينه بحر. تعالي.

تجلس إلى جواره وينظران معًا نحو الغرب ليجدا سيارة تقترب من البوابة وتقف وتهبط منها أربع نساء يرتدين البردة ويتجهن نحو البوابة الخارجية.

تنظر إليه في تردد:

– خايفة!

يبتسم لها وهو يخفي ترددًا أكبر:

– مفيش حاجة تخوف.

ويهبط مسرعًا ليفتح الباب للنساء الأربع.

* * *

كان على أهل فوزية ألا يتوقفوا عن البحث، وكان على الشرطة أن تصل إلى مقر عمل الأستاذ سعد الذي قال زملاؤه إنه رجل محترم وابن ناس وأصوله جنوبية. وفي بيتها لم تجد فدوى بُدًّا من الانفجار في وجه زوجها، فقد طالت المدة وطال حداده، وصرخت أخيرًا:

– عمَّال تبكي وتعيط في السر ليه؟ أُمَّال لو أنا اللي مُت ولا غُرت في أي مصيبة كنت هتعمل إيه؟ فرح؟

صمت طويلًا ثم نظر إليها في سخرية وهرب إلى غرفته، لحقت

به وهو يجلس منكس الرأس على السرير من غير أن تنطق بكلمة، رفع رأسه وقال:

- إنتِ اللي خليتيها تمشي، طول عمرك بتكرهيها. عارفة أنا باحبها ليه؟

ساد صمت ومرت لحظاته دهرًا على فدوى، إنها اللحظة التي تخافها عمرها كله، قال في هدوء:

- لأنها النسخة الأحلى منك، مش بس في الشكل، في كل حاجة.

قالها وارتاح، ومدد جسده على السرير كأنه تخلص من عبء كان يحمله، وأغمض عينيه، وجلست بجواره تبكي بكاءً لم تبكه من قبل.

* * *

جلست الخالة فاطمة بجوار سعد، وابنة خالته التي أدرك أنها «نعمة»، وكان بينهما غرام قديم ظهر في نظرة عينيها المحتقنتين، وعمته إنصاف، ومنيرة ابنة خاله رافع الكبرى، ورُحن ينظرن إلى فوزية من رأسها حتى قدميها، ورفعت نعمة صوتها بغيرة لم تستطع أن تخفيها:

- هي دي يا سعد؟!

لم تعجب النبرة ولا الجملة فوزية، فردت في غيظ:

- مالي؟!

تداركت الخالة الكبرى فاطمة الأمر، وقالت:

- فوق راسنا، بس تبيِّتي مع ولد أختي وحديكم؟ لا!

وأكملت منيرة بنت رافع الكلام:

- بيت أبوي مفتوح، تبيتي جارنا ووسطينا وتقعدي إن شا الله سنة، لكن هنا لا!

همت فوزية بالاعتراض، ولكن سعد قاطع رغبتها في الكلام مبتسمًا:

– جوزك يا خالة فاطمة قعد في بيت مجاهد أبو رقبة تلات سنين مع بِتُّه، ولما الناس سألته قال مرتي، ومحدش اتكلم! وأبوكِ يا منيرة، خالي، لما تروحي اسأليه عن منصورة!

قاطعته فاطمة في حسم وبصوت جاف:

– إحنا لينا حياتنا واللي في الظاهر فيها، واللي في الدِّرا عنِعرفوا نِلمُّوه، لكن حكاياتك محدش هيرضى بيها. قومي يا بِتِّي معانا!

شعر سعد بقلة الحيلة ونظر إلى فوزية معتذرًا:

– أنا آسف!

هتفت فوزية:

– أنا هاتجوز عيسى الليلة!

ردت نعمة في غِل:

– عيسى مين؟! هو إنتِ فيه في عقلك حاجة؟!

* * *

صدرت الأوامر، وتلقى قسم الشرطة في المدينة التي بها قرية سعد من القاهرة أمرًا بضرورة التحرك إلى القرية والقبض على سعد والسيدة التي بصحبته.

* * *

صحبت السيدة فاطمة وبقية السيدات فوزية إلى بيت الحاج رافع، لتقضي عدة ليالٍ لحين مرور عزاء رمضان كما جرت العادة في القرية، أو كما تحجج سعد، وبعدها يُكتب كتابه على فوزية، وقد

وافقت على الذهاب معهن. وفي اليوم التالي كان سعد في مقدمة سرادق عائلة رمضان يتلقى العزاء، حينما دخل خلف بطوله الفارع ونظرته الحادة ويده الخشنة التي مدها إلى سعد من دون أن يتفرس في وجهه، فقد كان متعجلًا كأنه يهرب من شيء ما، ولكن صوت سعد الذي بدَّد تعجله أتى واضحًا جليًّا:

– البقاء لله يا خلف!

احتضن خلف سعد، وانفجرت دموع الرجل القاسي كأنها كانت مخزَّنة في زجاجة عتيقة ما إن لمسها الحنين حتى فاضت، وجلس إلى جوار صديق الجرن في صمت يجلله صوت القرآن وغياب الصديق الثالث. وحينما ختم القارئ التلاوة همس خلف في عتاب:

– ليه لما شُفتك في مصر نكرتني؟!

أجاب سعد في صدق:

– كنت ساعتها هربان من كل حاجة!

صدقه خلف وربت على ركبته:

– معاك حق، ساعات الواحد عيهرب حتى من روحه. عندك عيال إيه؟

هز سعد رأسه بالنفي ولم يعلق خلف، ووقف خلف يسلم على سعد هامسًا:

– إذا كان لينا نصيب تاني في اللقا ابقى سلم عليَّ، كفاية هروب، صحاب الجرن التلاتة بقيوا اتنين!

* * *

لم يفهم الأستاذ غزالة سر زيارة أحد تلامذته القدامى له في البيت،

كان سعيدًا بالأمر بلا شك، لكنه كان متوترًا أيضًا. حاول كثيرًا أن يجد تفسيرًا لتلك الزيارة، ولماذا سألته تلك السيدة ذلك النوع من الأسئلة وذكرت السجن والحياة والموت وجريمة قتل عجيبة فعلها مع جاره؟ وهل عاد فعلًا هذا التلميذ بعد كل هذه السنوات ليلتمس العفو والسماح عن خطأ قديم؟ شغله الأمر كثيرًا، وزاد من قلقه وارتباكه، وزاده فراغ حياته الحالي بحثًا وتوترًا. صارت الليالي لا تمر بسهولة كما كانت في البداية، ذهب إلى ابنته بغير ميعاد سابق كما اعتاد، وظل يلعب مع الأحفاد حتى ناموا، وراح يتناوم ويتثاءب حتى عرضت عليه ابنته بلا حماس أن يبيت عندهم، فوافق على عكس عادته بسهولة أدهشتها. نام بجوار حفيدتيه ليلةً كانت من أسعد ليالي عمره، وعاد بعدها إلى بيته ومخاوفه ولماذا يقتل جاره! لقد كان الرجل حاد الطباع معه بالفعل في الفترة الأخيرة، ولكن لماذا يقتله؟ هل اصطنع جاره ذلك الأمر ليخبره بأنه يعرف نيَّاته ويحذره من ذلك؟ ليس مقنعًا بالمرة أن يعود تلميذ بعد سنوات بصحبة سيدة تسأله ذلك السؤال المريب! لقد تعمد جاره فايز عفت عدم السلام عليه مرات عدة ذلك الشهر على الرغم من أن مدخل العمارة جمعهما أكثر من مرة! لماذا يكرهه الرجل إلى هذا الحد؟ لم يحضر فرح ابنته على الرغم من أنه وجَّه إليه الدعوة بنفسه! ولم يحضر عزاء زوجته ولم يعتذر!

ربما هو الذي يخطط لقتلي، أنا أيضًا لم أحضر فرحَي ولديه، وكنت خارج البلاد أؤدي فريضة الحج حينما ماتت زوجته، لكنني أذكر أنني ذهبت إليه بعد عودتي وقدمت واجب العزاء في شقته. كان قليل الكلام، وغير مرتاح لوجودي، ودفعني عدم ترحابه إلى

شرب فنجان القهوة بسرعة حتى إنها حرقت لساني وخرجت متعثرًا بارتباكي. هذا الرجل لا يحبني، هذا الرجل هو من أرسل ذلك الذي ادَّعى أنه تلميذي ليخبرني بأنه يقرأ أفكاري! أنا أيضًا لا أحبه، لكنني قَطُّ لم أفكر في قتله، لعله يرسل إليَّ رسالة لأنه يفكر هو في قتلي!

دفعته المخاوف إلى تغيير قلب الكالون، ثم عمل بابًا حديديًّا إضافيًّا على باب شقته صرف عليه جزءًا كبيرًا من مدخراته، ظل يومًا كاملًا بجوار الحداد حتى اكتمل الباب الخارجي، وحدجه يومها جاره بنظرة كارهة وهو يغلق الباب ويهز رأسه في دهشة، لم يكلف نفسه حتى إلقاء السلام! في الغالب أدرك أن غزالة فهم نيَّاته. شعر ببعض الأمان ليلتها ونام قرير العين، وفي الصباح كان جاره يرن الجرس ويقف خلف الباب الحديدي وينظر في غضب، ففتح الباب الخارجي ليجده أمامه بالبيجامة والشبشب، وبشعر أبيض منكوش، يسأله في ضيق:

– هو التراب والرملة دول هيفضلوا كده قدام بابك؟

نظر إلى الكومة التي خلَّفها تركيب الباب الحديدي وهمَّ أن يعتذر، لكنه وجد نفسه يرد بعنف وضيق غير مبرر:

– آه هيفضلوا لحد ما يجيلي مزاج وأشيلهم!

هز الجار العجوز رأسه في ضيق وغضب وعدم فهم، وغمغم وهو يعود إلى شقته ويصفق الباب في وجه غزالة:

– مجنون! إنت راجل مجنون!

سمع غزالة الكلمة بوضوح وأغلق بابه وجلس على أقرب كرسي وهو يرتعش ويفكر في طريقة تنقذه من ذلك الجار.

* * *

في الصباح وصلت قوات الأمن إلى القرية الآمنة، وسألوا عن بيت الأستاذ سعد، وقابلهم عمدة القرية – الذي هو خال سعد – واستمع إليهم طويلًا قبل أن يخبرهم كذبًا أن سعد لم يأتِ إلى قريته منذ سنوات، وأن الأمر فيه سوء تفاهم بالتأكيد، فسعد من أبناء أكابر البلد ومن المستحيل أن يخطف امرأة لا يعرفها، و«هو سلوك لا يخرج أبدًا من عيلتنا يا بيه». كانت هذه آخر جملة قالها العمدة رافع لضابط الأمن الذي أصر على تفتيش بيت سعد، وأصر العمدة رافع على ألا تفعل القوات شيئًا إلا بعد واجب الغداء. وطار مرسال رافع إلى سعد بأن يترك البيت فورًا قبل قدوم القوات، وبالفعل غادر سعد بيته إلى المنطقة الزراعية التي كان فيها الجرن القديم. ودخلت قوات الأمن بيت سعد القديم المغلق، فتحه لهم العمدة رافع بنفسه وهو يشير إلى أماكن العنكبوت والتراب القديم والبيت المهجور، حالفًا بأغلظ الأيمان أن البيت لم يُفتح منذ سنوات، وغادرت قوات الأمن المكان بعد تحرير محضر بالتفاصيل.

في موضع الجرن القديم الذي صار أرضًا خالية تحيط بها البيوت الجديدة ولا أثر لجرن أو تبن أو شيء، وقف طويلًا يبحث عن رمضان وخلف لعل ظلالهما تظهر أو صدى أصواتهما، لكن بلا جدوى، مات رمضان سريعًا تحت وطأة دموعه التي منعها حينًا وتركها حينًا آخر، وهجَّ خلف إلى القاهرة من غير أن يحقق العدالة على أرض القرية، وها هو سعد يهرب من بيت أبيه وينتظر في توتر أن تأتيه الإشارة بالعودة. ماذا جرى يا سعد لتفعل كل هذا؟ ما لك وما لفوزية؟ تذكرها بحنين جارف وهي

السيدة حديثة الولادة، التي وُلدت حياتها واسمها على يديك منذ عدة أيام فقط! تُرى ماذا فعلوا بها في بيت الخال رافع؟ لا يدري. هل يكره هؤلاء الناس أم يحبهم؟ يشعر بالسند والدفء والقوة بوجودهم حوله، لقد أنقذوه بلا تردد، وحالوا بينه وبين القبض عليه، هو مدين لهم، لكنه لا يحبهم حينما يسخرون من طريقته في الحياة، أو حينما يفرضون عليه طريقتهم، أو حينما يسخرون من حياته التي بلا فائدة ولا طائل ويعيشها في القاهرة. اتصل به أحد أقاربه مرة منذ سنوات وقال له:

– عامل إيه في مصر؟ عيقولوا إنك شغال مع الفنانين!

حاول أن يوضح له أنه يكتب الشعر والروايات، ولكن قريبه قاطعه ضاحكًا:

– أهو كله فن يا فنان، وأنا فرحي الأسبوع الجاي، تعرفش رقاصة حلوة كده تولع فرح أخوك؟

كان في الماضي يغضب أكثر من مثل هذه الكلمات الجارحة، لكنه مع الوقت صار يدرك أن هذه طبيعة المقيمين في البلاد مع أولئك الذين خرجوا منها، ضغينة طبيعية لا تصل إلى الحقد، وتزول بمجرد التعبير عنها في صورة كلمات تحقق الانتصار. المقيمون يظنون أن مَن خرجوا غدروا بهم، وتركوهم تحت الحائط القديم وهربوا إلى الأنوار الكثيرة والسينمات والمسارح والميادين والحدائق والوفرة في كل شيء، حتى في النساء ذوات الملابس الأكثر جرأة. فيما الذين غادروا البلاد لا يخلون من ضغينة أيضًا على أولئك الذين ينعمون بالبساطة وراحة البال ورؤية القمر مباشرة فوق أسطح البيوت، وهم

يفتقدون الدفء الذي يمنحه وجود أولاد العمومة ليلة فرح شاب منهم، ويفتقدون حنان القرية وطيبة ملمس طينها وظل نخيلها ورائحة هوائها المفعم بخليط من روائح الخَبز والفاكهة والطبيخ والشمس، روائح تمنح الحياة أملًا لا وجود له في العواصم. وتظهر تلك الضغينة عندما يلتقي المقيم مَن غادر فيتراشقان بكلمات مؤلمة حتى يُسمح للصفو بأن يمر بينهما مرة أخرى، ضغينة تنفسئ بالكلمات كما ينفسئ البالون بالإبرة، ثم تحل محلها محبة يحاول أهل الجنوب إخفاءها، لكنها تظهر في حركة اليدين واختلاج النظرات عند الوداع، أو عندما يحدق الخطر بأحدهم. أفاق سعد على يد طفل تشده من بنطاله، يطلب منه أن يسير خلفه فالجميع ينتظر.

* * *

خرج غزالة من شقته متلصصًا قلِقًا، وحاول أن يزيل ذلك الرمل بالجاروف وينقله إلى سلة المهملات. كانت مهمة شاقة، وهاجمته الآلام في ظهره كلما انحنى، ولكنه بعد جهد وعرق وألم نجح في إزالة الرمل، ونظر بغِل وضيق إلى باب شقة جاره المغلق، وقال في نفسه: «طبعًا بِيبُص من العين السحرية ومبسوط إني مذلول».

علا صوت الجار العجوز في بئر السلم، فازداد صوته بالصدى غضبًا وخشونة:

– اللي فاتح الأسانسير يقفله!

يلتفت غزالة نحو باب المصعد فيجده غير مغلق، فيتجه نحوه مسرعًا، ويضع يد الجاروف بين المصعد وبابه، ويسرع كالأطفال إلى شقته مغلقًا بابها فرحًا بذلك المقلب غير المبرر. ويمر وقت

طويل قبل أن يصعد الجار ويطرق شقة غزالة بالجاروف طرقات متتالية غاضبة، ولا يفتح غزالة الباب، فيهدر الجار بالسباب والشتائم المتتالية ويلقي الجاروف بكل قوته في وجه الباب الحديدي، وغزالة خلف الباب الخشبي الداخلي يتابع من عينه السحرية ضاحكًا في شماتة لامتناهية، ضحكةً وصل جزء منها إلى أذنَي الجار فعاد مرة أخرى وهو على يقين من أن غزالة خلف الباب يراه، ووضع وجهه في قلب العين السحرية صارخًا:

– هتشوف يا غزالة! وحياتك لتشوف!

توقف غزالة عن الضحك، وأدرك أن نبرة صوت تهديد جاره لا تحمل رائحة الهزر، بل جادة تمامًا، وتبدلت ضحكته إلى وجه عصبي قلق متوتر. وفي المساء كان يجول في السوق بحثًا عن شيء يحميه أكثر، وداخل غرفته لم يصدق أنه اشترى سكينًا جديدة كبيرة وحادة، ووضعها تحت رأسه. كانت ليلة طويلة من الكوابيس طعن فيها غزالة جاره عدة مرات، حتى إنه استيقظ وهو يبحث عن أثر دماء على ملابسه، ربما طرطشت وأصابته قطراتها وهو يطعن جاره في الكابوس، كان لاهثًا عرقان، ومد يده تحت الوسادة ليتأكد من وجود السكين فوجدها مكانها، فاطمأن قليلًا وحاول النوم ثانية، لكن بلا جدوى.

* * *

في مندرة العمدة رافع تجمع الرجال، وراح سعد يسرد حكايته مع فوزية كاملة صادقة بناءً على طلب أقرب إلى الأمر من خاله العمدة، وحينما أنهاها ضرب بعضهم كفًّا بكف، وضحك بعضهم، ونظر

بعضهم نظرات لاسعة، ثم بادر ابن خاله عزت وقال كأنما يفتح بابًا كبيرًا من السخرية يشجع به الآخرين:

– والله يا أبو خالو إنت عسل، وحكايتك حكاية، مَرَة لا تعرفها ولا تعرفك تعمل فيك وفينا كده؟!

ليضحك البعض بصوت عالٍ، ويستمر عزت في الضحك ويكمل:

– طول عمره سعد طيب، والحريم تلحس المخ، بس الدور ده لحسته أوي!

ينهي العمدة رافع فاصل السخرية بنظرة حاسمة:

– إحنا قاعدين علشان نِحلُّوا. أي كلام صغير ملهوش عازة!

ليرد علوي:

– وإيه اللي يحل يعني؟ مَرَة مخطوفة وناسها والبوليس وراها، يتجوزها يعني؟! تبقى برضو ما اتحلتش.

ليعلو صوت سليم ساخطًا:

– وإنت جاي ليه دِلوك؟ إنت هجِّيت وقعدت بحري وسبتنا، جاي دِلوك ليه؟ تلبسنا في مصايبك؟!

ليقف رافع قائلًا في غضب:

– وه يا سليم! ومين له غيرنا يعني؟ وإيه عازتها الرجالة لو ما نفعتش بعض؟!

يُجلِس سعد خاله في هدوء، وينظر إلى عمه سليم مبتسمًا:

– ولا مصايب ولا حاجة، مطرح ما جيت أمشي، أنا فرَّجتها بيت أبوي، وإنتو عرفتوها وعرفتكم وخلاص!

يهز رافع رأسه بالنفي:

– مش حل يا ولد الغالية، مش حل.

تقتحم فوزية مجلس الرجال فجأة، وتنظر إلى سعد في حنان:

– هما عايزين منك إيه؟ أنا قلت هاتجوزه، إنتو مالكم؟!

يرد رافع:

– يا بتي تتجوزيه كيف؟! ومين فيكم اللي يتجوزه؟ فوزية ولَّا سوزان؟!

ترد في عصبية:

– سوزان. اسمي سوزان، واسمه عيسى، ومفيش حد اسمه فوزية، سامع؟!

يهتف سليم:

– وإنت فاكر الظابط خال عليه الموضوع؟ والله ما حصل، وهييجي تاني وتالت وسِد عاد لو تقدر يا عمدة.

ويخرج سليم غاضبًا يتبعه نفر من الجالسين، وينظر رافع في ضيق، ويقف سعد ويمد يده في حنان إلى فوزية، فتمسك يده بطفولية وسط ذهول الجميع، ويقول لها بصوت رقيق:

– يلَّا بينا يا سوزان. شكرًا يا خال.

يخرج سعد وفوزية من المندرة، ومن شبابيك المنادر العلوية تتابع أعين النساء خروجهما في ذهول واعتراض، فيما نعمة تتابع بعينيها ولكن الدموع تمنعهما من الرؤية السليمة، دموع فضحتها، فربتت فاطمة على كتفها مواسية.

في محطة البيجو، كان سعد وفوزية يبحثان عن مقعدين خاليين في سيارة بيجو بيضاء تحملهما مرة أخرى إلى القاهرة.

في السيارة البيجو، وعلى الكنبة الأخيرة، كانت فوزية «تُكلبش» في يد سعد، وتهمس في أذنه:

– حلو بيتك يا عيسى!

فيهز لها رأسه، ويبتسم ابتسامة ودودة، فتسأله في براءة:

– هنروح فين يا عيسى؟

فيرد شاردًا:

– مكان يناسب عيسى وسوزان.

فتبتسم له في تصديق وتقول:

– احكي.

نهبت السيارة البيجو الطريق، وشرع سعد في الحكي، وفوزية عيناها معلقتان بشفتيه.

٤
البيت الإنجليزي

في طفولتنا، أنا ورمضان صديقان كما علمتِ، كنت أنا أقلد عبد الحليم حافظ، وكان هو بدوره لا يملك إلا أن يكون ظلًّا مرفوع اليدين على الحائط ورأسًا يهتز يمينًا وشمالًا، وأنا أمسك بكتاب أغاني عبد الحليم حافظ الذي يحوي كل أغانيه بغلاف يحمل صورته في قميص سبعيني أصفر منقط كبير الياقة، بشعر ناعم طويل ووجه حليق وضحكة متألمة. كنت أردد أغانيه وأحفظ الكلمات محاولًا أن أقلد اللحن مستعينًا بجيتار بلاستيكي صغير أخضر لا يُصدر سوى نغمة واحدة تتكرر بحدة مختلفة على أربعة أوتار بلاستيكية، كان الجيتار الأخضر إحدى لعبي الكثيرة، وكانت ظلال تلك اللعب لرمضان. كانت لديَّ أيضًا سيارات النقل البلاستيكية، والمسدسات بداية من المسدس ذي الفِلة وصولًا إلى المسدس الأمريكي طويل الماسورة ذي الترس الذي يمتلئ بالمفرقعات الحمراء الصغيرة، إضافةً إلى الأتاري الذي أتى كأعجوبة من أعاجيب التكنولوجيا مع أبي في حقيبة من حقائب العودة من الحج إلى جوار ساعة لها أستيك ذهبي

ومينا بُنية مُطرزة في الداخل بأحجار لامعة، كل حجر يمثل رقمًا من أرقام الساعة، وقلم يكتب وفي أحد جوانبه مساحة لشاشة بداخلها ساعة أخرى رقمية. وعلى الرغم من تنوع تلك الألعاب ظل التلفون اللعبة الأقرب إلى قلبي، تلفون أحمر بلاستيكي بقرص يُصدر رنينًا يشبه الحقيقي كلما أدرته بإصبعي، أهديته أخيرًا لرمضان فكان اليوم الأكثر سعادة في حياته، انفصلت سماعته عنه وقرصه عن وجهه، بعد أيام طويلة كان رمضان يدير قرصه مئات المرات ليستمع إلى رنينه ويمسك بالسماعة بشغف وهو يتخذ وضع المتحدثين في التلفونات، مكررًا كلمة «ألو» بنبرات صوت متعددة بلا ملل.

لعبة وحيدة ظلت معي على حالها وهي بيت أنيق صغير بلاستيكي إنجليزي الطراز، سطحه يحاكي السطح القرميد المنزلق بحدة ولونه أحمر، وبقية البيت باللون الأبيض، ويتوسطه من الأمام باب أنيق بإطار أزرق له مفتاحان صغيران يحتفظ بهما صاحبي، وكانت به فتحة علوية تمر من خلالها النقود الورقية الصغيرة والنقود المعدنية فئة القرش وخمسة قروش، كانت لعبة وبيتًا وحصالة في آن واحد، وظللت أحتفظ بها حتى افترقنا.

كنت أظن أن تلك اللعب التي أحبها ستجعلنا نلهو كثيرًا، لكنني سرعان ما تركتها جميعًا وتعلقت بحلمي الجديد المثير – حين أنهيت السنة الدراسية السادسة وبدأت الإجازة التي سأنتقل بعدها إلى الصف الأول الإعدادي – حلم أن أشتري وأمتلك مطواة قرن غزال وزقلة.

هتفت فوزية ضاحكة وهي تفرك عينيها كالأطفال:

– زقلة؟!

التفت نحوها رجل بعمة كبيرة، فحدجه سعد بنظرة محذِّرة، ثم قال هامسًا:

– العصا الغليظة تسمى «زقلة»، كنت أحاول تقليد أبو دقن في كل شيء.

همست في فضول بلهجة صعيدية مقلدة سعد:

– أبو دقن؟!

ابتسم سعد وهو ينظر إلى الظلمة خارج شباك البيجو كأنه يستمد منها بقية الحكاية، وهمس في أذنها مكملًا...

أبو دقن هذا هو أول أسطورة تفتحت عليها أعيننا أنا ورمضان، رجل يسكن الجزيرة في عمق النيل بمفرده بعد أن قتل سبعة رجال وفر تاركًا بيته وأسرته، قتلهم جميعًا لأنهم ظلموه، وفقًا للحكاية المتداولة، قتلهم في يوم واحد مشهود في السوق وأمام كل الناس، كانوا من سبعة بلاد مجاورة لبلدة صاحبي، شاركوه في تجارة ولم يعطوه شيئًا، طالب بحقه مرارًا ولم يجبه أحد منهم، اشتد عليه الفقر ولا أحد منهم يريد أن يعترف له بحق، هدد بأن يذهب إلى العمدة والنُّقطة وكل المسؤولين فأحرقوا بيته وراح في الحريق ثلاثة من أولاده الصغار، وأنكر السبعة ساخرين علاقتهم بالأمر، لم يكن يعرف عنه الناس قبل هذا اليوم إلا الطيبة والمسالمة على الرغم من ضخامة جسده وصوته الجهوري، كانت صبيحة يوم صيفي حار، قتل السبعة واحدًا تلو واحد وسط السوق وهرب، تهاوت ظلالهم على حيطان الدكاكين، واختلط الدم بالتراب فزاد الجو رطوبة وحرارة وغمًّا، بحثت عنه الشرطة في كل مكان بلا جدوى، وقيل إنه في كهف من

كهوف الجبل البعيدة، وقيل في جزيرة بعيدة من جزر النيل، ونُسجت الحكايات عن أبو دقن المخيف الذي لا يصل إليه أحد إلا بطرق خفية غامضة، ولجأ إليه الناس سرًّا لاستعادة حقوقهم بالقوة، واستأجره بعضهم لقتل الظالمين.

كثرت القصص التي تُروى وتضخمت وزادت تفاصيلها عن الرجل، حتى جاءت الليلة الأعجب في تاريخي أنا ورمضان، كنا على سطح بيتنا نلعب حينما رأيناه يقترب، أبو دقن قاسم خلف بنفسه في بيتنا! يا لها من ليلة! ويا له من حدث! أتى متخفيًا في جنح الليل للسلام على والدي، فقد كانت بينهما محبة وود قديم، دخل المندرة بظِل ضخم جدًّا، ظل لم أرَ مثله في حياتي، ونظرت أنا ورمضان إليه في ذهول، كنت في قمة الافتتان وأنا أنظر إلى أسطورتي الحية الخالدة، أبو دقن السفاح ساكن الجزيرة، الذي لم يستطع أحد قَطُّ أن يمسك به، يقف أمامي وينظر إليَّ! كان ضخمًا، لكنه جسد بلا لحم، هيكل عظمي كبير يمسك بعصا زقلة طرفها الذي في يده مُغطى بذيل عِجل ومقسمة إلى عدة عُقل كعقل عود القصب ولكن أكثر غلظة، ووجه له لحية بيضاء غير مهذبة مختلطة بشارب أبيض ضخم نافر على جانبَي الفم الذي تفوح منه رائحة السجائر، وعينان جاحظتان مرهقتان. ابتسم لي ولرمضان، فوجدنا في فمه عددًا قليلًا من الأسنان التي نخرها السوس وبقية الفم فارغ، كان نَفَسه يتهدج مما يجعل صوته متقطعًا ليُخرج كلامًا وسط اللهاث غير مفهوم، كنت مختبئًا في ظله ورمضان يتطلع إليه، أدخلته المندرة وأنا أهمس في سرِّي: «الوحش الكاسر في بيتنا!».

جريت على السلم لأخبر أمي ورمضان يجري خلفي، ولم أنتظر الرد لأعود متزحلقًا هابطًا على درابزين السلم وأقف خارج الغرفة، أتلصص ورمضان خلفي مذهول مفتوح الفم، نراقب معًا ذلك اللقاء الاستثنائي، ووالدي يستقبل أبو دقن بالحضن، وتدور بينهما الأحاديث وأكواب الشاي، ويتبادلان السجائر، وألمح أنا ورمضان أبو دقن وهو يمسح دموعه بطرف جلبابه الداكن ويقف مودعًا والدي الذي يربت على كتفه ويدس بيده شيئًا في جيبه، ثم يخرجان معًا إلى باب البيت الخارجي ويختفي أبو دقن في الظلمة.

يعود والدي، ويطير رمضان خارج البيت ليخبر بقية الأصدقاء بالحدث الأهم، وأهتف أنا بفخر لوالدي:

– إنت جريء يا أبوي وعظيم، تقابل أبو دقن في بيتك من غير ما تخاف؟ ده كل الناس عتخاف منه!

ليرد والدي بصوت خفيض ونبرة لا تخلو من حزن:

– وليه أخاف منه؟ ده راجل طيب.

أرفع صوتي في حماس:

– قتل سبعة وطيب؟!

ليرد والدي مدهوشًا:

– أبو دقن؟! ده راجل غلبان ما يقدرش يدبح فروجة، لكن الناس تحب المبالغة.

مسحت فوزية دموعًا جرت بلا سبب على خديها، وربت سعد على كتفها وأكمل في حماس...

لم ينجح أحد في تحطيم أسطورة أبو دقن في خيالي ولا حتى

كلمات والدي، وظللت كما أنا على حالي أتخيل مع رمضان أوضاع القتال تحت بيتنا وأنا أحمل مسدساتي وبنادقي اللعبة وأقتل بها رمضان عدة مرات وأنا أصرخ: «أبو دقن محدش يقدر عليه».

هكذا ثبتت صورة بطلي داخلي، وبدأت أخطط للحصول على زقلة ومطواة قرن غزال حقيقية، تخطيط دفعني إلى أن أُخرِج حصالتي (البيت الإنجليزي) كل ليلة لأحسب الباقي على ثمن أسلحتي، وأنا أشرع في بناء شخصية مجرم صغير بداخلي لتكتمل في نهاية الإجازة الصيفية وأفاجئ بها زملاء المدرسة الإعدادية.

بجوار باب بيتنا ليلًا كان رمضان يصافح الصبي النحيف المتلفِّت عصام قرن غزال، كان أطول من رمضان، وكنت أتابع صامتًا الكلام بينه وبين رمضان الذي طلب منه شراء مطواة قرن غزال وزقلة قوية. كان ينظر إلى الأرض، فإذا رفع نظره إلى رمضان تلفت يمينًا ويسارًا، ثم هز رأسه وخط بقدمه خطًّا في الأرض، ثم عاد للنظر إلى أسفل وتأمل الخط الذي خطَّه. كان عصام قرن غزال هو الوحيد القادر على شراء المطواة والزقلة لي، وهو الباب السحري لعالم الإجرام، وهو الذي سأعتمد عليه أنا ورمضان في تكوين عصابتنا المرعبة القادمة؛ لم نكن قد عرفنا خلف بعد.

نجح عصام قرن غزال في اقتناص تحويشتي واختفى.

ابتسمت فوزية في براءة وقالت:

– قرن غزال حرامي وإنت عبيط!

ابتسم سعد موافقًا، وأكمل...

ما كان للصبيين اللذين يحفظان كل أغاني كتاب العندليب الأسمر

أن ينجحا في تكوين تلك العصابة أبدًا أو في امتلاك زقلة ومطواة، أو حتى في الانتقام من قرن غزال المتلفِّت الهارب، لكنني اكتفيت بالحزن، وهز البيت الإنجليزي الفارغ من النقود في أسى، والبحث عن شخصية جديدة أظهر بها أمام زملاء الصف الأول الإعدادي بعد انتهاء الإجازة... حتى وجدتُ ضالتي أخيرًا.

شعرت فوزية بالإثارة وهي تهز رأسها في حماس، وقال سعد في سعادة بالسيدة التي هي جمهوره الوحيد، بصوته الهامس بالقرب من أذنها حتى لا تصل القصة إلى بقية الركاب الذين نام أغلبهم وشرد الباقون...

رحلة اقتحام السيارة الخربة المهجورة الغارقة في الترعة التي تمر بجوار القرية، سيارة مات قائدها الشاب وهو في طريقه بعد شراء ذهب عروسه، قيل إن جنيَّة جميلة أحبته، وظهرت له فجأة وراحت ترقص فوق مقدمة سيارته حتى أفقدته توازنه وسقط في الترعة.

أخرجوا جثته، وظلت السيارة والجنيَّة والذهب في قاع الترعة، ووصلت القصة في آخر تحريف لها إلى مسامع رمضان، وحكاها لي نقلًا عن أمه التي زادت عليها أن من يستطيع أن يصل إلى ذلك المكان بعد منتصف الليل بمفرده ويهتف بالتعويذة، سيُفتح له باب السيارة الغريقة ويظهر الذهب لامعًا في يد الجنيَّة الفاتنة التي ستقترب منه في غرام وتقول: «غلبتني أيها الإنسي، خذ الذهب وخذ قُبلة مني تجعلك شابًّا طوال العمر».

هتف رمضان:

– بس لازم تحفظ التعويذة، ودي محدش يعرفها إلا عِزُّهُم.

بدأت الرحلة إلى خُص عِزُّهُم «أم عينين حلوة وطرحة سالحة»، كما كانت تصفها أمي التي كانت تضحك من كلامها الغريب وتقول لها: «يا خسارة جمالك يا عِزُّهُم، عينين كحيلة ومفيش بمليم عقل!». كانت عِزُّهُم وحيدة في خصها الذي تحرسه الكلاب المتوحشة، وعملًا بنصيحة رمضان ألقينا للكلاب بأرجل الدجاج، ودخلنا الخُص لنجد عِزُّهُم تنظر إلينا في رعب بعينيها الساحرتين الجميلتين، ناولها رمضان علبة الحلاوة الطحينية التي تحبها، وطلبت منها التعويذة وأنا أرتجف، فهمست بها وهي تأكل الحلاوة الطحينية بنهم وسعادة:

لو كنتِ تحت أنا كفوك
ولو كنتِ فوق أنا كفوك
ولو كنتِ جنبي أنا كفوك
يا اللي الدهب في كفِّك ويا اللي الغريق حبِّك

بعد منتصف الليل، وفي الطريق الموحش إلى الترعة خارج البلد، كنت أمسك في يدي البيت الإنجليزي الصغير الذي قررت أن أضع فيه الجنيهات الذهبية التي ستمنحني إياها الجنية، لأشتري بها سفينة تبهر كل تلاميذ الصف الأول الإعدادي، وكان رمضان خلفي ظلًّا خائفًا يجر قدميه، وكلما اقتربنا ازداد الجو برودة وظلمة، وهمس رمضان:

– إنت اللي تقرب وحدك. أمي قالت كده!

وصلنا إلى السيارة الغريقة ونحن نرتجف من الخوف والبرد، وابتعد رمضان عني. كانت السيارة خضراء منكفئة في عمق الترعة لا تظهر منها إلا مؤخرتها. الصمت لا يقطعه إلا نقيق الضفادع ونباح

الكلاب البعيدة. وضعت قدمي على حافة الترعة وهمست بأسنان تصطك:

لو كنتِ تحت أنا كفوك
ولو كنتِ فوق أنا كفوك
ولو كنتِ جنبي أنا كفوك
يا اللي الدهب في كفِّك ويا اللي الغريق حبِّك

ضحكت فوزية بصوت عالٍ، وأشار إليها سعد محذرًا من صوتها العالي الذي يدفع صاحب العِمة إلى الالتفات في فضول، وأكمل...

أنهيت التعويذة، وساد الصمت، ثم فجأة تحركت السيارة الغريقة إلى الأسفل قليلًا، حركة بسيطة جدًّا كادت تكون وهمًا لكنها كانت كفيلة بجعلي أنا ورمضان نسابق الريح لنصل إلى البيت في لمح البصر! وتحت الغطاء في سريري كنت أحتضن البيت الإنجليزي وأنا أرتعش، وأصابتني بعدها الحمى خمس ليالٍ!

همست فوزية في طيبة:

– سلامتك.

وأكمل سعد بنبرة أكثر حنانًا...

اقتربت الإجازة من نهايتها وأنا أبحث عن الشخصية التي سيُبهَر بها تلاميذ الإعدادي، لكن بلا جدوى. كانت الشمس عند الغروب حينما كنت أمام بيتنا أتأمل غيابها الرقيق في النيل. أقبلت تتهادى وهي تحمل بين يديها الإناء النظيف اللامع الممتلئ باللبن، كانت تمسك الإناء بيد تحيط به في حنان، ويدها الأخرى على فوهة الإناء النظيف المغطى، وقد انزاحت طرحتها عن رأسها فظهرت الخصلات

التي يلاطفها الهواء، وانكشفت رقبتها الطويلة التي كانت أول ما وقع عليه نظري، ثم صعدتُ بنظري إلى وجهها الخمري المبتسم بشفتين مكتنزتين منفرجتين، كأنها تتهيأ لتذوق الحلوى. شجعتني الابتسامة على النزول بنظري مرة أخرى لأتجاوز الرقبة إلى صدر مكتمل بديع، فشل الجلباب الأسود الواسع في إخفاء تفاصيله التي استطاعت شفافية شغفي أن تكشفها. وأخذت تقترب كأنها تسير بلا قدمين، حتى صارت على مسافة تجعل صوتها ملموسًا، وهمست شربات:

– أمي باعتالكم اللبن ده، لسه محلوب وسخن.

قُدتها إلى الداخل، ولكن بدلًا من أن أُدخلها إلى السلم وأصعد بها إلى أمي، أدخلتها غرفة جانبية وأغلقت الباب، وحينما سألتني أين هي، وما هذه الغرفة، أسرعتُ في ارتباك وأحضرت لها البيت الإنجليزي وقربته منها وهمست:

– شُفتِ البيت الإنجليزي؟ ده بيت ولعبة وحصالة!

تأملت البيت بدهشة حقيقية وهي ما زالت تتشبث بكلتا يديها بالإناء. اقتربت منها، فتراجعت واهتز اللبن في الإناء، وقلت بصوت متهدج:

– شربات، إنتِ أول قصة حب في حياتي، إنتِ القصة اللي حاحكيهالهم كلهم، بعد الأجازة...

ابتعدت فوزية في ضيق ونفور وغضب وهمست:

– قليل الأدب وعينك زايغة!

زادته غيرتها حماسًا فأكمل وهو يقترب بفمه من أذنها التي ابتعدت...

أتى صوت كحة والدي وخطواته التي تقترب فتجمدت مكاني، ثم بدا صوت خطواته وهو يصعد السلم، وانتظرت حتى غاب صوت الخطوات تمامًا، وسحبت منها إناء اللبن، أمسكته بحرص بيد واحدة، وناولتها البيت الإنجليزي وأنا أبتسم لها ابتسامة تشبه – كما ظننتُ – ابتسامة عبد الحليم حافظ على غلاف الكتاب، وكان قلبي يدق لها في شوق طاغٍ، وفتحت باب الغرفة وهمست قبل أن أغلقه عليها:

– استنيني.

صعدت بإناء اللبن في حرص شديد، وناولته لأمي لاهثًا وأنا أقول:

– شربات جابت اللبن ده ومشيت.

تركت الإناء بين يدَي أمي وعدت مسرعًا، وهبطت السلم كعادتي زحلقةً على الدرابزين، وفتحت باب الغرفة المغلقة ولم أجد شربات ولا البيت الإنجليزي.

صفقت فوزية وهي تردد في شماتة:

– أحسن! أحسن!

ومالت عمامة الرجل الذي أمامهما إلى الأمام، وأدرك سعد أنه نام، فابتسم لفوزية وأكمل منهيًا قصته...

في اليوم الدراسي الأول بعد الإجازة الطويلة كنت أقف مع رمضان بين التلاميذ صامتًا خجولًا، أهمُّ لحظةً أن أكون أبو دقن، ثم أتراجع، ثم أشرع في التحدث عن الجنيَّة التي قبَّلتني ومنحتني الذهب ثم أصمت، ثم تمر شربات أمامي في ذاكرتي وهي تحمل إناء اللبن فينعقد لساني. استعرض كل واحد منهم أمامي مغامرته الكبرى،

وكذب رمضان وحكى قصة مختلقة جمعته بثعلب على الطريق وقت الغروب، وقبل أن ينفضوا من حولي هتفت فجأة:

- أنا الأجازة كلها كنت ساكن في البيت الإنجليزي!

التفت الجميع إليَّ في فضول، وسألني أحدهم:

- إيه البيت الإنجليزي ده؟

وبدأت الكذب المنظم الذي أذهلهم جميعًا!

ابتسمت فوزية وقالت وهي تغالب النعاس:

- مجرم فاشل إنت يا عيسى! بس كداب ودمك خفيف!

* * *

كان فايز يعاني الوحدة وضيق الشرايين، وزادت عصبيته، وصار سريع الغضب، لم يعد يتحمل أحدًا. ماتت زوجته وتركته وحيدًا، حاول أن يتأقلم كثيرًا لكنه ظل رافضًا فكرة الموت، وانعكس ذلك على علاقته بولديه. أقسم على أحدهما إنه لن يدخل له بيتًا بعد أن تركه في منزله بمفرده مع حفيده وزوجته واستأذن بحجة موعد عمل مهم ولم يعد، وتعمد فايز أن ينتظره حتى الساعة العاشرة مساءً، ثم عاد إلى بيته وسجل له رسالة صوتية أقسم له فيها إنه لن يدخل بيته، وحاول ابنه أن يزوره بعدها ولكنه لم يفتح له الباب فانصرف الشاب غاضبًا ولم يكررها. وظل يتردد على الثاني حتى سافر هو وزوجته بطفليهما إلى الخليج، وظلت الحياة بينهما مكالمات ورسائل على واتساب، أصيب بعدها بذبحة صدرية، وزاره ابنه في المستشفى وحاول ترضيته، وطلب منه أن يقيم عندهم بعد الخروج من المستشفى لكنه رفض وظل وحيدًا في شقته، وحافظ على قسمه

ولم يدخل بيت ابنه ثانية. اقتصرت زيارة الابن وأسرته الصغيرة له في شقته على فترات أفسدها فايز بعصبيته على ابنه وحفيده وزوجته. كان يتضايق من العبث بالأشياء التي رتبها بنفسه، ويعلو صوته زاعقًا في حفيده المشاغب الذي أفسده التدليل مثل أبيه، ولا ترتاح الزوجة لتلك الإهانات فتنسحب غاضبة، ومع الوقت صارت لا تصحبه في زيارات الأب، واقتصرت الزيارات على أوقات قليلة لا تتجاوز نصف الساعة، يطمئن فيها الابن على صحة أبيه، وغالبًا ينهيها الأب سريعًا بجملة: «ما تقعدش تبص في ساعتك كتير، وراك حاجة امشي».

عانى فايز كثيرًا آلامًا تهاجم صدره في وحدته، وظل يتخوف كثيرًا من موت مفاجئ وهو بمفرده في شقته، ولم تزده هذه المخاوف إلا عنادًا وعصبية، وكانت ساعات الليل هي الساعات الأكثر قسوة عليه؛ لا يذوق فيها طعم النوم، وحينما تسطع الشمس ويبدأ الضجيج في الشارع يخلد فايز إلى النوم. لكن طريقة معاملة غزالة له في الفترة الأخيرة زادت من توتره، ولم يفهم لماذا يعامله ذلك الرجل بتلك العدائية؛ كان في السابق ودودًا ومبتسمًا. صحيح أنهما لم يكونا يومًا صديقين، وكان فايز يتعامل معه في السابق بتوجس لأنه يراه رجلًا ناعمًا يتعامل مع النساء بطريقة لا تليق؛ رآه في مدخل العمارة يسلم على زوجته وينظر إليها بعينين جريئتين، وبصوت هامس ورقة مبالغ فيها يسألها عن أحوال زوجها، ليفاجئه فايز يومها:

– أنا زي الفل يا سيدي، وبعدين ما إنت بتشوفني كل يوم، عمرك ما سألت عن حالي! ليه لما شُفت المدام سألتها؟!

سحبها فايز من يدها وصعد، وقال لها يومها بشكل قاطع:

– ما تسلميش على الراجل النمس ده تاني، ده مدرس اترفد من مدرسته علشان بيكتب جوابات غرام لتلامذته البنات الأصغر من بنته!

ومرت الأيام، وماتت زوجة فايز وزوجة غزالة، وفايز على حاله من غزالة، لا يرتاح له ويعامله ببرود، ليفاجأ بغزالة تلك الأيام يعامله بذلك العنف وقلة المحبة، لا بد أن ذلك الرجل قد بلغه شيء ما، أو ربما يفكر في شيء سيئ تجاهه، هكذا عقد العزم على أنه لن يسكت على سخافات غزالة بعد اليوم وسيرد له الصاع صاعين.

ظل غزالة ليالي طويلة يقف خلف الباب ينظر من العين السحرية يراقب خروج فايز ودخوله وفي يده السكين، كان متحفزًا وقلبه يدق دقات متسارعة ويده تقبض على السكين بشكل مبالغ فيه، كان يفكر كثيرًا: هل يستطيع إذا هاجمه فايز أن يسدد له طعنة قوية كفاية؟ فيزداد ارتباكًا، هو غير واثق من أن يده ستكون ثابتة لحظتها، وربما طاشت الطعنة وتمكن بعدها فايز من قتله. كان هذا الهاجس كفيلًا بجعل يده ترتعش. طالت المراقبة، وها هو فايز يخرج من شقته مسرعًا بشعر أشعث ويتجه إلى باب شقة غزالة الحديدي، دقات متتالية بعنف شديد. «لقد أتت اللحظة يا غزالة»، هكذا حدث غزالة نفسه. زادت دقات فايز عنفًا وزاد وجهه احتقانًا، وتردد غزالة كثيرًا قبل أن يقرر فتح الباب وإنهاء كل شيء. فتح غزالة الباب الخشبي ثم الحديدي، ووقف في وجه فايز شاهرًا سكينه، لتتسع عينا فايز ويقع على الأرض وسط ذهول غزالة الذي ظن أن سكينه قتلت فايز من غير أن يطعنه!

شعر فايز بآلام أزمة قلبية، فاستنجد بغزالة. وفي المستشفى قضى

غزالة ليالي بجوار فايز حتى يسترد عافيته، ودارت بينهما أحاديث مليئة بالصراحة، أنكر فيها غزالة ظنون فايز بشأن نظرته إلى زوجته، وأوضح فيها سبب خروجه بالسكين عليه، وأن الأمر كله مبني على سوء فهم عظيم. لم يطلب منه فايز حتى شرح تفاصيله، وعادا معًا كل واحد إلى شقته، لتبدأ بينهما حياة جديدة لم يتوقعها أيٌّ منهما.

صار فايز ينتظر غزالة كل ليلة، وفي ليلة قالها له صراحة:

– مش عايز النوبة تجيني وأموت لوحدي في الشقة!

وطلب فايز من غزالة أن يسأل عنه كل ليلة حتى لا يخطفه الموت وحيدًا، فإن فتح له الباب فهذا يعني أن الأمور مرت بسلام وسيكملان السهرة معًا، وإن لم يفتح فعليه أن يتصل برقم ابنه ليتسلم جثته. وظل ذلك العهد بينهما ليالي طويلة، وفي كل مرة كان يفتح له فايز الباب ضاحكًا:

– لسه الإذن ما جاش، اتفضل يا غزالة.

٥
سر غزالة

حياة جديدة بدأت بين غزالة وفايز، انطوت على عديد من المصارحات والحوارات والألعاب أيضًا، صارت هدايا غزالة لفايز هي ألعاب تساعد على قضاء الوقت والمرح، أحضر له أول مرة كوتشينة، وظلَّا يلعبان «الكومي» لساعات طويلة، ثم أحضر له الطاولة، وظلَّا يلعبان بها بنوعيها – العادي والمحبوسة – وفي المرة الأخيرة أحضر له الشطرنج، لم يتحمس له فايز كثيرًا وقال:

– دي لعبة عايزة مخ، وعايزين نكمل حياتنا من غيره.

وفي أثناء اللعب كانت الحوارات بين الصديقين الحديثين والجارين القديمين تطيح في كل اتجاه بلا حواجز، تتخللها أحيانًا ابتسامات تتصاعد حتى تصير ضحكًا عاليًا، وأحيانًا دموع خفيفة يمسحها غزالة وهو يتوهم أن فايز لم يرها، فيما فايز يشيح ببصره متظاهرًا بالانشغال بشيء ما ومُخفيًا دموعه أيضًا. كانت الدموع مرتبطة بالماضي غالبًا، أما الابتسامات والضحكات فغالبًا ما كانت

تأتي سخرية من مستقبل لن يجيء. احتقن وجه فايز بعد أن تغلب عليه غزالة للمرة الألف في لعبة الكوتشينة وهتف في ضيق:

– إنت غشاش!

امتص غزالة غضب فايز وهو يعيد تفنيط وترتيب أوراق اللعب، ونظر إلى عينَي فايز مباشرة:

– وهو اللعب من غير غش هيبقى إيه طعمه؟!

تحدثا في كل شيء، النساء، والجنس، والعمر الذي يجري، والموت الذي يقترب، ورعب فايز من فكرة الموت وعدم تصديقه لها. تحدثا عن الأولاد، والعقوق، والبر، والأجيال التي سبقتهما والأجيال التالية، والتعليم، وكرة القدم، والسياسة. عقدا مقارنات بين الفن والأسعار والأخلاق في الماضي وماذا حدث الآن. رأيا مستقبلًا غامضًا تنتظره الأجيال القادمة، وحمدا الله أنهما عاشا في العصر الأجمل. وفجأة قال غزالة ما كان يخشى أن يقوله طوال الوقت:

– مش أنا فيه حد من تلامذتي بتوع زمان جه زارني ومعاه واحدة!

انتبه فايز بكل حواسه، وشعر بأنه أخيرًا أمام قصة جديدة خارجة عن المعتاد والمكرر من كلامهما، ونظر إلى غزالة نظرة شغف وفضول كانت كافية لشحن طاقة غزالة الذي حكى له الزيارة بالتفصيل، وختمها قائلًا:

– بس الست اللي معاه سألتني سؤالين غُراب جدًّا قبل ما تمشي، قالتلي «هو إنت خرجت من السجن إمتى؟»، والسؤال التاني «مش إنت قتلت جارك وأخدت تأبيدة؟».

تجمد فايز مكانه، وبدأ غزالة يشرح له سر معاملته القاسية له،

وأنه ظن أن الرجل والمرأة يعبِّران عن نية فايز في قتله، وهذا ما زاده تحفزًا تجاهه.

زاد صمت فايز، حتى إن غزالة بدأ يشعر بالقلق الشديد، وقبل أن تلعب الظنون برأس غزالة همس فايز في خوف حقيقي:

- بيجسوا النبض.

لم يفهم غزالة معنى كلام فايز، فنظر إليه نظرة تحثه أن يكمل كلامه.

بلع فايز ريقه، وقال هو يتحاشى النظر إلى عينَي غزالة:

- الراجل والست جايين يعاينوا بيتك الأول قبل ما يسرقوك أو...

ساد صمت مخيف أكثر، وهمس غزالة في توتر:

- أو إيه؟

رد فايز في حزن:

- أو يقتلوك. الناس بتدوَّر دلوقتِ على العواجيز اللي عايشين لوحديهم!

فهم غزالة، وقال بارتباك مستنتجًا:

- علشان يسرقوهم؟

هز فايز رأسه بالنفي، وقال مصححًا ومكملًا:

- ويقتلوهم. هي سألتك إنت خرجت من السجن إمتى علشان تخضك، وبعدين سألتك إنت قتلت جارك، وهي تسأل وإنت طبعًا باصصلها ومستغرب، بينما الراجل اللي معاها مشغول بيك إنت وبيحلل كل حاجة فيك، نظرتك، وارتباكك، وأول ما هتخاف هتبص فين، ومن المراقبة دي هيعرف إنت مخبي

حاجتك فين، عينيك هتلتفت يمين ولا شمال، لأن دماغه بيسجل كل ده. بس يوم ولَّا اتنين، أسبوع ولَّا اتنين بالكتير، وييجوا ويخشوا شقتك ويقتلوك وياخدوا تحويشة عمرك ويمشوا.

بعد كلمات فايز طالت نظرات غزالة الصامت إليه، وأخذ يزن كل كلمة من كلمات جاره بميزان حساس. العجيب أن الكلام بدا منطقيًّا ومعقولًا جدًّا لغزالة:

– الحمد لله إننا سوا.

رد فايز بسرعة:

– ما دام جابوا سيرة جارك يبقوا عينهم علينا إحنا الاتنين، مفيش اتنين ساكنين لوحدهم في العمارة كلها إلا أنا وإنت.

قلَّب غزالة وفايز كل الاحتمالات الممكنة، ناقشا كل الحلول، بدايةً من أن يحمل غزالة كل أشيائه الثمينة ويضعها عند فايز ويقيما معًا في شقة فايز، ويراقبا اللحظة التي يحاول فيها الرجل والمرأة اقتحام شقة غزالة فيوقعا بهما، مرورًا بفكرة الإبلاغ عن الرجل والمرأة وترك مواصفاتهما كاملة لدى قسم الشرطة، وختم فايز الاقتراحات بضرورة ذهاب غزالة للنوم الآن، وإعادة مناقشة الأمر بالتفصيل أكثر غدًا مع بدايات الليل.

وعلى باب شقة فايز عند وداع غزالة قال فايز:

– محدش عايز اللي في سننا دلوقتِ، لازم ندافع عن نفسنا، هو الراجل والست دول كانوا جايين أصلًا يزوروك ليه؟

على بسطة السلم بين الشقتين حكى غزالة لفايز قصة سعد

وسوزان – التي هي فوزية – بشكل مختصر، وأخبره أنه تلميذ وشى به في الماضي لدى الناظر بأنه هو الذي يكتب الجوابات الغرامية للتلاميذ نيابة عنهم حتى يرسلها كل تلميذ إلى الفتاة التي يحبها. هز فايز رأسه متفهمًا وقد استبد به السهر وقل تركيزه وسار مع غزالة حتى شقته.

فتح غزالة باب الشقة الحديدي ثم باب الشقة الخشبي، ودعا فايز للدخول بكلمة «اتفضل» على سبيل الاعتياد، ولكن فايز دخل بالفعل، ونسي أنه نصح غزالة بالنوم، وجلسا معًا في صالون شقة غزالة وقد استعاد فايز يقظته فجأة، وبدأ غزالة في تحضير القهوة، وحينما ارتشف فايز رشفته الأولى من فنجان القهوة اختلجت عيناه وأخذ يربت على ركبتيه بشكل منتظم:

– كده يبقى مظلوم، لأنه لو ده تلميذك بجد وحكى حكاية حصلت يبقى مش جاي يقتلك زي ما قلنا.

نظر إليه غزالة مستنكرًا:

– ما إنت اللي أقنعتني إنهم قتالين قُتلة!

هز فايز رأسه في ضيق:

– ما كنتش أعرف قصة المدرسة دي، إنت ما حكيتهاش.

ساد بينهما الصمت من جديد عدا صوت رشفات القهوة، وأنهى فايز فنجانه وهمَّ بالوقوف، لكن غزالة قرر فجأة أن يصارح فايز بسر خطير، تردد كثيرًا قبل أن يبوح به لأحد، قال وهو يمسح جبينه ويرتشف رشفة من فنجان القهوة:

– فايز، أنا عايز أقولك حاجة علشان أرتاح.

انتبه فايز وهو سعيد بقدرة غزالة على إثارة انتباهه بعد أن ظن أنه فقد تلك القدرة على الانتباه لأي شيء، وهمس بصوت يُفهم منه أن يكمل غزالة كلامه، فقال غزالة بنبرة كلها ألم وصدق:

– أنا حبيت هالة، وفعلًا كتبتلها جوابات، وكنت عارف إن فيه تلميذ بيحبها، والتلميذ ده طلب مني أكتبله جواب حب لهالة، كتبت بكل مشاعري أنا، بأسلوبي ولغتي، كان ناقص بس نبرة صوتي، لو قدرت أسجلها مع الجواب كنت سجلتها، كان نفسي تقرا جواب الواد وتعرف منه إني أنا اللي كتبت، حبيتها بجنون، كنت باشوف لهفتها وهي خارجة من الفصل وعينيها بتدوَّر على حبيبها أتجنن، صغيرة وأصغر من بنتي لكن مش مشكلة هو ده اللي حصل، حيرتها لما حبيبها يتأخر عليها كانت هي نفس حيرتي لما أخرج من الفصل وما ألقاهاش، كتبتلها جواب واتنين وتلاتة، وكل جواب يزود حبها للواد أكتر، كنت باشوف في عينيها وهي بتسلم عليه أثر كلامي، أنا كنت عايز أروح أزقه وأقولها «اللي إنتِ حاسة بيه ده كله هو حبي أنا مش حبه هو!»، صحيح كنت باكتب جوابات لكل الولاد يبعتوها للبنات بأساميهم، لكن جوابات هالة كانت حاجة تانية، ولما الموضوع اتفضح وأبو هالة جه المدرسة والتلامذة قالوا إني أنا اللي باكتبلهم الجوابات مشوني من المدرسة واتنقلت سنتين آخر الدنيا، كل ده ما كانش مهم، المهم عندي إني أشوف وأنا خارج من المدرسة عينين هالة بعد ما عرفت إني أنا اللي باكتبلها الجوابات، ده أهم حاجة

في الدنيا. وفعلًا، على باب المدرسة كانت واقفة وسط زمايلها البنات، وجت عيني في عينيها، وما كانش في عينيها حب، كان في عينيها حبيبها بس، وخرجت من المدرسة وأنا خسران كل حاجة!

خيم الصمت على فايز وغزالة، وتبدلت ملامح فايز الذي أربكته القصة جدًّا، وظل يحدق إلى غزالة تحديقًا كاد يدفع غزالة إلى الهرب من أمامه، لكنه همس أخيرًا:

– سبحان الله! الحكاية دي لو عرفتها عنك قبل كده كنت هاقعد أشتم فيك للصبح، لكن علشان عرفتك أكتر حاسس إنك عيل وطيب وقلبك حلو!

مع الأسف، لم يستمع غزالة إلى تلك الجملة، وغرق في نوم عميق على كرسيه، فقام فايز في هدوء وغادر شقة غزالة، وشعر وهو يغلق الباب الخشبي ثم الحديدي ويتجه إلى باب شقته بأنه يحب غزالة جدًّا، حبًّا أكثر مما كان يظن ويتوقع.

* * *

ترك سعد فوزية في نفس الميدان الذي رآها فيه، تركها وعيناه تفيضان بالدمع وهو يهمس:

– لم أستطع أن أكون عيسى يا سوزان!

تركها واتجه إلى سيارة من سيارات الأمن التي تقف عند ناصية شارع، وأخبر الضابط الجالس في مقدمة السيارة بكل شيء:

– عارف إنه مش اختصاصك، بس يا ريت حد تبعكم ييجي ياخدها ويسلمها للقسم، والقسم يسلمها لأهلها، أكيد بيدوروا عليها.

– وإنت مين؟

سأله الضابط وعيناه معلقتان بالسيدة التي أشار نحوها سعد، فرد سعد باقتضاب:

– عيسى. أنا لقيت الست دي وعرفت ظروفها ولازم ترجع بيتها.

رد الضابط:

– تمام.

أشار الضابط إلى عسكريين بجوار السيارة، وأمرهما بإحضار السيدة إلى سيارة الشرطة.

* * *

ظلت الأحاديث الطويلة تدور بينهما كل ليلة حتى مطلع الفجر، وبقي العهد القائم بين فايز وغزالة، لم يكسره غزالة ليلة واحدة، ما عدا تلك الليلة. لم يسأل فيها غزالة عن فايز ولم يطرق بابه في الموعد المعتاد، مما دفع فايز إلى أن يذهب هو ويرن الجرس طويلًا، لكن لا أحد يرد، وحده فايز أمام الباب الحديدي المغلق، مرت الساعات الطويلة عليه وهو لا يكاد يمسك دموعه، وأمام الباب ابنة غزالة وزوجها وحفيده الذي تغطي أمه عينيه بكفها طوال الوقت، ورجال الأمن يفتحون أخيرًا الباب الحديدي ثم الخشبي، ليجدوا غزالة نائمًا على كرسي الأنتريه مبتسمًا وقد غادر الحياة، وإلى جواره ورقة بخط يده يُذكِّر فيها نفسه بموعده الليلي:

«ما تنساش تعدي على فايز تطمن عليه يا غزالة».

جلس فايز وحيدًا بعد ليلة لا أول لها ولا آخر، وكانت الشقة بحرًا

ساكنًا من الحزن، جلس فايز على موجه الراكد حزينًا يتذكر غزالة، صديقه الوحيد الذي أهداه الزمان إياه في آخر أيامه.

* * *

عادت سوزان – التي هي فوزية – إلى بيتها، وكذلك عاد عيسى – الذي هو سعد – إلى شقته، بعد أن قالت سوزان للضابط:

– عيسى طيب ومش مؤذي، هو صحيح حاول إنه يكون مجرم لكنه فشل لأنه طيب، وقرن غزال خد فلوسه، وشربات خدت منه البيت الإنجليزي.

كانت سوزان غاضبة جدًّا من عيسى، ولا تفهم لماذا عاد بها ليسلمها إلى الشرطة ويتركها بدموع لامعة! صحيح أن سيدة أتت بعد ذلك واحتضنتها بقوة، لكنها كانت غاضبة جدًّا منها حينما كانت تناديها «فوزية»، وها هي الآن بمفردها تبكي وتفتقد عيسى بشدة، ويؤجج هذا الفقد غضب كبير؛ هي لا تعرف لماذا تركها فجأة، ومَن هذه السيدة التي احتضنتها، ولماذا حينما دخلت تلك الشقة أجهش رجل بالبكاء وكاد يحتضنها لكنه تراجع واكتفى بتقبيل يدها!

دخلت فدوى عليها وجلست بجوارها في صمت، صمت لا يخلو من حنان، كانت مشاعر الأخوَّة موجودة بداخل فدوى على الرغم من كل شيء، كانت تشتاق إلى شقيقتها على الرغم من معاناتها الشديدة في وجودها، هي تعلم أن زوجها يحب أختها، لكنها تعلم أيضًا أنه لا ذنب لفوزية في ذلك، احتضنت أختها بقوة وهمست:

– وحشتيني يا حبيبتي! وحشتيني يا فوزية!

ابتعدت عنها سوزان في ضيق وسألتها:

– فوزية مين؟ أنا سوزان!

في شقته، كان سعد بمفرده يحاول أن يستعيد نفسه، لقد اتخذ قراره بإعادة سوزان إلى الشرطة في اللحظة التي شعر فيها بأنه يحب هذه السيدة حقًّا، لم تكن لديه القدرة على تحمل الأمر، همس: «القصص يجب ألا تستمر إلى الأبد، قلبي لن يتحمل مزيدًا من الذكريات، أنا أضعف كثيرًا من الحب الحقيقي، العابر من المشاعر هو الذي يليق بي، أما سوزان فهي تحتاج إلى عيسى حقيقي، أما أنا فلا بيت لي إلا بيت الوهم».

الفصل الرابع

سكان الفضاء الإلكتروني

١
أحمد حسن

وُلد أحمد حسن في يوم خاص، فور ولادته أمسك بالقلم وكتب، فكان مشهدًا عجيبًا جعل أحد الأقارب – امتنانًا لتلك المعجزة – يُهديه آيباد في سُبوعه، ووسط الحلوى والشموع والفول السوداني أضاء وجه أحمد حسن بنور الآيباد كأنه وليٌّ، ومد أصابعه وكتب:

«في هذا اليوم أضاء وجهي نور عجيب».

نفر بعض الموجودين في السبوع من المولود، وهلل البعض، وخافت عليه الأم من الحسد فسجنته في غرفة صغيرة لمدة عامين لا يراه أحد سواها، وتركت إلى جواره حفاظاته وآيباده وبزَّازة ممتلئة.

يقال إنه وُلد أطفال كثيرون مثل أحمد حسن في أماكن شتى من العالم، ولهم – مثله – من اليوم الأول حسابات على فيسبوك وتويتر وإنستجرام، لم يعد الأمر مستغربًا إلا في الأماكن الفقيرة فقرًا تقليديًّا والمجتمعات التي تحكمها الأعراف القديمة.

ظل الرضيع أحمد حسن عامين كاملين في منفاه الطفولي الذي اختارته له أمه وحيدًا يأكل ويشرب ويبكي ويصرخ، ويكتب قصصًا

على الآيباد وبوستات لاقت إعجاب الكثيرين. لم يصدق أحد أن تلك الحسابات والصفحات والبوستات والقصص العجيبة يكتبها رضيع لم يكمل عامه الأول بعد.

كان يومًا ليس سهلًا على الجميع، والجميع هنا هم حسن ورباب وابنهما أحمد بالتأكيد، الذي رفض الخروج من الغرفة التي اعتادها على الرغم من كل الإغراءات، وأخذ يطلق على أمه وأبيه طلقات رصاص وصواريخ ومدافع، بل رشقهما بقنابل هائلة من خلال «الجيمز» التي يمتلكها على الآيباد، ولم يرضخ إلا بوعد من الأم بعمل «أبديت» لكل ما لديه من برامج.

عامان يمران على أحمد حسن لم يغادر فيهما مكانه إلى جوار الآيباد، يأكل فقط ويكتب على الشاشة المضيئة، وحينما زاد وزنه بشكل ملحوظ وعجزت رباب عن حمله أحس بضيق، لكنه استطاع بسرعة أن يعالج ذلك، وأنشأ صفحة جديدة على فيسبوك سمَّى نفسه فيها «ريشة»، واستطاع بالفعل بعدها أن يصير خفيفًا ويحلِّق من حساب إلى حساب ومن صفحة إلى أخرى، والتقط لنفسه صورًا قريبة لوجهه فقط وهو يبتسم، حصدت «لايكات» كثيرة على إنستجرام، وتعليقًا لطيفًا من سماهر عن وسامته جعله يضيفها فورًا، ويقرر أنها حبيبته القادمة وقصة حبه التي سيحكي عنها في «النوتس» الخاصة به التي لا يطلع عليها أحد.

لأحمد حسن عديد من الجيران يزورونه كثيرًا، خصوصًا أن الزيارة لا تحتاج منه إلا إلى أن يكون «أونلاين»، وهو تقريبًا «أونلاين» طوال الوقت، حتى في ساعات النوم يظل حسابه مفتوحًا للزائرين والجيران.

في النوم تهاجم الكوابيس أحمد حسن كثيرًا، ويرى نفسه يسير في الشوارع ويختلط بالناس بشكل مباشر، ويتحدث إليهم ويلمسهم ويشم رائحتهم ويشعر بهم ويواجههم، كابوس مرعب يشبه الأفلام التي يراها على يوتيوب لبشر يمارسون الحياة المباشرة، فيقوم مفزوعًا يجري إلى الآيباد، ويتأكد من وجوده حرًّا طليقًا في عالمه متعدد النوافذ، ويجدد صورته على إنستجرام، ويطمئن إلى أن الكابوس قد انتهى، ويكتب في إطار البحث في جوجل «قصص مثيرة وممتعة ومخيفة عن أولئك الذين مروا بتجربة الحياة المباشرة»، ويغمض عينيه في هلع متمتمًا: «الحمد لله».

سيظل ذلك اليوم هو الأكثر رعبًا في تاريخ أحمد حسن، كان غارقًا في صفحاته يستمع إلى ما يحب من موسيقى، محتدمًا في حوار ساخن مع خمسة أصدقاء في وقت واحد، حينما اقتحم الغرفة طفل مباشر عادي وأخذ يشده ليلعب معه ويحاوره ويقترح عليه ألعابًا عجيبة، كان الطفل هو «سمسم» كما تناديه أمه، وهي الجارة نيفين، وكان سمسم مُصرًّا على أن يمسك وجه أحمد حسن عند الكلام حتى يوجهه نحوه كلما هرب منه إلى أي جهة، وحينما يئس سمسم من أي تجاوب شرع في تحويل المكان إلى ملعب للكرة، كرة بلاستيكية ملونة يصر على أن يركلها بين المقاعد ويطلب من أحمد أن يعيدها إليه، فما كان من أحمد إلا أن التقط له صورة ووضعها على صفحته على فيسبوك وكتب تحتها «استغاثة»، وطلب النجدة من مخلوق مباشر اقتحم غرفته، وتتالت التعليقات والاقتراحات الشريرة التي نفذ أحمد حسن آخرها بجعل أصوات تخرج من

الآيباد، تنادي سمسم وتأمره بالخروج من الغرفة إلى الصالة ومنها إلى باب الشقة والشارع من أجل شخص ينتظره بالشوكولاتة البيضاء، وحينما اختفى سمسم من المكان خلف النداء استراح أحمد حسن، ولم يشعر بعدها بأي ندم. وحينما كانت تأتي الجارة نيفين تشكو للأم رباب غياب وحيدها سمسم الذي اختفى منذ أشهر ولم تجد له أثرًا، كان يبتسم ويهمس: «لم يحدث شيء، لقد صنعت له البلوك المناسب لا أكثر».

سماهر ويحيى وربيع وهنادي ومُهرة، هم أصدقاء أحمد حسن الأقربون، كوَّن الستة أول جروب على فيسبوك، وهم حديثو الولادة، كان اسم الجروب «أعداء الحياة». كان الاسم اقتراحًا من سماهر، ولاقى استحسانهم جميعًا، عدا يحيى الذي كان مرهفًا ومشبعًا بالموسيقى وقصص الحب، لكنه أذعن لرأي الأغلبية خصوصًا بعد أن فسر له أحمد حسن العنوان بأنه ليس عداءً للحياة في المطلق، لكنه عداء للحياة المباشرة المقززة التي تعتمد على اللقاء المباشر والتلامس والخروج إلى الشوارع، هي حياة زائفة مليئة بالأكاذيب، والعداء معها واجب كل مولود يشبههم، كل مولود وجد نفسه مكتملًا في العالم الافتراضي. صفقت سماهر تصفيقة إلكترونية مدوية إعجابًا بالشرح الذي شرحه أحمد حسن، وأرسلت إليه «لايكات» وقلوبًا حمراء ورسالة عذبة في «الإنبوكس»، صارحته باسمها الحقيقي، ليلى، وصارحها هو بأنه ليس «ريشة» كما يظهر على الصفحة، وأنه أحمد حسن.

سهر ليلتها أحمد حسن حتى الصباح متنقلًا بين كل التطبيقات

فرِحًا لا يأتيه النوم، وقال في فخر بصوت سجله حتى يخلد تلك الذكرى: «آن لأعداء الحياة أن يكونوا أسرة مُهمة».

كان الاجتماع الثاني لجروب «أعداء الحياة» هو الاجتماع الذي قنن فيه الستة بنود الشر لإفساد حياة أصحاب الحياة الطبيعية المباشرة.

ضغط أحمد حسن بكل عنف على «الكيبورد» قاذفًا بجملة حركت باقي النفوس:

«لا بد أن نواجههم، شئنا أم أبينا، إننا مختلفون عنهم في كل شيء، وكل مساحة جديدة نكسبها يجب أن تكون خسارة لهم».

أضافت سماهر وهي لا تدري أنها تخلق قانون أعداء الحياة الذي سيغير كثيرًا من تفاصيل الحياة في المستقبل:

«على العالم أن يعي أن هناك نوعين من الكائنات: كائنات عصرية وُلدت على أرضية وسائل التواصل الاجتماعي، وتميزت بما يتميز به أبناء ذلك النوع من الوسائط السيبرانية، فنحن حديثو الولادة على الدوام ولكن ناضجون أيضًا، لن يصيبنا ما يصيب الطبيعيين من شيخوخة ومرض، ولن تحكمنا أغراضهم ومصالحهم الضيقة».

وأكمل يحيى «المانفستو» وكتب:

«علينا أن نكون مؤثرين في حياة الأشخاص الطبيعيين بخلق جيل كامل تحت إشرافنا من أجيال مواليد الفضاء

السيبراني، تحكمه قوانين محددة ويستطيع التدخل في كل مناحي الحياة الطبيعية».

وأكملت هنادي:

«ليكن لنا شعار وأيقونة تُظهِر توجهنا وقوتنا».

واختار الجميع أيقونة قبيحة لرأس أصفر له عين واحدة حمراء.

كتب ربيع:

«لقد انتهى اليوم العالم القديم وبدأ عالم جديد قوي صنعه آلهة صغار حينما كوَّنوا معًا مجموعة «أعداء الحياة»».

ورفعت مهرة إصبعًا إلكترونية تُعلن موافقتها، فهي الاقتصاد في التعبير.

٢
بيت الوهم

في البداية حاول سعد كثيرًا أن يكتب شيئًا بعد أن ترك سوزان – التي هي فوزية – في المكان الذي وجدها فيه، لكنه سرعان ما كان يتوقف عن الكتابة ويشعر بالضيق والرغبة العارمة في الهرب، الهرب من كل شيء، لكنه هذه الليلة قرر أن يظل في شقته بلا خروج، أمسك القلم وكتب:

«الانتظار، الشجر الذي يجري خارج شبابيك القطار وتتابعه كأنك تنتظر مفاجأة، اللقاء والوداع، الأحضان التي لم تحدث، شبابيك المستشفيات، باب غرفة العمليات والمسافة خارج الغرفة الممنوع تجاوزها لذوي المريض، المقاهي الصغيرة جدًّا في الشتاء على النواصي في الشوارع الجانبية في وسط البلد، وفتاة تخرج باكية ولا تجيب عن أسئلة الفضوليين المتحمسين لدفء الكلام، كلب لا يبالي بأحد يتمطى فوق سيارة مغطاة منذ سنوات وصار

سطحها بيته المفضل، المجذوب العاري الذي يلتف ببطانيته ويضحك بلا فرح ويهرش ويشرب نصف سيجارة وينظر إلى العالم في احتقار، الشاب والفتاة المتشابهان، نفس الشعر المهوَّش المنكوش والبنطلون الجينز المهترئ والحقيبة على الظهر والإيقاع النشيط، وكلاهما يحيط ظهر الآخر بذراعه، الأجنبي الذي يرتدي جلبابًا أبيض مطرزًا ويحتضن كتابًا ضخمًا وأكثر من مسبحة على رقبته ولحية حمراء، أولئك الذين يسهرون في الجرن تحت النجوم داخل الغيط في الصعيد، والسيدة التي تحتضن طفلها ليلًا وحيدة في الميدان البارد وإلى جوارها علب كبريت للشحاذة وليست للدفء، كل ذلك يجعله يحاول أن يكتب، لكنه لا يستطيع».

همس بصوت حزين: «أنا كاتب فاشل».

ترك الورقة والقلم واتجه إلى جهاز الكمبيوتر وغرق في عالم الإنترنت السحري وشرد في تفاصيله:

الصورة أسفلها لمبة خضراء على «ماسنجر» الفيسبوك، والساعة تشير إلى السادسة صباحًا، في ركن الشاشة هذه أحزن لوحة إنسانية يمكن أن تقع عليها العين، وهؤلاء هم الحزانى حقًّا، مَن دفعتهم وطأة الوحدة والغربة إلى أن يظلوا معلقين مصلوبين في ذلك الفضاء الإلكتروني.

شبابيك حزينة متراصة لجيران جمعهم الفضاء، جيرة إجبارية

واختيارية في نفس الوقت، شباك داخله صورة يعلن أنه مفتوح «أونلاين»، قابل للتحدث مع الجميع والمشاركة، وقابل للرفض والصمت ومتابعة الآخرين بلا مشاركة أيضًا. عالم كامل مليء بالحقائق والإشاعات والمشاحنات، تمامًا مثل الواقع، تتتالى فيه التراشقات والمنافسات والمعايرات والمجاملات والمناسبات، الكل يُعلق وجهه في مسمار فضائي وينطلق وهو ثابت مكانه، هناك من يُحجم عن المشاركة، ومن يُفضل «كومباوند» الواتساب، ومن يميل إلى تجمعات تويتر السكنية، والكل ينتظر اللقاء. هكذا واتته الفكرة العجيبة، أن يكون صانعًا للعالم الجديد، عالم ينقذه من ذلك العالم المفقود، عالم قرر أن يكون هو صانعه ويستطيع أن يقيم فيه بيتًا من الوهم. وبعد أسبوع كامل من التفكير المُضني والسرد والكتابة والحذف والمراقبة شرع سعد في كتابة ما سمَّاه لحظتها «بيت الوهم».

٣
قانون البيت

كانت البداية أفكارًا مجردة عن تلك الشخصيات المولودة على صفحات الفضاء الإلكتروني، ثم قرر أن يبعث الحياة الوهمية في تلك الشخصيات، بأن يُطلقها في صورة صفحات على فيسبوك، ويصنع لكل شخصية تاريخها وحكايتها وأفكارها ومقولاتها المميزة، فضم الشخصيات الست في جروب واحد، وجعلها تتفاعل وتتبادل التعليقات والجدل، بل والغضب والاختلاف أحيانًا، اختلاف يصل إلى إلغاء الصداقة ولا يصل إلى الحظر، ثم جلس يتابع تفاعل شخصياته التي خلقها من الوهم وهي تتحاور وتتجادل مع الشخصيات الحقيقية، وقد أدخل ذلك على قلبه كثيرًا من السرور والبهجة الوهمية أيضًا لأن قلبه الحقيقي كان مليئًا بالندوب العميقة، ندوب عمَّقتها وحدته وذكرى تركِه لسوزان في الميدان المزدحم. كان يهرب من تلك اللحظة بالدخول إلى ذلك العالم السحري، عالم يكون فيه مبتكرًا، يصنع الشخصيات ويظل يتابعها ويتابع تصادماتها في تلك الحياة اليومية الوهمية التي صنعها بحزن صافٍ ومزج صُنعَه

القلقُ والهربُ. وانطلق يواصل ملهاته المأساوية أو مأساته اللاهية ويدخل مراقبًا أطفاله ليعرف ماذا صنعت بهم الأقدار، لقد اكتفى بهم ولم يعد الواقع في الخارج يعنيه كثيرًا، واستبدل به ما يحب ويهوى، استبدل به حياة أحمد حسن وسماهر ومهرة وهنادي وربيع ويحيى. وقضى ليالي طويلة في خلق قانون ودستور ومعايير لتلك الشخصيات حتى يُحكِم سيطرته قبل أن يطلقهم في فضاء الوهم، عالم افتراضي جمع داخله الافتراضيين وأشباههم. وهكذا استراح من هَم ملاحقة الذكريات، ووقف يتأمل ما كتب، ثم اتجه إلى شباكه يراقب العالم الحقيقي في الشارع باستعلاء واستغناء شديدين.

فقدت الحياة الطبيعية رونقها، فشل الناس في التعامل مع الحياة بشكل مباشر، الزواج والطلاق والتعليم والتجارة وكل شيء لن يصلح كما كان في الماضي، الحياة الافتراضية هي الوحيدة القادرة على جعل حياة البشر المعاصرين حياة بلا مواجهة، بلا لحم ودم، ومن غير تكلفة ظاهرة، حياة تختبئ خلف شاشة مضيئة، وهنا على تلك الشاشة ستجد كل شيء، الصداقة والجنس والألعاب والمنافسة والمكسب والخسارة والفرجة والمتعة، الطعام تستطيع أن تشتريه من الشاشة، كذلك الملابس والأدوات الكهربائية وحتى أثاث المنازل أيضًا من هنا، والرحلات من هنا، ما عليك إلا أن تقيم بشكل كامل داخل تلك الشاشة حتى لا تحتاج إلى الحياة الطبيعية التقليدية في شيء، النقود أيضًا تغير مفهومها وأصبحت هناك نقود إلكترونية، ليت الأمر اقتصر على ذلك الحد، لكن رغبة الإنسان في التطور هي كل شيء، هي سر نجاحه، وهي ألمه أيضًا الذي يلقي به إلى حتفه.

لقد اختلف العالم تمامًا بعد ظهور أحمد حسن، ونستطيع أن نقول إن تاريخ ميلاد أحمد حسن كان هو الزمن الفاصل بين حقبتين: حقبة الحياة المباشرة الطبيعية، وحقبة الحياة البديلة التي ساهم في تأسيسها أحمد حسن.

قال أحمد حسن:

«من دلوقتِ كل حاجة اتغيرت وللأبد، ومن هنا من الشاشة دي إحنا أسياد العالم الجُداد، جروب هيخلق عالم كامل بديل، إحنا اللي هنقدر نحرك رغبات البشر ونحدد أولوياتهم، من هنا هتتولد ثورات وحروب ملهاش آخر، وزي ما جبل الأوليمب كان فيه آلهة اليونان اللي بيحكموا العالم، هنا وعلى الشاشة دي هيكون فيه عظماء جُداد صغيرين يقدروا يغيروا مصير العالم.

الناس بتهرب من حياة طبيعية محبِطة لحياة بديلة افتراضية مبهجة، إحنا الأمل والسعادة والبهجة والمتعة في مواجهة عالم اليأس والحزن والكآبة والألم، المقارنة دايمًا في صالحنا، إحنا أحياء في عالم افتراضي وهما أموات في عالم حقيقي قديم متهالك».

سألته سماهر في إعجاب مفرط:

«حلوة معلومة جبل الأوليمب دي، جبتها من فين؟».

رد بتواضع زائف:

«إحنا جيل المعلومات المتاحة يا سماهر».

شردت سماهر في ذلك الوسيم الجميل الذي لا نظير له، ووضع أحمد حسن الآيباد على بطنه الكبير وقال: «يا جمالك يا ميدو».

تطور ذلك الجروب المسمَّى «أعداء الحياة»، وصار له آلاف المتابعين في فترة قصيرة، وانطلقت أفكار أحمد حسن العجيبة التي كانت تزيد المجموعة حماسًا في بوست طويل جعله فقط للأصدقاء الستة:

> «إننا الكسالى الأذكياء الذين فرض علينا واقعنا الجديد ألا نخرج من حجراتنا سنوات طويلة، والعالم يدفع الناس دفعًا إلى السجن الاختياري؛ صنع كل الحجج، وقدم كل الإغراءات، ليظل الإنسان رهين غرفته يأكل ويشرب ويكتب ويفكر ويشاهد ويشتري ويبيع ويشعر ويلتذ، كل شيء تحت قدميك، والثمن الوحيد الذي تدفعه نظير ذلك ألا تخرج. لقد أدرك جيلنا اللعبة، ومن خلال غرفاتنا المغلقة سنوجه العالم كيف نشاء، العالم في الخارج كائن حي ضخم يُحتضر ونحن هنا نحرك كل شيء».

صفق الخمسة الباقون في تأييد، وظل كل واحد منهم يطرح فكرته الجديدة، وكانت الفكرة الأولى هي أن تصبح الشوارع خالية، وبدأت دعوات جروب «أعداء الحياة» للمتابعين إلى ترك الشوارع والجلوس في البيت؛ الشارع يستدرج الإنسان إلى المشكلات والصراعات والمرض والموت، في البيت أنت مخلوق آمن. تطورت الفكرة

العجيبة بالتدريج إلى دعوة ساكني الجروب إلى مقاومة من يريد أن يخرج من بيته إلى الشارع؛ عليهم أن يمنعوه بكل قوة. لاقت الفكرة رواجًا، وبدأت الشوارع تظهر خالية لا يمر فيها إلا عدد قليل جدًّا من البشر لأسباب قهرية. ونجح الجروب في يوم مشهود في أن يجعل مدينة كاملة لا يخرج فيها أحد إلى الشوارع لثلاثة أيام متتالية. كانت الأمور تسير وفق تخطيط أحمد حسن ورفاقه، وكانت فكرتهم الكبرى هي السيطرة على أكبر عدد من الناس بالتدريج: في البداية أن يحتوي الجروب على أكبر عدد من المتابعين، ثم تكون الخطوة الثانية بتأثير الجروب المباشر في حركة وأفكار هؤلاء الذين تابعوهم، حتى يصبح الأصدقاء الستة هم أصحاب «بيت الوهم» الذي يسكنه أكبر عدد من الناس الذين لا يغادرون حجراتهم إلا للضرورة، ثم نشر أفكار ومعتقدات أحمد حسن ورفاقه حول تقسيم العالم إلى عالمين: عالم قديم ميت متهالك هو عالم الحياة المباشرة، وعالمهم وهو العالم الحي في الفضاء الإلكتروني، ثم منح شخصيات المتابعين صفة الإنسان الجديد، وهو إنسان له مزايا غير مسبوقة، فهو عضو في جروب «أعداء الحياة»، وإنسان مؤسس في «بيت الوهم»، وله مكانة تجعله أرقى من الإنسان المباشر الطبيعي الذي يجوب الشوارع ويذهب إلى العمل والمستشفيات والمدارس، وعلى الإنسان الجديد أن يدرك قوته وتفوقه ويثق بأنه وحده القادر على إدارة العالم من غرفته ومن شاشة جهازه الذكي.

هكذا كانت خطة أحمد حسن التي بدأ يؤمن بها الآلاف بل الملايين، وصار الجروب هو وطن الستة الذين لم يلتقوا قَطُّ إلا عبر

فضاء الإنترنت، إنهم تسيدوا العالم بالفعل، إلى أن حدث حادث غيَّر مسار القصة وجعلها تمر بأزمة كبرى.

حاور أحد المتابعين - يسمِّي نفسه على الجروب «الساكن الجديد» - إحدى الشخصيات على تويتر، وانتقل الحوار إلى «الإنبوكس»، واتهمه الثاني صاحب اسم «الماضي الجميل» بأنهم مجموعة من المختلين، وأن فكرة تقسيم العالم إلى عالمين فكرة حقيرة، وأنهم مجموعة من الكسالى الذين أصابتهم أمراض الوحدة فصاروا مجموعة من المعتوهين الذين يحملقون إلى شاشات إلكترونية مضيئة بلا وعي، ويضغطون بجرأة الجبناء على الأزرار لينشروا أمراضهم النفسية. وختم «الماضي الجميل» كلامه مع «الساكن الجديد» بجملة:

«ولو إنت إنسان وراجل بجد انزل دلوقتِ من بيتكم وقابلني، واجِه الحياة اللي بجد، لكن مع الأسف إنت جبان وكسول وملكش لازمة».

انتهى الحوار، وحذف «الساكن الجديد» «الماضي الجميل» من قائمة الأصدقاء، وشعر بإهانة كبيرة، وأقسم أن يثأر لكرامته.

أوجد سعد من شخصياته في «بيت الوهم» حلًّا لكل ما يؤرقه من مشكلات يومية مع الحياة الطبيعية، وها هو يحقق انتصارات كبرى عبر جروب «أعداء الحياة» الموجود على فضاء الإنترنت، بأن يجعلهم ينشرون أفكارهم ويدخلون في سجالات يومية مع أشخاص حقيقيين في الواقع، وصار الأطفال الستة في بضعة أشهر يتابعهم ما يقرب من مليون شخص، مليون شخص تقودهم ست شخصيات

وهمية، صحيح أن صانع ومحرك تلك الشخصيات الوهمية هو إنسان حقيقي، لكن الأمر الآن أصبح منفصلًا عن سعد، لقد ترك شخصياته تُعبر عن مواقفها هي، لم يعد يتدخل، كان أحيانًا يتساءل: هل يكتب رواية أم أنه يصنع عالمًا جديدًا؟ كان يكتب بشكل يومي كالمحموم، وزادت درجة حرارته بالفعل وهو يراقب أطفاله الستة في عالمهم الجديد وهم يشتبكون مع واقع يرفضونه، وقبل أن ينام كان يبتسم في حنان أبوي لا يخلو من شر ويقول: «ترى ماذا سيصنع أعداء الحياة غدًا؟».

كان موت «الماضي الجميل» في حادث سير هو الجريمة الأولى في تاريخ جروب «أعداء الحياة»، لا يدري أحد على وجه الدقة مَن الذي نفذ تلك العملية الخطيرة وقتل «الماضي الجميل» الذي تبين أنه شاب يسمَّى «هشام غريب قلاش» ولم يزل طالبًا جامعيًّا في السنة الأخيرة من كلية الحقوق.

أعلن «الساكن الجديد» داخل الجروب المغلق أنه المسؤول عن قتل «الماضي الجميل»، وقدَّم مبرراته وضمَّنها «سكرين شوت» من حوارهما الأخير. لامت المجموعة المؤسسة المتابعَ «الساكن الجديد» على الفعل الذي وصفته بالمتسرع والفردي، ولم يستند إلى قرار علوي يدعمه، وجُمِّد نشاطه داخل الجروب لمدة أسبوعين كاملين.

لم يُخفِ أحمد حسن في اجتماعه الخاص مع بقية المجموعة سعادته الشخصية بقدرة الجروب على الفعل، وأن الأمر قد يبدو في ظاهره جريمة مرفوضة لكنه في النهاية مؤشر ودليل على قوة التأثير.

كان الحادث يمكن أن يمر مرور الكرام لولا أن القتيل كان محبوبًا جدًّا في كليته، وأقام له شباب الكلية تأبينًا لائقًا، دار بعده حوار بين صديقه الأقرب وخطيبة الشاب، قالت فيه إن خطيبها كان متوترًا وحزينًا في أيامه الأخيرة وحكى لها عن قلقه الكبير من جروب «أعداء الحياة» وأفكارهم، وإنه كان من المتابعين لهم ثم ألغى المتابعة، وإنه دار بينه وبين أحدهم حوار حاد انتهى بحذفه من قائمة الأصدقاء، وإن ذلك المتابع يُسمِّي نفسه «الساكن الجديد»، وإنها تشك في طريقة موت خطيبها المفاجئ خصوصًا أن عامل الدليفري الذي صدمه بدراجته البخارية قال إنه اختل اتزانه وانحرف بشدة وفجأة تغيرت توجيهات «الجي بي إس» في هاتفه بشكل مباغت ليجد نفسه يطيح بهشام بعيدًا إلى الناحية الأخرى من الرصيف، لتكمل سيارة نقل القصة الدامية وتدهس هشام دهسًا تامًّا. بكت الخطيبة، وربت على كتفها الصديق، وفي الصباح كان الصديق والخطيبة في قسم الشرطة يحرران محضرًا ضد جروب «أعداء الحياة» يتهمانهم فيه بقتل الطالب الجامعي هشام.

تعجب الضابط من طبيعة البلاغ الذي يتهم شخصًا غير معروف بالتحكم الإلكتروني في هاتف سائق دراجة بخارية حتى يصطدم بشخص آخر ويقتله.

بالتأكيد لم يكن الأمر كذلك، وعامل الدليفري – وهو أحد المتابعين لجروب «أعداء الحياة» – تلقى أمرًا من المعروف على الجروب باسم «الساكن الجديد»، وهو المقيم في محيط «الماضي الجميل» السكني، لينفذ مهمة صدمه بالدراجة البخارية. وعند

التحقيق قال عامل الدليفري إنه انحراف مفاجئ غير مقصود نتيجة نظره إلى شاشة الهاتف حتى يحدد موقعه عبر «الجي بي إس» ليجد نفسه يطيح بالشاب، وأنكر تمامًا علاقته بذلك الجروب.

لم تكن الجهات الأمنية وحدها هي التي بدأت التحرك والبحث خلف ذلك الجروب، ولكن الأفكار التي نشرها، والمتابعين، والأثر الذي أحدثه، كان كافيًا لتحرك جهات أخرى عديدة، جهات رأت في ذلك تهديدًا مباشرًا لوجودها الاقتصادي في الشارع، خصوصًا أن الجروب أعلن أنه سيصدر عملته النقدية الخاصة به ليفتح بها حسابات بنكية مغلقة فقط على المتابعين. كانت خطوة طموحة من أعداء الحياة، ولم يكن أحمد حسن ورفاقه يدركون أنهم صاروا هدفًا لكثير من الأعداء.

على صعيد آخر، بدأ ما هو أخطر من كل هؤلاء الأعداء يهاجم المجموعة هجومًا مباشرًا وشرسًا، كان العدو هذه المرة من الداخل كالعادة، فقد جرت العادة أن يصاب أي كيان بعد تحقيقه خطوات كبيرة بآفة الإحساس بالنجاح، إحساس مقيت يجعل الإنسان يفقد كثيرًا من رهافته، ويُذهِب عنه التردد القديم والتواضع الذي صاحب بدايات التجربة، ليصبح شخصًا يشعر بالزهو، وتندفع الدماء نحو أذنيه عند المدح، ويضرب عِرق صغير قرب قفاه فيبادر بالحَك، ويحني رأسه في ابتسامة وصمت وهو يحاول جاهدًا أن يبدو متواضعًا، فيما داخله صرخات عالية تردد: «أنا أنا أنا العظيم اللي عمل كل ده».

هكذا أحس أحمد حسن حينما نظر إلى شاشته المضيئة على

الآيباد وهمس لنفسه: «صبي صغير قدر يقسم العالم نصين، وقرَّب كمان يخليه عالم واحد خاضع تحت صوابعه!».

هنا شعر أحمد حسن بأنه أخف من الريشة، وأكثر وسامة من نجوم السينما، وأقوى من المصارعين، وأكثر ذكاءً من إبليس، وقاده زهوه وغروره إلى أن يطلب من سماهر – التي هي ليلى – أن يقابلها في العالم الحقيقي.

ضحك سعد بصوت عالٍ في وحدته وكتب:

«سرى الغرور في نفوس الأطفال الستة بتنويعات مختلفة، وقرروا جميعًا أن يظهروا.

كانت شهوة الظهور قد قهرت داخلهم متعة الخفاء، وأصر أحمد حسن على أن يلتقي سماهر قبل ذلك الاجتماع السداسي الذي طرح فكرته ووافق عليها الجميع، فوافقت على طلبه على أن يكون اللقاء سريعًا، وبعده ينضم إليهما الجميع في المكان المتفق عليه.

كان الأمر يحتاج إلى تخطيط كبير، فهم الآن في وضع دقيق، وهناك عديد من المتربصين. اتفق الستة بعد كثير من التشاور على أن يكون اللقاء على سطح عمارة أحمد حسن قبل الغروب بنصف ساعة، كانت عمارة مكونة من تسعة طوابق. وكانت رغبة أحمد حسن في الخروج من الغرفة والشقة أمرًا مفاجئًا وعجيبًا بالنسبة إلى والديه، لكنهما استجابا بفرحة، فهو ما زال في أعينهما صبيًّا صغيرًا سمينًا جدًّا وانطوائيًّا لا يغادر غرفته

إلا إلى الحمام، مما جعل فرحتهما أكبر من دهشتهما.
خرج من غرفته واتجه إلى الصالة وهو يترنح من ثقل وزنه، وحاول والده أن يسنده لكنه أبعد يده بخشونة أثارت ضيق الأب، فربتت الأم على كتفه مهدئة:
- اعذره، أول مرة يخرج.
- أنا خايف عليه.
ابتسم أحمد وهو يعبر بصعوبة من باب الشقة:
- ما تخافش، مش هاتأخر، هاطلع السطح وأنزل.
وأغلق الباب بعنف، وبدأ رحلة شاقة في الصعود إلى السطح بعد أن فشل في الدخول من باب المصعد لكبر حجمه.
على السطح كانت سماهر تنتظره، صبية نحيلة تقضم أظفار أصابعها وتتلفت حولها في ارتباك، وعلى عينيها نظارة طبية، وتشعر بالرعب الشديد فهو خروجها الأول.
وصل أحمد حسن أخيرًا إلى السطح يتصبب عرقًا، وصافح سماهر مبتسمًا، وصافحته مندهشة جدًّا من ذلك الصبي الذي خالفت حقيقته كل توقعاتها. وطالت بينهما النظرة، واختفت ابتسامة أحمد حسن، وقال بصدق خلا من التهذيب:
- إنتِ مش زي خيالي خالص!
ردت سماهر بجفاء متعمدة إغاظته:
- كويس إنك عرفت تطلع السطح لوحدك!

احتقن وجه أحمد حسن بشدة، وبدا كأنه ندم جدًّا على اللقاء، وزاد عرقه وارتباكه، وانكمشت سماهر في صمت ثم قالت:

– يا ريتنا فضلنا كده من غير ما نتقابل.

ورد أحمد حسن مؤيدًا:

– آه والله، بدل اللي أنا حاسس بيه ده لما شُفتك!

ظل كلٌّ منهما يتحاشى النظر إلى الآخر، ومر الوقت بطيئًا. ثم صعد طفل قصير كبير الرأس يرتدي قميصًا مزركشًا وعلى رأسه طاقية وفي يده كيس كبير من الحلوى، هتف بصوت رفيع ممطوط مضحك:

– أنا يحيى.

كتمت سماهر ضحكتها، ونظر إليه أحمد حسن مُرحِّبًا ومد يده بالسلام، وظن يحيى أنه يريد الإمساك بكيس الحلوى فسحبه بعيدًا في خوف.

ثم ظهر طفل رابع نحيل جدًّا كأنه عود كبريت، وطويل وله شعر أشعث، كان يرتدي بنطلونًا ضيقًا وجاكتًا لامعًا، ورفع يده معلنًا عن نفسه:

– أنا ربيع.

نظرت إليه سماهر بإعجاب جعل أحمد حسن يكرهه من النظرة الأولى.

ثم ظهرت هنادي، وهي صبية بأسنان مكسرة وشعر ناعم وعينين خضراوين جميلتين، كانت رقبتها طويلة

بشكل ملحوظ ولها أنف طويل دقيق، قدمت نفسها بارتباك وجلست في صمت بجوار سماهر وقالت لها هامسة:

- هو أنا شكلي كويس؟

ردت سماهر بلؤم:

- لأ.

وأخيرًا ظهرت مهرة، نحيلة جدًّا، وسمراء، ومتوسطة الطول، وشعرها ملموم، تضع يدها على فمها وهي تتفرس في الوجوه في توتر، وقالت:

- أنا مهرة، إنتو كلكم شكلكم مش زي ما توقعت، شكلكم عجيب أوي!

قال أحمد حسن محاولًا أن يكون قائدًا:

- إحنا الستة قدرنا نعمل اللي ما اتعملش، أنا مبسوط بيكم، إنتو قدرتوا تنفذوا كلامي، وكل اللي خططتله نجح.

رد ربيع في ضيق:

- كلامك إيه؟ وخطط إيه يا عم ريشة؟ إنت طلعت مش ريشة خالص!

شعر أحمد أن هناك نبرة تنمر على وزنه، فوقف غاضبًا مزمجرًا، وأكمل ربيع كلامه وسخريته:

- إحنا حكاية «الماضي الجميل» دي هتودينا في داهية!

تمالك أحمد حسن نفسه وحاول أن يبدو قويًّا:

- محدش هيقدر يوصلنا، ولو سمعتوني كويس هنقدر...

قاطعه يحيى مازحًا:

- هو إنت تخين فعلًا ولَّا ده غرور زيادة؟ عمَّال تتكلم كأنك زعيم، محدش هنا أحسن من حد، اتعدل واتكلم كويس بدل ما أشوطك!

أضحكت سماهر الكلمة الأخيرة وهي تتخيل ريشة ويحيى يركله ككرة ضخمة فيطير في الهواء. وجرت الدماء في عروق أحمد حسن فتقدم خطوتين ودفع يحيى بغشم زائد فأوقعه على الأرض، وصرخت سماهر:

- إيه اللي بتعمله ده؟!

اعتدل يحيى وأمسك ربيع بيده وأوقفه، ونظر إلى أحمد حسن موبخًا:

- إحنا علشان على سطح بيتكم تعمل كده؟ لِم نفسك بدل ما أمسكك من خدودك دي!

هتفت هنادي:

- لازم أروَّح.

وقالت مهرة في ارتباك بصوت هامس ظنت أنه لن يسمعه غيرها:

- ما كانش المفروض نتقابل، فكرة سخيفة من حد سخيف، فكرة أسخف من صوت يحيى!

رد يحيى بغضب فزاد صوته غرابة وهو يقذفها بكيس الحلوى:

- إنتِ تسكتي خالص! بتحطي إيدك على بُقك ليه وإنتِ بتتكلمي؟ ها؟ علشان عارفة إن كلامك وحش زيك!

لكزه ربيع في كتفه محذرًا:

- ملكش دعوى بمهرة!

وغمغم أحمد حسن:

- ده اجتماع لأهم ستة في العالم؟! إنتو مش عارفين إحنا مين؟

ووقف وتحرك غاضبًا نحو حافة السطح فاختل اتزانه ووقع على الأرض، وعانى كثيرًا حتى يستطيع الجلوس ثم الوقوف، وتعالت ضحكات سماهر ومهرة، لكن ضحكات سماهر جرحته أكثر، فأمسك بخشبة ملقاة وهوى بها على رأسها فسالت الدماء على خدها، وصرخت مهرة وهنادي، وأمسك ربيع برقبة أحمد حسن حتى احمر وجهه وجحظت عيناه، ودارت معركة حامية لم يسلم منها أحد».

٤
صانع العالم الجديد

شرد سعد صانع العالم الجديد «بيت الوهم» أمام شاشة الكمبيوتر بعد أن أتم كل شيء في ذهنه وكتب بإيقاع متمهل هادئ:

«ستة صبية مرتبكين، قليلي الثقة بالنفس، لديهم خشونة وقسوة في التعبير لعدم خبرتهم بالحياة الطبيعية، ضاعت صيحة أحمد حسن هباءً وهو يحاول أن ينبههم، ولكن بعد فوات الأوان:

- خلوا بالكم ده فخ! الحياة الطبيعية المباشرة هي اللي وصَّلتنا لكده، لازم نروَّح ونرجع أوضنا لاااز...

وهوى ربيع عليه بحجر ضخم أفقده النطق والحركة إلى الأبد!

شعرت سماهر بالندم، وجرت بكل قوتها نحو ربيع ودفعته بيديها نحو السور القصير فهوى عن السطح، ولكنه تشبث بيدها - بكل ما تحمله طاقة الرمق الأخير - وسحبها معه، ليسقطا معًا من الدور التاسع!

صرخت هنادي بهستيريا:
- وقعوا! وقعوا! لازم أروَّح! لازم أروَّح!
كان يحيى قد أمسك مهرة من شعرها وراح يكيل لها اللكمات بشكل آلي وعيناه مغمضتان ولسانه يكرر:
- إنتِ ما كنتيش كده في خيالي! كنت متخيلك غير كده!
كفت مهرة عن المقاومة، وسالت دماء كثيفة من فمها، وجرت هنادي على السلم فزعة، لكن يحيى لحق بها في إصرار عجيب، فانزلقت قدماها وتدحرجت على السلم وارتطم رأسها بالحائط، ولم يدرِ يحيى هل ماتت أم ما زالت حية، لكنه تخطاها وأسرع يهبط الأدوار التسعة، وعلى باب العمارة أمسك به البواب الذي لاحظ الدم والعرق على ملابسه، فيما التف الناس خارج العمارة حول جثتَي ربيع وسماهر!
لاهثًا صعد والد أحمد حسن وأمه السلالم نحو السطح في جنون، بعد أن وصلت إليهما الصرخات والأخبار، ليجدا جثة ابنهما وإلى جواره مهرة وقد لفظت أنفاسها. صرخت الأم صرخة أيقظ صداها الحي الذي صدمته الجريمة المروعة في أول الليل!
علم الناس بعد لحظات قصة الأطفال الذين حاولوا تغيير العالم وصنعوا لأنفسهم بيتًا من الوهم.
كم كانت صورهم بريئة طيبة! وكم كانت أسماؤهم الحقيقية مألوفة ومتداولة!

حاصرت الكاميرات الطفل الناجي من المذبحة، وكان اسمه الحقيقي «حازم رضا توفيق». كان يقف مدهوشًا أمام أسئلة المذيعة الخرقاء، ولا يجد إجابات ملائمة، فقط كان يكرر جملة واحدة: «عايز أروح أوضتي»».

ولأن الخطأ التراجيدي كان داخل شخصية سعد واجب الحدوث، فقد قاد الغرور أحمد حسن – الذي هو ريشة – إلى إظهار نفسه بشكل كامل لسماهر – التي هي ليلى. وكما أن للخفاء متعة وقوة، فإن للظهور شهوة لا تُقهر. وكان اليوم الذي التقى فيه الستة هو آخر عهد الناس بجروب «أعداء الحياة»! لقد اختبأوا في الفضاء الوهمي لسنوات وعندما ظهروا كانت نهاية قصتهم!

نظر سعد برضا إلى روايته التي اكتملت، ورأى سوزان وهي ترتدي جلبابه الأبيض وتضحك ضحكة خجولة وقد شمرت عن ذراعيها وعليها آثار ماء وتقول:

– هتفضل تدوَّر على بيتك يا عيسى طول عمرك!

ابتسم قبل أن يغيب طيفها اللطيف، وكتب مسرعًا خشية أن يفقد ما ظهر له من نور:

«الذكريات غرفتنا التي ندخلها بمفردنا ونغلق بابها ونلهو بمقتنياتنا بفرحة طفل. ليتنا حين صنعنا تلك الغرفة وما تحوي، أعطينا نسخة من مفتاحها لشريك يدخلها في غيابنا ويتذكرنا».

٥
المولود الجديد

نالت رواية «بيت الوهم» قسطًا وافرًا من النجاح، دفع الناشر إلى أن يطلب من المؤلف رواية جديدة، فأخبره المؤلف أنه لا يملك في الوقت الحالي سوى رواية قديمة جدًّا ويرى أنها لا تصلح للنشر، فطلب منه الناشر سرعة إرسالها إليه بالبريد الإلكتروني، وكانت الساعة الثانية صباحًا حينما هتف صوت الناشر في أذن سعد:

– إنت مجنون؟! الرواية دي ما يكتبهاش إلا مجنون!

أُسقط في يد سعد وردَّ:

– أنا قلتلك من الأول إنها ما تنفعش.

ضحك الناشر ضحكة عالية وقال:

– هي إيه اللي ما تنفعش؟!

سنوات طويلة مرت وسعد يكتب، ورواياته تحقق مبيعات متزايدة، ويتحول أغلبها إلى مسلسلات وأفلام كبيرة، وها هو في حفل توقيع لرواياته وقد اقتربت سِنه من السبعين، كانت هناك زوجة، وفتاة جميلة غير مكترثة بذلك الحفل لكنها أتت من أجل مؤازرة أبيها، فقد أصيب

بجلطة أرقدته أيامًا في المستشفى قبل أن يعود إلى حياته الطبيعية، ومن لحظتها وهي أكثر التصاقًا به.

في القاعة كان سعد يوقِّع روايته «موت العالم - المعروفة شعبيًّا بـ«مذكرات محمود غزالة»» وسط عدد كبير من رواياته، حينما قالت له إحداهن:

- ممكن توقَّعلي؟

فهمس من دون أن ينظر إليها:

- اسم حضرتك؟

همست:

- سوزان.

ارتعش القلم في يده، ونظر إلى أعلى مبتسمًا، ليجدها سوزان التي تبتسم وتقول:

- سوزان يا عيسى!

نظر إليها سعد فرِحًا، وكتب بخط رائق جميل:

«إلى سوزان التي أحببتها...».

ثم وقَّع بيد ثابتة وبلا تردد بكلمة «عيسى».

أخذت الرواية واختفت بخجلها المعهود، وتتالت بعدها نساء ورجال وشباب وصِبية يريدون توقيعه، لكنه كلما رفع رأسه مبتسمًا لمن يريد التوقيع رأى صورة سوزان مرة أخرى! تحول الجميع إلى سوزان، سوزان المبتسمة تمد يدها بالكتاب، وسوزان المندهشة التي تسأله عن بيتها المجاور للحديقة المفتوحة، وسوزان الحزينة والغاضبة، وهو يكرر نفس الجملة:

«إلى سوزان التي أحببتُها».

ثم يوقِّع نفس التوقيع: «عيسى».

علت الهمهمات من الحضور، ورفع سعد رأسه مندهشًا من تكرار وجودها، لكنه لم يجد لها أثرًا، كان الناس يقفون أمامه يبتسمون ويهمسون له في خجل:

– فيه غلطة في التوقيع حضرتك، عيسى مين؟ ممكن حضرتك توقَّعلي تاني؟

هرب سعد من نظراتهم المستهجنة والمتسائلة، وخرج فجأة إلى خارج القاعة وسط دهشة زوجته وابنته اللتين وقفتا تعتذران وتحاولان اللحاق به.

وفي الخارج كان يقف متلهفًا يتلفت حوله باحثًا عن سوزان وهو ينظر إلى ساعته ويردد: «راحت فين يا... راحت فين يا...».

لم ينجح في تذكر اسمه، وكان مع كل خطوة يخطوها بحثًا عن سوزان ينسى كل شيء بالتدريج. لم يلتفت نحو زوجته وابنته اللتين تناديانه في الخلفية، ولا نحو الناشر الذي أسرع إليه الخطى، كان مشغولًا بالبحث عن سوزان وعن نفسه أيضًا. مر غزالة الحقيقي به مبتسمًا سعيدًا خفيفًا أصغر سنًّا مما رآه آخر مرة، وقال له مبتسمًا:

– مفيش أريح من إنك تقول اللي جواك قبل ما تموت لشخص بتحبه.

هز سعد رأسه موافقًا، وسأله في جدية:

– إنت تعرف أنا مين؟

رد غزالة مبتسمًا:

- تلميذي.

لم يفهم سعد شيئًا، ووجد غزالة الذي كتبه في رواية «موت العالم» يسير شاردًا صامتًا، فأوقفه متسائلًا في رجاء:

- ما تعرفش أنا مين؟

أجابه غزالة بطل الرواية من غير أن ينظر إليه:

- إنت حد بيحاول إنه يفضل حي، بس مع الأسف مش بإيدك.

التفت كغريق يبحث بين الأمواج عن نجاة، فوجد الشاب السمين أحمد حسن يسير متدحرجًا ككرة وبيده الآيباد ينظر إلى شاشته ويقع ويقوم، فسأله في لهفة:

- أنا مين؟

فنظر إليه الصبي نظرة متفحصة، ثم عاد للنظر إلى الشاشة قائلًا:

- غالبًا إنت شخص من أشخاص العالم القديم.

كانت السيارة تحمل الأستاذ سعد مغمض العينين فاقد الوعي والذاكرة، وإلى جواره ابنته التي تبكي، وزوجته التي تمسك يده في حنان وحب، فيما كان هو في عالم آخر، عالم يسير فيه متأبطًا ذراع سوزان وهو يسألها مبتسمًا:

- هو أنا مين؟

فترد في حب وحنان:

- عيسى.

فيسألها:

- وعندي كام سنة؟

فتهمس في أذنه مداعبة:

– لسه مولود.

تشابكت أيديهما في حب، ودخل عيسى في حضن سوزان كطفل وجد ملاذه بعد طول عناء، فشعر بالراحة والدفء.

شعرت زوجة سعد ببرودة يديه، فمالت عليه في هلع، وقد أدركت أنه لم يعد حيًّا بالمعنى التقليدي.

هتفت سوزان – التي هي فوزية – وهما يعبران جسرًا فوق حديقة كبيرة مفتوحة تطل على نهر:

– وإزاي تعرف إنك حي؟

رد عيسى – الذي هو سعد:

– لما يبقى مش مهم إني أسأل.

ابتسمت سوزان وهي تعبر فوق النهر بقدمين ثابتتين وتمسك بيد سعد، وسألت:

– وإمتى يبقى مش مهم نسأل؟

أجاب سعد وهو يصعد فوق شجرة بلا أجنحة أو أقدام:

– لما تبقى كل حاجة ملهاش اسم.

ابتسمت سوزان وهي تداعب فم سمكة معلقة في الهواء والموج يحاول أن يصل إليها فتزداد دلالًا وتهز ذيلها، ثم مالت نحو سعد الذي انشغل عنها بثمرة تفاح اتخذها طائران كرةً لأجنحتهما، وقالت:

– وإمتى يحلى الكلام؟

اقتنص التفاحة من بين الأجنحة التي تضربها وقدمها إلى سوزان ضاحكًا كطفل:

– لما يبقى لِودنِك.

وغابا في سحابة زرقاء وهتف صوت: «مرحبًا بكما هنا، حيث لا ذاكرة ولا أسماء ولا موت».

وظهر في الميدان المزدحم رجل وامرأة لا يعرف أحدهما الآخر، أشار إليهما القدر أن يبدآ قصة جديدة تُغير شكل العالم.